ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، فقد حارب ، وانتصر ، وحارب وانهزم ، وتاجر فربح ، ويسير عليه ما يسير على البشر ، ومرة يدبر الأمر الذى لم يكن فيه منهج من السماء ، فمرة يصيب ومرة يخطىء . فيصحح له الله ؛ لذلك يأتى القول على لسانه بأمر من الله : لو كنت أعلم الغيب لما وقعت فى كل هذه المسائل ، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا : إننا أقاربك ، فقل لنا على موعد الساعة . حتى نستعد لملاقاتها .

ويتابع المولى سبحانه قوله : ﴿ وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾

وساعة ترى « إن » فهى مرة تكون شرطية مثل : « إن ذاكرت تنجح » ، ومرة تكون للنفى وتجد بعدها اسما ، والمعنى : ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون . والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذارة وبالبشارة ، وما يُنذروا به لا يفعلوه ، وما يبشروا به يفعلوه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

وقوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة » المقصود بها آدم ، وقول الحق : « وجعل منها زوجها » المقصود بها حواء ، ونلحظ فى الأداء فى هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث .

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾

ثم جاء بالتذكير فى قوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند « ليسكن » . فكأن الكلام فى النفس معنىٌ به جنس بنى آدم وهو الذى نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة ، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة ، والأنوثة كأنوثة ، يأتى بضمير المذكر ، أو بضمير المؤنث ، وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعلت للرجل سكناً ، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً ، كأن الحركة والكدح فى الحياة للرجل ، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان ، بالعطف ، بالرقة . أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربّنا الروحَ ، أما حواء فقد ذكرها فى هذه المسألة ، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها ، و« منها » أى أنها قطعة منه ، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج ، ومن يرجح هذا الرأى يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضويا ، فالمرأة بعض من الرجل ، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه . وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة . وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة فى خلق الإنسان من طين ، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له . ونعلم أن المرأة دائما مبنية على الستر . ومثال ذلك نجد الفلاح فى مصر لا يقول : زوجتى ، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلى » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً .

والحق يقول هنا : « وجعل منها » ، فإن كانت مخلوقة من الضلع فـ« مِنْ »

تبعيضية، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون «منْ» بيانية، أى من جنسها، مثلها مثلما يقول ربنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

أى الرسول من جنسنا البشرى ليكون إلف المبلغ عن الله، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر، فقال الحق على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويأتى الرد عليهم :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لابد أن يخلقه الله على هيئة الإنسان.

ويتابع سبحانه :

﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً ﴾

و« تغشاها » تعبير مهذب عن عملية الجماع فى الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة، والغشاء هو الغطاء، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهي لا تدرى أنها حامل، لأن نموّ الجنين بطيء بطيء لا تشعر الأم به.

﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

ومرت به، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل في شهوره الأخيرة.

وهنا عرف الزوج أن هناك حملا ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدني وصالحاً للقيام بقيم المنهج.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

أي أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة، وصار الذكر يسكن عند الأنثى.

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم، ثم جاء الكلام للذرية، وخصوصا أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشرى وأصل التوالد.

والقرآن قد يتكلم في موضوعات تبدو متباعدة، لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد، فنجد الحق يتكلم في أمر ثم يتكلم في آخر، مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

ولم يأت بسيرة البر هنا، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجيء الموت، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا يوصي الحق الإنسان بوالديه، بالأب وبالأم، ثم يتابع:

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحيثيات للأم.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

ويروى أن هذه الآية قد نزلت في «قُصَيّ» وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم، فقد طلب قُصَيّ من الله أن يعطي له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد، فلم يقل: عبدالله، أو عبدالرحمن، بل قال: عبد مناف، عبدالدار، عبدالعزى، وجعل لله شركاء في التسمية، ولهذا جاء قول الحق: «جعلا له شركاء فيما آتاهما»؛ ليدلنا على أن الإنسان في أضعف أحواله، أي حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث، يخطر بباله ربنا؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطي له ما يريده، وبعد أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا، ولذلك تجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله وتسبيحا لله حينما يكون فى الشدة وفى المرض، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته، لا أقول : إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة. لا، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال: ﴿ اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوٍّ ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ (١)

والإنسان ساعة يوجد فى المرض عليه أن يعرف النعمة فيه، فهو فى كل حركة من حركاته يذكر الله، وكما تخمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية، يمتلىء بإيجابيات علوية، ولذلك تجد الحديث القدسى يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال : وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى، قال : يا رب، كيف أطعمك، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان، فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى، قال: يارب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ﴾ (٢)

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده، ويكون فى المرض مع المنعم، وفى الصحة مع النعمة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى باب فضل عيادة المريض.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

أيشركون في عبادة الله من لا يخلقون شيئاً، وهم أنفسهم مخلوقون لله، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ونعلم أن البشر في المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهي التي لا ترى بالعين المجردة، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو في خرطومه شيئاً، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه، فقد ضعف الطالب والمطلوب.

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة، فإذا كانت الأصنام التي اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها ؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل. بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم. ونلحظ أن الحق جاء هنا بالقول : « أيشركون » بصيغة تعجب، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام، أي تعجب منكراً على وفق الطباع العادية، مثلما

يقول لنا :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

أي قولوا لنا ما الطريقة التي بها تكفرون بالله وتسترون وجوده، مع هذه الآيات البينات الواضحات ؟ فكأن ذلك أمر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار الشديد، وحينما يتكلم الحق بإنكار شيء لأنه أمر عجيب، يوجه الكلام مرة إليهم، ومرة أخرى يوجهه إلى غيرهم، مثل قوله هنا :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطى لقطتين في الآية، اللقطة الأولى : أن ينكر ما فعله هؤلاء، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة في نفوسهم، وفرحة بمواقفهم الإيمانية، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

وفي الآية الكريمة وقفة لفظية في الأسلوب العربي نفسه قد تثير عند البعض إشكالا، في قوله تعالى : « ما لا يخلق شيئاً ». و« ما » تعني الذي لم يخلق شيئاً، و« يخلق » هنا للمفرد، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾

وأقول : إن الذي يقف هذه الوقفة، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحي الثقافة بالعربية، لأنه لا يعلم أن « ما » و« من » و« الـ » تطلق على المفرد والمفردة، وعلى المثنى والمثناة، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث، فتقول : جاءني من أكرمته، وجاءتني من أكرمتها، وجاءني من أكرمتهما، وجاءت من أكرمتهما، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن.

وكذلك « ما ». إذن فقول الحق : « ما لا يخلق » في ظاهرها مفرد، ولكن اللفظ

يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة، إذن « يخلق » للمفرد، و« هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أي للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث.

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وسبحانه قال هنا : « ومنهم من يستمع إليك »، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا » أي أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك في « ما » و« من » و« الـ » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث. ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾.

وهنا في هذه الآية وقفة لغوية أخرى في قوله : «هم» وهي لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام « هم » وليست من العقلاء ؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكي يرتقي معهم في رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار. فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثاني مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون. وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثاني فهل هم قادرون على نصر غيرهم ؟ ها هو ذا سبحانه يترقى في الحوار معهم ترقية أخرى فيقول :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره.

وهكذا نجد الترقي في الحوار على أربع مراحل، أولاً: لا يخلقون، ثانياً: هم يُخلَقون، ثالثاً: لا ينصرونكم، ورابعاً: ولا ينصرون أنفسهم. ثم تأتي المرحلة الخامسة في قوله الحق:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وعلى ذلك فهي خمس مراحل - إذن - ، أكررها لتستقر في الذهن، أولها أنه من الجائز أنه لا يَخلُق، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً، ومن الجائز أنه لا يقدر أن ينتصر لغيره لأنه ضعيف، ولا ينتصر لنفسه لأنه أضعف، ومع ذلك إن أردت أن تهديه إلى شيء من ذلك أو إلى شيء من العلم فلا يقبل منك.

وكانوا في الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون: يا هبل، يا لات، يا عزى. وإن لم يصبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أي إن دعوتكم لهم لا تفيد في أي أمر تماماً كصمتكم.

ونلحظ أن الأسلوب هنا مختلف « سواء عليكم أدعوتموهم » فلم يقل: « أدعوتموهم أم صَمتّم »؛ لأن الفعل يقتضي الحدوث، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام. أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت « صامتون » لازمة، لأنها اسم، والاسم يقتضي الثبوت والاستمرار، أما الفعل فيقتضي الحدوث والتجدد.

والحق هنا يبلغ المشركين: سواء عليكم أدعوتموهم أم لم تدعوا، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم.

ثم يتكلم الحق عن قضية أخرى فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

و« تدعون » لها معنيان، المعنى الأول يعني أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم، والمعنى الثاني هو أن يقال : « تدعونه » أي تطلب منه شيئاً. والمعنيان يجيئان في هذه الآية :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم ﴾.

وعندما يسمع الإنسان كلمة « عباد » يفهم أنها من الجنس المتعقل الحي، فكيف تكون الأصنام عباداً ؟ وأقول : نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ وتقعيده، فالبناء مأخوذ من التذلل والخضوع، ألم يقل موسى لفرعون : ؟

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أي أذللتهم. وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تكون الأصنام عباداً أمثالهم في أنهم يُذلون؛ لأن السيل إذا نزل أو هبت الريح نجد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها، فيهرع المشركون ليأتوا بمن يعيد ترميم هذه الآلهة !! إذن فأنتم أيها المشركون؛ لأنكم مخلوقون بالله قد تملكون قدرة، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم ضر أن تدفعوا الضر عنكم، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها، أو يكسرها، أو يقلبها، فهي أضعف منكم. وبذلك تكون كلمة « عباد أمثالكم » لوناً من الترقي.

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم، فالعبد من الأحياء حينما يأتى شىء يستذله، قد يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشىء إلا إن كان الشىء قويا فوق طاقته. فالمراد والمقصود أنهم عباد أمثالكم أى مذللون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شىء عن أنفسهم. وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأخذت معنى عباد على معناها الإطلاقى، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مذلل من العباد.

لكن هناك مذلل ومسخر فيما لا اختيار له فيه، وآخر مذلل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً، والفرق بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر، بل إن الإنسان المؤمن له الاختيار فى أن يطيع أو يعصى. ولكن هناك أشياء أخرى تجرى على الإنسان لا اختيار له فيها، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول: لا لن أمرض، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول: لن أموت. وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع دفع القدر، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مذللاً مسخراً، والكافر والمؤمن فى هذه الأمور سواء.

والمؤمن يتميز بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار، وهذه فائدة الإيمان، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق له، إلى مراد الله منه فى الحكم، ويستوى بكل شىء مسخر لله، ولذلك نقول للذين يكفرون: كفرتم وتأبيتم بما خلق فيكم من الاختيار عن الإيمان بالله.

وقد جعلها الله لكم بقوله:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومادام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله، إذن فللواحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد، فلماذا لا تقول للمرض لن أستسلم لك. ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله فى منطقة الاختيار، أما فى غير ذلك فالكل عباد مذللون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وقول الحق تبارك وتعالى : « فادعوهم » أى اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أى طلب ؛ وهم لن يستجيبوا لكم ؛ لأنهم لا يقدرون أبداً. وفي هذا القول لون من التحدى « فليستجيبوا لكم » لكنهم لن يستجيبوا ، فليست لهم قدرة لأن يخرجوا على أمر ربنا ويقولوا سنعطيكم ما تطلبون ، لأن طاقتهم وطبيعتهم لا تقدر أن تستجيب.

وبعد أن قال الحق عن الأصنام : إنهم عباد أمثالكم ، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر فقال :

﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ ﴾

وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك ، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشى بها ، ولك يد قد تبطش بها ، ولك أذن تسمع ، ولك عين تبصر ، فهل للأصنام حواس مثل هذه ؟. لا ، ليست لهم ، إذن ، فالأصنام أقل منك ، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر ؟ إن هذا هو جوهر الخيبة.

وقوله : « يمشون بها » ، و« يسمعون » و« يبصرون » جاءت لأن المشركين صوروا التمثال وله رجلان وله أذنان وله عينان ويضعون في مكان كل عين خرزة لتكون مثل حدقة العين ، وحين ينظر إنسان منهم إلى التمثال يخيل إليه أن التمثال ينظر إليه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٨ سورة الأعراف)

وفى قوله تعالى :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام. فإنما يريد أن يحقق المسائل عن أقوى طريق، لأن الاستفهام لابد له من إجابة. والكلام من الله عند الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب. وإجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشى أو اللمس أو الرؤية أو السماع؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته. بل الحكم من جهة المشركين، وفى هذا إقرار منهم. ولذلك يقول الحق مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾

(سورة الانشراح)

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحنا لك صدرك ؟ كان يستطيع ذلك. ولكنه يأتى بالاستفهام الذى يكون جوابه : بلى لقد شرحت لى صدرى. وينبه قوله تعالى :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾

إلى مقارنة الأصنام بالبشر. فالبشر لهم أرجل وأيد وأعين وآذان، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه، وهكذا يتأكد للمشركين أنهم أعلى مرتبة من أصنامهم.

فكيف يجوز في عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة ؟ إن ذلك لون من الحمق .

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ورسول الله جاء بهذا القول ليدحض إيمانهم بهذه الأصنام التي اتخذوها آلهة وليسفه أحلامهم فيها ، وبذلك أعلن العداوة ضدهم - العابدين ، والمعبودين - وصارت خصومة واقعة ، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيدوا لرسول الله بالأذى أو التعب أو منع النصر الذي جاء للإسلام ، إن كانت عندكم أو عندهم قدرة على ضر أو نفع.

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ويتحداهم صلى الله عليه وسلم أن يكيدوا هم وآلهتهم ، والكيد هو التدبير الخفي المحكم. وانظروا ما سوف يحدث ، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضر.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء ، ليثبت بها أشياء ، وقد قالوا : إن واحداً قد سحر النبي ، ولنفرض أن مثل ذلك السحر قد حصل ، فكيف ينسحر النبي ؟ ونقول : ومن الذي قال : إنه سحر ؟. إن ربنا أعلمه بالساحر وبنوع السحر ، وأين وضع الشيء الذي عليه السحر ، ليبين لهم أن كيدهم حتى بواسطة شياطينهم مفضوح عند الله.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليتفرق دمه في القبائل ، فأوضح ربنا : أنتم بيتم ، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم. وليثبت لهم أنهم بالمواجهة لن يستطيعوا مضادمته في دعوته. ولا بالتبييت البشري يستطيعون أن يصدموا دعوته ، ولا بتبييت الجن - و هم أكثر قدرة على التصرف - يستطيعون

مواجهة دعوته. ومادامو قد عرفوا أنهم لن يظهروا على الرسول، ولن يفيد مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم، إذن فلابد أن ييأسوا، ولذلك تحداهم وقال :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وأنظره يعني أخره، والقول هنا : لا تؤخروا كيدكم مع شركائكم،

بل نفذوا الكيد بسرعة، وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما آوى إلى ركن شديد؛ لذلك يقول رسول الله بأمر الحق :

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

ومادام الوليّ هو الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم لايبالى بهم، و "الولى" هو الذى يليك، وأنت لا تجعل أحداً يليك إلا أقربهم إلى نفسك، وإلى قلبك، ولا يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك، إلا إذا آنست منه نفعاً فوق نفعك، وقوة فوق قوتك، وعلماً فوق علمك، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى :

﴿ إن وَلِيِّىَ الله ﴾

أى أنه ناصرى على أى كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبيته لى. فالله هو ولى الرسول أى ناصره، والقريب منه بصفات الكمال والجلال التى تخصه سبحانه وتعالى، وعندما يكون لمؤمن خصلة ضعف فهو يذهب لمن عنده خصلة قوة، ولذلك قلنا فى قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووجدوا قوم فرعون فقالوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾

أى أن جيش فرعون سيدركهم، لأن البحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس أمامهم فسحة أمامية للهرب ولا منفذ لهم إلا أن يصمدوا أمام جيش فرعون وهم بلا قوة، ولم يكذبهم موسى عليه السلام فى قولهم. بل قال لهم يطمئنهم :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهنا خرجت المسألة عن أسباب البشر وانتهت إلى الركن الشديد الذى يأوى إليه الرسل. ولا يقول هذا القول إلا وهو واثق تمام الثقة من نصرة الله، وسبق أن رويت لكم حكاية المرأة الأوربية التى أسلمت لأنها كانت تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كبطل من أبطال العالم، صنع أكبر انقلاب فى تاريخ البشرية، ولما مرت فى تاريخه صلى الله عليه وسلم، قرأت أن صحابته كانوا يحرسونه من خصومه وأعدائه، إلى أن فوجئوا فى يوم ما بأن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا عنى. فإن الله أنزل علىّ :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

واستوقفت هذه الواقعة هذه المرأة فقالت : إن هذا الرجل إن أراد أن يكذب على الناس جميعاً ما كذب على نفسه، ولايمكن أن يُسلم نفسه لأعدائه بدون حراسة إلا إذا كان واثقاً من أن الله أنزل عليه هذا، وأنه قادر أن يعصمه، وإلا دخلَ بنفسهِ فى تجربة. والباحثة من هذه الواقعة قد أخذت لفتة العبرة. وفى مثل هذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سوة الأعراف)

وكأنه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدى بالمعركة بالمكر والتبييت ، وألا يتأخروا عن ذلك وهو واثق من أن الله عز وجل ينصره .

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق ، ولا يمكن أن يسلمه إلى عدو يمنعه من تمام البلاغ عن الله. لقد أنزل الحق الكتاب على رسوله ليبلغه إلى الكافة ولا يمكن أن يتخلى عنه. ﴿ إن وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾

وقوله : " وهو يتولى الصالحين " أى أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه : كن صالحاً فى أى وقت ، أمام أى عدو ، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر ، وساعة يعمم الله الحكم ؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية فى قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم. وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئاً ما سوف يكون له هذا التأييد ، وسبحانه الذى جعل رسوله مُبلغاً عنه المنهج ، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون ؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح فى الكون ، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه ، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

لأن الذى لا يستطيع نصرك . يجوز أن يكون ضنيناً بنصرتك ؛ لأن حبه لك حب رياء ، أو لأنه يرغب فى أن يحتفظ بما ينصرك به لنفسه ، أما حين يكون غير قادر

على نصرتك ؛ لأنه لا يملك أدوات النصر ، فهذا يبين عجز وقصور من اتخذته وليا ، وهكذا كان حال المشركين. وفي يوم الفتح جاء المسلمون بالمعاول وكُسرت الأصنام ، ولم يقاوم صنم واحد . بل تكسرت كلها جميعا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

وبطبيعة الحال لو أن أحدا دعا هذه الأصنام إلى الهداية فلن تهتدى الأصنام لأنها من الجماد الذى لا تصلح معه دعوة أو فهم. رغم أن الصنم منها له عيون كالتى تراها حاليا فى معابد الهندوس أو البوذيين ، حين يضعون للتماثيل فى مكان حدقة العين خرزاً ملوناً يشبه العين ، وتوجه الحدقة بميلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئاً.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق .

وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا. بعد ذلك يوضح له : أنا أحب أن تأخذ بالعفو ، وفى هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن يتبعه ، وكلمة " العفو " ترد على ألسنتنا ، ونحن لا ندرى أن لها معنى أصيلاً فى اللغة . وقد يسألك سائل : من أين أتيت بهذا الشيء ؟ فتقول له : جاءنى عفواً ، أى بدون جهد ، وبدون مشقة ، وبدون سعى إليه ولا احتيال لاقتنائه .

ويقال أيضاً : إن هذا الشيء جاء لفلان عفو الخاطر ، أي لم يفكر فيه ، بل جاء ميسراً. هذا هو معنى العفو. والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو، أي أن يأخذ الأمر الميسر السهل، الذي لا تكلف فيه ولا اجتهاد ؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعقدها، أما حين تتكلف الأشياء، فذلك يرهق الناس، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (سورة ص)

وقوله : " وما أنا من المتكلفين " أي أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لدد بين الناس ؛ لأن الذي يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لدد أو تكلف . ولذلك يقال : إن المؤمن هو السمح إذا باع ، والسمح إذا اشترى ، والسمح إذا اقتضى ، والسمح إذا اقتُضِي منه : أي أنه في كل أموره سمح.

وللأمر بأخذ "العفو" معنى آخر وهو أن تعفو عمن ظلمك ؛ لأن ذلك ييسر الأمور.

والعفو أيضاً له معنى ثالث، هو الأمر الزائد، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تفرض الزكاة :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها، ونلحظ أن الأمر بالإنفاق من قبل أن تفرض الزكاة، والإنفاق بعد أن نزل الأمر بالزكاة يلتقيان في السهولة ؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه ، بل من الزائد عن حاجته .

وقول الله سبحانه وتعالى في الآية « خذ العفو » فيه أمر « خذ » ومقابله «أعْطِ» وقد تعطي إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس في مصلحته، لكن إذا قال الحق تبارك وتعالى : « خذ »، فهذا أمر يعود نفعه عليك، فإن كان العفو عمن ظلمك في ظاهر الأمر ينقصك شيئاً، فاعلم أنك أخذت العفو لنفسك.

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هينا ليناً مع إخوانه من المؤمنين. فإن عز عليه أخوه المؤمن فَلْيَهُنْ له، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عليك، فلا تتعال عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركة بينكما، بل تواضع أنت، ليزيدك الله رفعة وعزة.

وكأن الله سبحانه وتعالى يؤكد لك: أنك حين تعطي العفو تأخذ الخير من خلاله. ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فيتجه قلبك وحنانك إلى المظلوم. ونحن عيال ربنا، فإن ظلم واحدٌ آخرَ، فالظالم بظلمه يجعل الله في جانب المظلوم، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان سببا في رعاية الله لنا فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصري عندما قيل له: إن فلاناً اغتابك بالأمس. ونادى سيدنا حسن البصري الخادم وقال له: جاءنا طبق من باكورة الرطب. اذهب به إلى فلان - وحدد للخادم اسم من اغتابه - وتعجب الخادم: كيف تبعث بالرطب إليه وهو قد اغتابك؟ فقال: أفلا أحسن إلى من جعل الله بجانبي، قل له: «يقول لك سيدي بلغه أنك قد اغتبته فأهديت إليه حسناتك، وهو أهداك رطبه».

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف:

والعرف هو السلوك الذي تعرف العقول صوابه، وتطمئن إليه النفوس، ويوافق شرع الله، ونسميه العرف؛ لأن الكل يتعارف عليه، ولا أحد يستحيي منه، لذلك نسمع في شتى المجتمعات عن بعض ألوان السلوك: هذا ما جرى به العرف. وما يجري به العرف عند المجتمعات المؤمنة يعتبر مصدراً من مصادر الأحكام الشرعية.

وخير مثال على ذلك: أننا نجد الشاب لا يخجل من أن يطرق باب أسرة ليطلب يد ابنتها، لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه، بينما نجد المجتمع المسلم يستحيي

أن يوجد بين أفراده إنسان يزني، والغاية من الزنا الاستمتاع، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع، لكن هناك فارق كبير بين متعة يحرمها الله عز وجل، ومتعة يُحلّها الله تعالى.

وفي نهاية الآية يقول الله تعالى :

﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين ؟. يخطىء من يظن أن الجاهل هو الذي لا يعلم، لأن من لا يعلم هو الأمي، أما الجاهل فهو من يعلم قضية تخالف الواقع. ونلحظ أن المشكلات لا تأتي من الأميين الذين لا يعلمون، فالأمي من هؤلاء يصدق أي قضية تحدثه عنها وتكون مقبولة بالفطرة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتاج إلى تغيير علمه بتلك القضية، والخطوة الثانية أن تقنعه بالقضية الصحيحة.

والحق هنا يوضح : أعرضْ عن الجاهل الذي يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتعصب لها، وأنت حين تعرض عن الجاهل، يجب ألا تماريه، أي لا تجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدي إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أقول لكل من يواجه قضية التدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً، وقرأ في كتب الانحراف عن الدين المئات، أقول له : كما قرأت فيما يناهض الدين مئات الكتب فمن الحكمة يجب عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فتقرأ في مجال التدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت في غيرها. وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصحح لك عقيدتك، فعليك أن تخُرِج كل الاقتناعات المسبقة من قلبك ووجدانك. وتدرس الأمرين بعيداً عن قلبك، ثم أَدخل إلى قلبك الأمر الذي ترتاح إليه، لكن لا تحتفظ في قلبك بقضية وتناهض منطوقها بظاهر لسانك. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

فأنت لك قلب واحد، إما أن يمتلىء بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك. والقلب حيز واحد فلا تشغله أنت بباطل، حين تبحث قضية الحق، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً، واجعل الباطل والحق خارجه، وابحث بعقلك، والذى يسرُّ إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله.

وفى بيان معنى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها روى لنا أبىّ قال: لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما هذا يا جبريل ؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك ».(١)

وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية؛ لأنك كمسلم تساعد المصاب فى بدنه، فما بالك بالمصاب فى قيمه، ألا يحتاج إلى معونتك ؟.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

و « نزغ » تساوى كلمة « نخس » أى أمسك بشىء ووضع طرفه فى جسد من بجانبه أو من أمامه. ويتضح من معنى « نخس » أن هناك مسافة بين الناخس والمنخوس ووسيلة أو أداة للنخس.

وعملية النخس لا يدرك بها الناخس أو المنخوس حرارة بعضهما البعض، أما كلمة « مس » فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بحرارة الآخر منهما بسرعة، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر، أما اللمس ففيه إدراك لنعومة وحرارة اللامس والملموس. ومعارك الحرب كلها تدور فى هذا النطاق، فحين يكون العدو بعيداً يحتاج خصمه إلى أن يبتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام، ويحاول هو أن يصيب

(١) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

خصمه بالنبال أو السهام. وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمى القنابل على قوات الخصم. وتقاس قوة الدول بقدرتها على ضرب القوات المعادية دون قدرة تلك القوات على الرد، لأنها تصيبه من بعد فى عصر الصواريخ بعيدة المدى. ونجد الإشارة فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواهُ عنه عقبة ابن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوه الرمى.[1]

لأن الرمى يُمكّن قذيفتك من عدوك، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك بما يرميه.

وقديماً كانت الجيوش تزحف، فيُلقى الخصوم عليها النبال والسهام، وإذا ما اقتربت الجيوش أكثر من خصومها فكل فريق يوجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد الفريق الآخر. وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف. إذن كلها من النخس، والمس، واللمس.

وحينما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً: يارب كيف بالغضب؟ أى كيف يكون علاج الغضب؟ نزل قول الحق:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يستفهم قائل فيقول: أينزغ الشيطان الرسول؟. وأقول: إنّ الحق تبارك وتعالى لم يقل: « إذا نزغك الشيطان »، ولكنه قال « وإما ينزغنك » أى إن حدث

(١) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه وأبو داود.

ذلك، وهو قول يفيد الشك - ثم لماذا يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة مجابهة الشيطان؟. ونعلم عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك؟ قال: وإياى إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير).[1]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾.

والاستعاذة تعني طلب العون والملجأ والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشر. ومعلوم أن الشيطان له من خفة الحركة، وقدرة التغلغل، ووسائل التسلل الكثير؛ لذلك فينبغي ألا تستعيذ بمثله أو بمن هو دونه، ولكنك تستعيذ بخالق الإنس والجن وجميع المخلوقات، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان. وسبحانه سميع عليم، والسمع له متعلق، والعلم له متعلق، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك، وخلق ذلك الشيطان؛ عندئذ لابد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوى القادر وهو ليست له قوة على خالقه، وسبحانه سميع لقولك: « أعوذ بالله »، عليم بما في نفسك من معنى هذه الكلمة.

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: ﴿ وإمّا ينزغنك ﴾

أي أن الشيطان بعيد، وهو يحاول مجرد النزغ، فماذا عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا؟. هنا يقول الحق تبارك وتعالى :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الجزء الأول، وجامع الأحاديث للسيوطي جـ ٥ صـ ٦٠٨

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مسّهم » ولم يقل : « لمسَهم ». لأنهم من الذين اتقوا، أى وضعوا بينهم وبين صفات جلال الله وقاية تجعلهم يقفون عند حدوده ولذلك يقول : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾.

والطائف هو الخيال الذى يطوف بالإنسان ليلاً، وبما أن الشيطان لا يرى، لذلك نصوره على أنه خيال، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان وخالقهم، وتذكروا منهج الله الذى يصادم شهواتهم، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم، وأن محارم الله واضحة وبينة، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فى الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير : (الحلال بيّن والحرامُ بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من النّاس، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب).(1)

وإذا ما تذكر المؤمنون العقوبة المترتبة على أى فعل شائن يزينه الشيطان لهم، هنا تزول عنهم أى غشاوة ويبصرون الطريق القويم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

ونحن حين نتتبّع كلمة « يمدونهم » فى القرآن، نجدها مرة « يمدونهم »، ومرة يمددكم كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة نوح)

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان جـ ١ صـ ١٨٥

ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين في حالهم ، بل تظل في محاولة الغواية ، وتحاول الشياطين غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين ؛ لأن العاصي إنما يعاون الشيطان باتباعه شهوات نفسه ، ولا يقصر العاصي أو الشيطان في ذلك ، بل يحاول العاصي أو الشيطان غواية المؤمنين و«أقصر» من مادة «قصر» ، أي أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إلحاح الشياطين لغواية المؤمنين .

فالشيطان - كما جاء في القرآن - يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين المعاصي .

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

والشيطان يعلم أن من لا يتقي الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية ؛ لأنه يرغب ويميل للمعاصي والعياذ بالله ؛ لذلك لا يبذل الشيطان لغوايته جهدا كبيرا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة « آيات » ، والآيات - كما أوضحنا - إما آيات كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام .

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : « آية » لا « آيات » ، والكون أمامهم مليء بآياته ، والمنهج المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام واضح ، ولا ينقص إلا أن

تأتى الآية المعجزة - من وجهة نظرهم - وينبه الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾

{ سورة الإسراء }

إذن فالآياتُ المعجزاتُ التى طلبوها ، لا يأتى بها الرسول من عنده ، والآيات التى ينزل بها المنهج أيضاً ليست من عنده ، بل هى تنزيل من لدن عزيز حكيم . وكانوا يتهمونه صلى الله عليه وسلم أنه يفترى القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية متناسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من مثل آياتها ؛ وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ﴾

يأمره هنا ربه أن يقول : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى ﴾

أى أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكلف بأن يبلغهم بما يأتى به الوحى يحمله الروح الأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمنهج الإلهى ، وهذا المنهج فى حد ذاته معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف :

﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ففى القرآن الكريم بصائرُ وهدىً ورحمةٌ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ القلب بنور اليقين الإيمانى فإن صاحبه يعيش فى شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكنْ هناك أمور معنوية لا تكتشفها إلا البصيرة ، والبصيرة تضئ القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية ، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكونُ مشحوناً باليقين الإيمانى .

والقرآن الكريم بصائر ؛ لأنه يعطى ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليجد الأمور المعنوية وقد صارت مُبْصَرَةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عينُ اليقين .

وهذا القرآن المجيد بصائرُ وهدى ، أى يدل الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله المستقيم ، وهو رحمةٌ أيضاً لمن لا يملك إشراقات القلب التى تهدى للإيمان ولا يملك قوة أخذ الدليل الذى يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ، وبصائر لمن تيقن أصول الإيمان مشهدياً .

وكما قلنا من قبل : إنَّ الله قد أخبر المؤمنين بأمور غيبية ، ومن هذه الأمور الغيبية أن له جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من البلاغ عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك فيما بينهم ، فإذا جاء يوم القيامة ورأوا الصراط مضروباً على متن جهنم مطابقاً لما صدقوه وصار عين يقين ، وإذا ما دخل بعضهم النار - والعياذ بالله - تكفيراً للذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين . وضربت المثل من قبل - ولله المثل الأعلى - كان الجغرافيون يحدثوننا ونحن طلاب عن خريطة الولايات المتحدة ، ويقولون : إن عاصمتها « واشنطن » ، والميناء الكبير فيها اسمه « نيويورك » ، وفى « نيويورك » توجد ناطحات السحاب وهى مبان

ضخمة يزيد ارتفاع المبنى الواحد من هذه المبانى على مائة طابق أى أكثر من مائتى متر، وصدقنا نحن أستاذ الجغرافيا ، وعندما أتيحت للبعض منا فرصة السفر ورأوا واشنطن ونيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد أن كانت علم يقين . وعند هبوط الطائرة فى مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

أورد سبحانه هنا « علم اليقين » « وعين اليقين » ، وأما « حق اليقين » فقد جاء فى قوله :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمنون المصدقون بأخبار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله فى الخبر عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك فإننا نجد الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا »

وفي الحوار الآتي الذي دار بين حضرة النبي ﷺ ، والصحابي الجليل الحارث بن مالك ما يكشف لنا جوهر هذا اللون من الإيمان :

« فقد روى الحارث بن مالك الأنصاري : أنه مرّ برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضارغون [1] فيها . فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً » [2] .

هذا الصحابي الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبي ﷺ قد صار حق يقين ، وامتلك البصيرة التي رأى بها كلّ ذلك .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾ [سورة الأعراف]

وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية ، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمةً للجميع .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾

وما دام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربنا

(١) يتضاغون : أي يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل .
(٢) أخرجه الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري .

وهدى ورحمة ، ألا يستحق أن تحتفى به أيها المؤمن ؟ . . ألا تجذبك هذه الحيثيات الثلاث لأن تعطى له أذنك وألا تنصرف عنه ؟ .

إذن لابد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى الفوائد الثلاث : البصائر ، والهدى ، والرحمة ، وهو حقيق وجدير أن يُحْرَص على سماعه إن قُرئ .

ولنلحظ أن الله تعالى قال : ﴿ فاستمعوا له ﴾ ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسَّسُوا ولا تحسَّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا »(١)

وفى هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التى منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نية التعبد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأنصت بنية العبادة ، لأن الله هو الذى يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق (٢) : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول :

« عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تبارك و تعالى : « حسبنا الله ونعم

(١) أخرجه الإمام مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) جـ١٦ صـ ١١٩ .
(٢) الإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر ، بن سيدى على زين العابدين ابن سيدنا الحسين .

الوكيل »، فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فإنى سمعت الله عقبها يقول :

« فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين » .

وعجبت لمن مُكر به ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » . فإنى سمعت الله عقبها يقول :- « فوقاه الله سيئات ما مكروا» .

وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يَفْزَع إلى قوله تبارك وتعالى : « ما شاء اللهُ لا قوة إلا بالله » . فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك » .

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسْن الأدب الذى يجب أن نستقبل به العبر التى تعود بالفائدة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن ؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً فى أى حال من الأحوال ، أو حين يُقرأ فى الصلاة ، أو حين يُقرأ فى خطبة الجمعة ؟

وقد اختلفوا فى ذلك ، فبعضهم قال : إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ فى الصلاة ، والسبب فى ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرأها فإذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالوا : « الحمد لله رب العالمين » فينبههم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة .

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون في الصلاة ، وفي خطبة الجمعة أو العيدين ، لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، ولكن اشتمالها على الآيات أقل مما يقوله الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام :

(إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت)(١)

إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن في أي وضع من الأوضاع حين يُقرأ ؛ ففي هذا احترامٌ ومهابةٌ لكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدي « أبي عبد الله الحسين » ، فيقول :

إذا قُرئ القرآن سواءً إن كنت في صلاة أو كنت في خطبة ، أو كنت حراً فأنصت ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياءَ ، إذا قُرئ ننصت له ، وإذا مسَّ المصحف لابد أن يكون على « وضوء » حتى لا يجترئ الناس ويمسّوا المصحف كأي كتاب من الكتب ، وهذا يربي المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ ؛ فتنشأ المهابة في نفس الولد .

وأيضاً في « الكتابة » شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة التقعيد الإملائي ؛ حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل كتاب وكلامه ليس ككل كلام .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالآذان ، بل المقصود

(١) رواه الإمام مالك في مسنده ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، والبيهقي ، وأبو داود والنسائي - عن أبي هريرة .

بالاستماع هنا هو أن تستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : « الله يسمع دعاك » ؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع للقرآن يقتضي الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا؟ لتنال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم .

﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

ونعلم أن « لعل » « وعسى » حين تقال يقصد بها الرجاء ، و « ليت » تعني التمني وهو مستحيل ولا يُتَوَقَّع ، ونحن نتمنى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ، مثلما قال الشاعر العجوز :

ألا ليت الشباب يعـــود يوما فأخبره بما فعـــل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة . ومثل قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كَلِمِ

ولن تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع « عسى » أو « لعل » يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لابد له من واقع .

ويقول الحق بعد ذلك :

والذكر مرور الشيء ، إن كان بالبال ، فهو ذكر في النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسْمِع الغير ويُسْمِعك أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهرا فهو قسمان : جهر

مقبول، وجهر غير مقبول، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذِّكْرُ إلى إزعاج والعياذ بالله، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الإسراء)

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية، تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله في هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج ، لأني أقول لكل واحد منهم : إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر، إنما طلب دون الجهر، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه؛ فيصيحون ليلا ويمنعونهم من رحمة الله ليلا التي قال عنها :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر، اللهم إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله . وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً .

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ والحق تبارك وتعالى يقول مرة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ومرة يقول : ﴿ واذكر ربك ﴾

وقوله : « اذكر الله » يستشعر سماعها التكاليف؛ لأن الله هو المعبود ، والمعبود

هو المطاع في الأوامر والنواهي .

أما قوله : « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال ؛ خلقك ورباك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذكر ربك ؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً ، فأنت قد عشقته لأنه يمدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم .

وأضرب لك هذا المثل - ولله المثل الأعلى وهو منزه عن التشبيه - وأنت لك أولاد ، وتعطي لهم مصروفاً ، وحين تعطي لهم المصروف كل شهر ، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطي لهم مصروفهم يوميا فأنت تلتفت لتجدهم حولك ، فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك ؟ وما دمت عبد الإحسان فاذكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً . أي بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبريائه ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك « خيفة » أي خائفاً متضرعاً ؛ لأنك كلما ذللت له يعزك ، ولذلك نجد العبودية مكروهة في البشر وهي استعباد ، والناس ينفرون ممن يستعبدهم ؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهي تعطي خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطي خير الله لك . ولذلك نجد الحق يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾

(سورة الإسراء)

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بحادث الإسراء ، وكان الحديث عنها بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والشاعر المؤمن يقول :

حسب نفسي عزاً بأني عبد يحتفي بي بلا مواعيد رب

هو في قدسه الأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحب

وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت، وإذا أسلمت زمامك للإيمان ؛ فالزمام في يدك. يكفي أن تنوي الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون في حضرته سبحانه سواء كنت في البيت أو في الشارع أو في أي مكان . وفي هذا منتهى العزة لك.

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف)

ولم يقل هنا رب العالمين : بل ربك أنت يا محمد، وهذه قمة العطاءات التي جاءت للناس ، فهذا العطاء الذي جاء بمحمد رسولاً ، نعمةٌ ومنةٌ من الله على المؤمنين برسالته ، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذي جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : «واذكر ربك في نفسك» أي أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصوراً على مايشاهد في الخارج والبعيد عنك فقط ؛ لأنك قد لا ترى شيئاً في الكون أو لا تسمع شيئاً في الكون؛ لأن الكون منفصل عنك، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك،

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

فقبل أن يجعل ربنا الدليل في الكون الذي حولك، جعل لك الدليل أيضا في نفسك؛ لأن نفسك لا تفارقك وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها، وبنوازعها، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعته فيك، وستجد الكثير من الآيات، وهي آيات أكبر منك، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا، وتخاف ألا تؤدي حقه لديك.

ونعود إلى قول الله تعالى : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾ والذكر حَدَثٌ ، والحدثُ يحتاج إلى زمان وإلى مكان، والغدو والآصال زمنان يستوعبان النهار؛ فالغدو هو أول النهار، والآصال هو من العصر للمغرب، مثلما نقول "شمس الأصيل". وهذه الآية الكونية تتكرر فى القرآن الكريم كثيرا، فالحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكما يقول عز وجل :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفتح)

و "الأصيل" هنا مشترك، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة، وأخرى يطلق عليه : الغدو، وسبحانه القائل :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إنك ساعة أن تقرأ " فى بيوت " تعرف أن هنا حدثا؛ لأن قوله : " فى بيوت "

شبه جملة" في معنى الظرف، وإذا استقرأت ما قبلها، لم تجد لها مُتَعَلِّقاً. والحظ إذن أن ما قبلها هو ﴿ نور على نور ﴾ ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله، فذلك نور، وتصلي له فذلك نور، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته، وكل هذا نور على نور، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة، وتعلم أن الصلاة هي الخلوة التي بين العبد وربه، وكان رسول الله إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وتصلي ركعتين لله إن حزبك أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً. ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾.

والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل.

ولماذا أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هي التي يطلب فيها الذكر. فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة: (الحمد لله) وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول: « ما شاء الله » وعندما ترى أي شيء يعجبك تقول: (سبحان الله).

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ ﴾

(سورة الجمعة)

وهذا التكليف فى صلاة الجمعة المفروضة كصلاة للجماعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضرورى أن نتواجد فيها كجمع؛ لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة.

ونعرف أن الصلاة إنما هى ذكر لربنا، فماذا بعدها؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

أى إياك أن يشغلك انتشارك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله، والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تكن من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التى بينها الله عز وجل؛ لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك، وأنت إن جعلت خالقك فى بالك دائما فإنك لا تغفل عن مطلوباته فى الغدو والآصال وفى كل وقت، سواء كنت فى الصلوات الخمس، أو كنت تضرب الأرض فى أى معنى من المعانى، وتأس أيها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية، ولا يأكلون ولا يتناسلون، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج، وكل المعاصى جميعها تأتى من هذه الناحية، مع ذلك يجب عليك أن تتأسى بهم؛ لأنهم هم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستكبرون عن عبادته، ويسبحونه؛ وله يسجدون، لذلك يقول الحق بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

وإذا كنا كلنا عند ربنا وفى حضرة ما منحه لنا من خَلْق وما أمدنا به من إيجاد من عُدم سواء، فلماذا خص هؤلاء بالعندية ؟.

إياك أن تفهم من العندية أنها عندية المكان؛ لأن المكان مُحَيِّز، وربنا عز وجل لا يتحيز فى مكان، والعندية هنا عندية الفضل، وعندية الرحمة، وعندية الملك، وعندية العناية. أو إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسبَّبات، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته، وليس لهم عمل آخر، ويعرفون بالملائكة العالين، لا الملائكة المدبرات أمراً أو الحفظة. ولذلك قلنا سابقاً : إن الحق سبحانه وتعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتنع إبليس ، قال له :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

و " العالين " هم الذين لم يشملهم أمر السجود، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً. وهم غير الملائكة المسخرين لخدمتنا؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المُهيَّمون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا : ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾

واختلف العلماء فى كيفية سجود الملائكة، أهو الخضوع؟ أهو الصلاة ؟ أهو السجود الذى نعرفه نحن ؟ والسجود عندنا هو منتهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقت الصلاة. لأنه نزول بأشرف شئ فى الإنسان وهو الوجه الذى يضعه المؤمن على الأرض خضوعاً لله عز وجل . ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أننا إذا مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى سجدة التلاوة، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ، وحصرها العلماء فيما تجدونه في المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التي نسجد عندها خطاً. وحين قام العلماء ببيان المواضع التي تطلب فيها هذه السجدات وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة "الأعراف" التي تتناولها بخواطرنا الآن، وانتهت بسجدة "العلق":

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وبينهما سجدات، وبعض العلماء عدّ في سورة الحج سجدتين وبعضهم أهمل السجدة الثانية في هذه السورة، فمن حسبها خمس عشرة سجدة، عدّ سجدة الحج الثانية المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال: إنها أربع عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية.

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً في أي وقت، وعند أي آية فاسجد لله سجدة الشكر، وهي سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند تجدد نعمة أو انقشاع غمّة، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة.

والسجود بطبيعة الحال تبدأه بالتكبير، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة، والمفترض أن تقول: "سبحان ربي الأعلى"، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما نقوله في السجود للتلاوة، وروي عن ابن عباس قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال: إنّي رأيتُ البارحَة - فيما يرى النائم كأنّي أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ فسجدت الشجرةُ لسجودي فسمعتها تقول: اللهم احطُطْ عني بها وزراً، واكتُب لي بها أجراً، واجعَلها لي عندكَ ذُخْراً. قال ابنُ عباس: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد، فسمعته يقول في

سجوده مثل الذى أخبره الرجلُ عن قول الشجرة »[1]

وبذلك تختم سورة الأعراف، والتسمية للسورة فى ذاتها متناسبة؛ لأن "الأعراف" هو المكان العالى البارز الذى يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد فى الارتفاع، وهى مأخوذة من "عرف الفرس"، وعرف الفرس أعلى شئ فيه، والأنفال أيضاً هى الزيادة؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال، وأيضاً يوجد التناسب فى المعنويات، وهذا التناسب نلحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى أواخر سورة الأعراف :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يأتى قوله سبحانه وتعالى فى أول سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

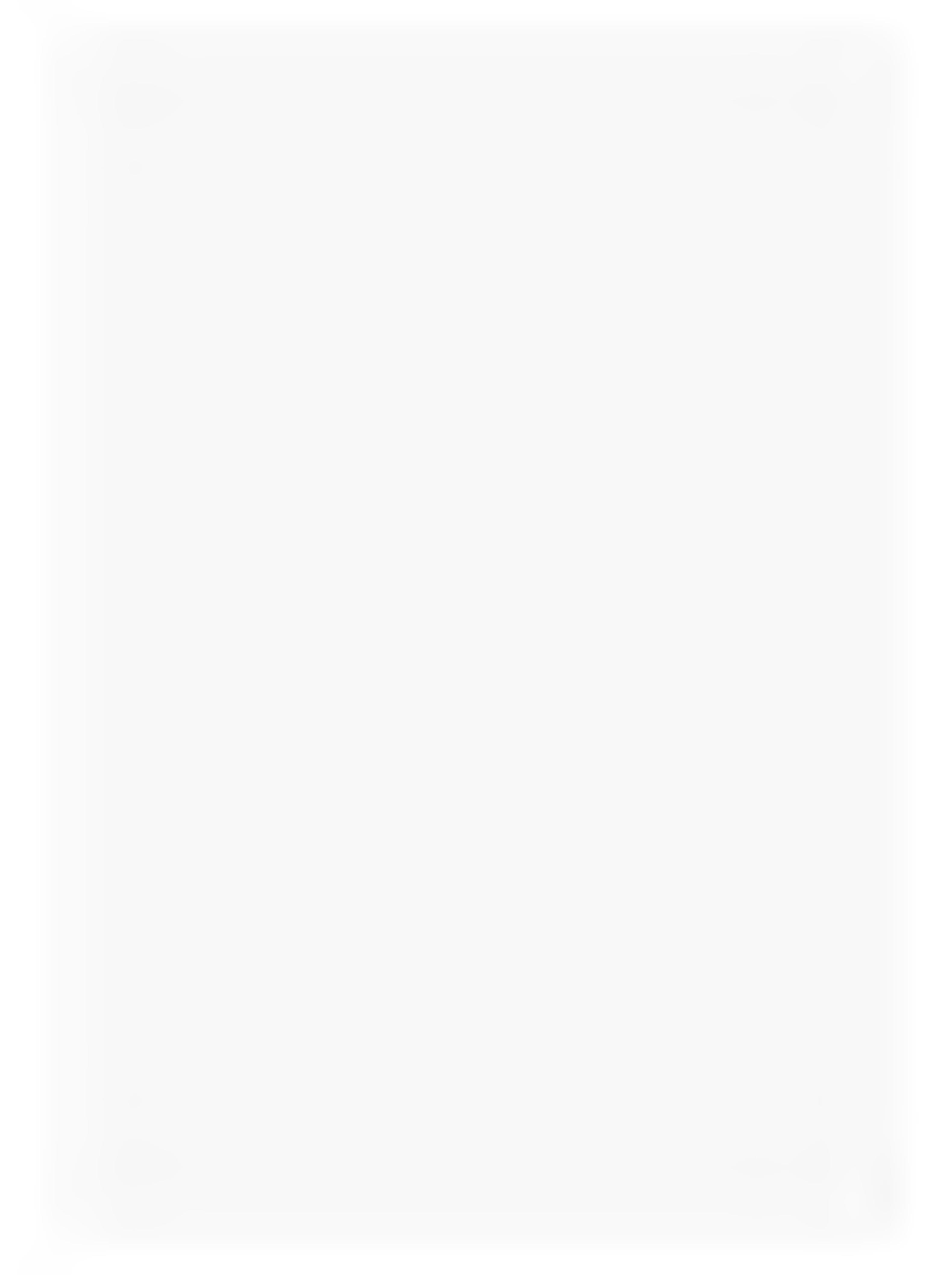
(من الآية ١ سورة الأنفال)

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التى ترتفع على كل شئ وهى الإيمان بالله، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية.

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذى وزاد فيه : وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام.


(٨)
سورة الأنفال
مدنية



بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ ﴾

السؤال يقتضي سائلاً : وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقتضي مسئولاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقتضي مسئولاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح.

والمسئول عنه قد يوجد بذاته، مثلما نسأل صديقنا : ماذا أكلت اليوم ؟ هذا السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب، والجواب عنه أيضا يحدد المنطقة.

وموضوع السؤال في قول الله تعالى :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

يدل عليه الجواب، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت الكبر، لكن كان موضوع السؤال الذي هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى : أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أم لا ؟

وسؤال آخر سألوه للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى، ويحدد الجواب

موضوع السؤال : يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى فى الأموال ومن مؤاكلتهم ، وغير ذلك من ألوان التعامل ، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع السؤال :

ومرة يأتى السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم : لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر ، ثم لماذا يختفى فى المحاق ؟ . وهذا سؤال فى الفلك . ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فى الحدود التى يستفيدون منها وهى القيمة النفعية العملية ، وجاءت الإجابة : ﴿ قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ .

لأننا ورغم وجودنا فى هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس مازال يكذب الحقيقة العلمية التى ثبتت بما لا يدع مجالاً لأى شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفى قليلاً قليلاً . وفى هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله   مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ

في الاكتمال تباعاً، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التي تدركها عقولهم تماماً، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التي توضح كل التفاصيل الفلكية.

وهناك سؤال يجيء في أمر محدد، مثل قول الحق:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال في الشهر الحرام، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات.

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ والأنفالُ جمعُ نَفَل (بفتح الحرف الأول والثاني)، مثل كلمة سَبَب وأسباب، والمراد بالنَّفَل هنا الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وهي من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة، والنَّفْل بالسكون الزيادة، ومنه صلاة النافلة؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة، وفي هذا المعنى يقول ربنا عز وجل في آية ثانية: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾.

ونافلة تعني أمراً زائداً غير مفروض، ولذلك نقول: إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصي، بل يعبد العبد ربه بأي لون من ألوان العبادة التي شرعها الله، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

النفل إذن هو أمر تعبدى زائد عن الأصل.

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق، فلم يكن الابتلاء - مثلا - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده، لا بل هو الذى يقوم بذبح ولده إسماعيل. وهكذا كان الابتلاء كبيراً، خصوصاً أنه لم يأت إلا فى آخر العمر. وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس. ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة، أى اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة.

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولنر رحموت النبوة فى سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحى؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لهاجس عقوق لأبيه، وقد يقول الابن : أى رجل هذا الذى يذبح ابنه ؟. وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك فى الثواب، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له :

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذى جاءه كرؤيا في المنام.
فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فبعد أن رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله، إياك أن تجزع، إياك أن تسخط، إياك أن تغضب، إياك أن تتمرد؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفع حتى يُرْضى به. وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً . وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل ذلك نافلة من الله ، أى عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة)[1] .

إذن تشريع الله للغنائم فى الإسلام أمر زائد عن الأصل ؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فىء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه . وجامع الأحاديث للسيوطى حـ ١ ص ٦٣٥ .

الغنيمة : هى ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة، فللرجل المقاتل سهم واحد، وللفارس سهمان، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل، وسبق بيان النفَل والنفْل بفتح الوسط وسكونه، والفيء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - « والقبَض » بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

لكن إذا جاء ولى الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(من قتل كافراً فله سلبه)[1].

فذلك أمر زائد فى حصته فى الغنيمة.

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم، أو الربع أو الخمس، فهذا يعنى أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التى حددها لهم القائد كأمر زائد، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع، والعتاد والأموال من الأسرى، فهذه تسمى غنائم، أما حين تُجْمع الغنائم عند ولى الأمر فيصير اسمها القبَض وقد سبق بيانه.

وفى يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابى الجليل سعد بن مالك رضى الله عنه قائلاً :

قلت يا رسول الله : قد شفانى الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا السيف لا لك، ولا لى، فضعه »، قال : فوضعته، ثم رجعت، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى، قال : فإذا رسول الله يدعونى من ورائى. قال الصحابى : قد أنزل الله فى شيئاً ؟. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتنى السيف، وليس هو لى، وأنه قد وُهب لى، فهو لك، قال : وأنزل الله هذه الآية :

---

(١) رواه البيهقى وأبو داود والترمذى عن ابن قتادة.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَـالِۖ قُلِ الْأَنفَـالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم فى أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل. ونعلم جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال، بل كان الخروج للعير التى تحمل بضائع قريش القادمة من الشام، وليس معها إلا أربعون رجلاً يحرسونها، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال، بل خرجوا للعير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سُلبوه فى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان سلك طريق الساحل. أى سار فى طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير، وصار الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب، وإما أن يواجهوا النفير، وهو التعداد الكثير، وكانوا ألفاً ومعهم العُدّة والعتاد، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان على الحرب فقال لهم : «من قتل كافراً فله سلبه»، أى أنه خصّهم بأمر زائد عن سهمهم فى الغنيمة. فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا، لكن نحن كنا عند الرايات، يفيئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلابد أن نشارك، وحدث لغط وخلاف، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله ﴾.

فبين سبحانه أن الحكم فى قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية. فلا تنازعوا ولا تختلفوا ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾.

إن كان قد حصل بين الطرفين، الشبان والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم. وساعة تسمع ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قد تسأل : ما هو البين ؟ الجواب «البين» هو ما بين شيئين، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم

البعض، فما بين كل منهم هو ما يُسمى « البين »، وقد يكون الذى يفصلنا عن بعض « بين مودة » أو بين جفوة، إذن فالبين له صورة وله هيئة، فإن كانت الصورة التى بينكم وبين بعضكم فيها شيء من الجفوة فأصلحوا السبب الذى من أجله وُجِدَ «البين» حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع.

ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهى أيضاً، لأن الأمر طلب فعل، والنهى طلب عدم فعل، وكلاهما طلب. وحينما يقول الحق: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾.

نفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت فى القرآن صورا ثلاثا، الصورة الأولى: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة.

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

أى أنه سبحانه يكرر المطاع، ويكرر الأمر بالطاعة.

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾. لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآنى، فنحن نطيع الله والرسول فى الأمر الصادر من الله. وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية، والإجمال لابد له من تفصيل، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

إذن قال الله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً، تطبيقاً فهى خمس صلوات، ركعتان للصبح، وأربع ركعات للظهر، وأربع ركعات للعصر، وثلاث ركعات للمغرب، وأربع ركعات للعشاء، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التى نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن، وحدد الصلوات التى لا نجهر فيها بالتلاوة.

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أطيعوا الله ﴾، أى أطيعوه فى مجمل الحكم، وحين يقول: ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أى أطيعوه فى تفصيل الحكم، وإذا ما قال: ﴿ أطيعوا الله والرسول ﴾ فهذا يعنى أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ، والمراد واحد، وإذا لم يكن لله أمر، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول: ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

أى أن كل أمر من الرسول إنما يأتى من واقع التفويض الذى أكرمه الله به، وهنا يقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١ ﴾

(سورة الأنفال)

أى إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذى آمنتم به واتبعوا الأمر الصادر من الله

ورسوله لكم، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول في كل أمر، ومن هذه الأمور التي تتطلب الطاعة هو ما أنتم بصدده الآن، لأنه أمر في بؤرة الشعور.

ويأتي الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

وفي هاتين الآيتين الكريمتين خمس صفات لها ترتيب عقائدي وحركي وجوارحي، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة «المؤمن»، هذه الصفات هي الأولى: أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات أنه: إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ثالثة الصفات: أنهم على ربهم يتوكلون، ورابعة الصفات: أنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات: أنهم ينفقون مما رزقهم الله.

والصفة الأولى للمؤمنين هي:

﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأنفال)

والوجل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب في القلب، وحينما أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، نجد شاعراً منهم يقول:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطاة غرها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فالشاعر يصور حالة قلبه حين سمع بنبأ سفر حبيبته، كأنه صار مثل حمامة تحاول أن تخلص نفسها من شبكة أو مصيدة وقعت فيها، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج، وهى ترجف فى مثل هذا الموقف، هكذا حال القلب لحظة فراق المحبوبة عند الشاعر.

وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى: ؟

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه. وإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قدر الاستطاعة، فلابد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال. والاطمئنان إنما يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال. ولذلك تجمعهما آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

فالجلود تقشعر خوفاً ووجلاً ومهابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنان سبحانه وتعالى، لأن ربنا قال:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وهل يزيد الإيمان أو ينقص ؟

اختلف العلماء في هذا الأمر، ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان، وحينما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . . . إلخ نجد الجواب في توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل في الحديث الآتي والذي يرويه الصحابي الجليل سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها فذلك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاءُ البَهْم في البنيان فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا صلى الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ردوا عليّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم [١].

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفي رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره.

وهذه كلها أمور غيبية ، ولا يقال في الأمر المحسّ إيمان ، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أني أتحرك على الأرض ؛ لأن هذا أمر حسيّ. والإيمان لا يكون إلا بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بإله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب ، وبملائكته وهي غيب ، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا بذلك الوجود. وكذلك أن تؤمن بالكتب المنزلة على الرسل . وبالرسل ، وصحيح أن الكتاب أمر حسيّ والرسول كذلك له وجود حسيّ، لكن لم نشاهد الوحي وهو ينزل الكتاب على الرسول . إذن فهو أمر غيبي ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبي أيضاً ، والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته ، وكلها إذن أمور غيبية .

هذا الإيمان في القمة ، لكن هناك إيمان آخر يجيء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة ، بل كانت تأتي على مراحل ، فتشريع ينزل أولاً بأن نؤمن أنه من الله . إذن فالذي يزيد وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات ، وأنها صادرة من الله عز وجل ، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً ، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا ، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به ، ثم يجيء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشيء ، وأن تفعل الشيء . فالإيمان شيء ، وفعله شيء ؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهري للمنهج ، وتطبيق كل ما يجيء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد ؛ لأننا آمنا بأن ما يجيء من المنهج هو من الله . إذن فالذي يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات ، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق :

---

(١) أخرجه الامام مسلم في صحيحه الجزء الأول ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ كتاب الإيمان .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يحج ؟ لا ، إن كفره في هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا إيمانياً أن نقر بالحج كركن من أركان الإسلام في حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك في حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها بقوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

ومُتعلّق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور ؛ لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لزيد المال » أي أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذي لا تقوى عليه تقول بصدده : « وكلت فلاناً ينجزه لي على خير وجه » وحتى تختار الذي توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكلت فلاناً .

إذن معنى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي أنهم يكلون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذي خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مسبَّبات الأسباب مقدمة ، والمسبَّبات هي النتيجة . وبعد ذلك ترك

أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك في أسبابه ؛ إياك أن تيأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هي قضية الأسباب ، أما أنا فلي رب خلق الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفي حياتنا اليومية نلحظ أن الناس يخلطون بين عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك تواكلٌ وليس توكلاً ؛ لأن التوكل ليس عمل جوارح ، التوكل عمل قلوب .

والمؤمن الذي يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التي يجب أن يأخذها ، وسبحانه وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها في الأرض ، ثم ترويها ، وتتعهدها ، وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن فوق كل الأسباب هناك المسبِّبُ . فمن الجائز أن يخضر الزرعُ وينمو ، ثم تأتي له آفةٌ من مطر أو حر وتضيعه .

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . نقول له : أنت تواكلت ، أي نقلت عمل القلب إلى الجوارح . ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً في توكله على الله لأخذ بالأسباب . وعادة فإنني دائماً أقول لمن يدّعي التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتي إلى فمك ، لماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب في التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويبلعها بعد المضغ ، ولو كان صادقاً في أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها في الأمور التي تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾

هذا القول يعني أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن

بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجئ إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : ﴿ وعلى ربهم ﴾ ، والرب هو الخالق من عَدَم ، والممد من عُدْم ، ومادام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن عليك أن تفطن أنه خلق لك جوارح ، فاستعمل الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتي الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهي تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الأنفال)

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير في الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هي عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لابد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة ، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التي تُخْرَج في يوم الحصاد .

﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ودائماً ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترنتان ببعضهما ، ولا نجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً؛ لأن الصلاة تعني ترك أمورك الحياتية التي تسعى فيها لدنيا الأسباب ، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أي أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذي كنت تقضيه في حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعني أنك تقتطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة

وزيادة ، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف في المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية ، لكنك بالصلاة تضحى ببعض الوقت الذى تقضيه فى العمل الذى يأتى لك بأصل المال ، إذن ففى الصلاة زكاة وأكثر . وأنت فى الزكاة تتنازل عن بعض المال ، لكنك فى الصلاة تتنازل عن الوقت الذى هو محل العمل ، وهو الذى تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

(ومما رزقناهم ينفقون) ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شيء ينتفع به الإنسان ، وحتى اللص الذى يسرق وينتفع بسرقته يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب فى الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل فى الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذى يأتى من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق الحلال ؛ سواء لمتطلبات حياته أو رعاية المجتمع الإيمانى .

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾

و « أولئك » تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات فى إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، تجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه قوى . ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وحين ينزل المطر من السماء، يأخذ من مائه كل واد من الوديان على قدر اتساعه وعمقه، ويمتلىء، ترى الرغاوى وهى الزبد تطفو فوقَ السَّيْل، وهى عبارة عن هواء سببه وجود الشوائب من قش وغيره، وهذا مثل نراه فى حياتنا، وتجد الأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه، لكنها لا تنتفع بالزبد أو الرغاوى. ثم ينتقل الحق فى ذات الآية من ضرب المثل بالماء، إلى ضرب المثل بالنار فيقول:

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهى تتحول إلى السيولة بالانصهار فى النار، تجد شرراً يتطاير منها، ويطفو فوق سطح الحديد المصهور، وهو ما يسمى بـ « خبث الحديد » وتتم إزالة هذا الخبث ليبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها، وهذه الحالة تحدث فى الذهب حين يصهره الصائغ ليزيل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون حلياً.

وزبد الماء وزبد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجوانب ويبقى الماء صافياً، وكذلك الحديد والذهب، ولهذا يقول الحق:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن الحق يبقى صافياً ثابتاً ، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة .

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى فى آية أخرى فيقول :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين ، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها العلو الثابت .

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق الإيمان فيقول عز وجل : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان ، أى أن هناك منازل ودرجات للإيمان متفاوتة ، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب .

ونحن نرى البشر حينما يخصهم واحد بوده يفيضون عليه من خيراتهم ، فنجد غير العالم يأخذ ممن يودهم من العلماء بعض العلم ، والضعيف الذى يعطى وده لقوى ، يعينه القوى ببعض من قوته ، والفقير الذى يعطى وده لغنى ، يعطيه الغنى بعضاً من المال ، والأرعن يأخذ ممن يودهم من العقلاء قدراً من التعقل للأمور .

إذن أهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات ، فالذى وجدت فيه هذه الصفات ، ومؤمن حقاً تكون له درجات عند ربه تناسب حظه من الحق وحظه من الصفاء ، ولتعرف أن السير فى درب الحق يعطى الكثير . والمثال الذى نقدمه على ذلك أننا نجد من يصلى الأوقات الخمسة فى مواعيدها ، وهذا هو المطلوب العام ، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل ، أو واظب على الصلاة فى الجماعة ويلزم نفسه بمنهج الله ، سوف يأخذ حظاً من الصفاء لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك ، وسيجد فى قلبه إشراقات وتجليات ، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر .

وقد يكون الإنسان من هؤلاء - على سبيل المثال - خارجاً من البيت وسألته زوجته: ماذا تطبخ اليوم ؟ ويجيبها: لنقض هذا اليوم بما تبقى عندنا من الأمس. وعندما يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف، وأحضر له هدية من البط، والقشدة والفطائر. فتسأله زوجته: أكنت تعلم بمجيء أخيك ؟ فيقول: لم أكن أعلم، وهذا مجرد مثال، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً، ومن يستمر في العبادة ويزيد عليها ويؤدي كل ذلك بحقه، سيزيد عطاء الله له؛ لأن الله لا يمل عطاء أهل الصفاء أبداً. ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يزيد.

ودائما أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى وهو منزه سبحانه وتعالى عن التشبيه لنفترض أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية، وسأل إنساناً آخر، فقال له: إن ذهبت من الطريق الفلاني ستجد استراحة طيبة، عكس الطريق الفلاني.

ويتبع المسافر نصائح من أرشده، فيجده صادقاً، فيرتاح من بعد ذلك لرأيه، وكذلك أهل الصفاء، هم أهل العطاء، وعلى قدر صفائهم يكون هذا العطاء. والذي يشجع الناس الذين يبالغون في التعبد هو هذا الإشراق، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجذوب وإن من يطلق على المتعبد الزاهد هذا الوصف يرى المنزلة العالية وهي تشد هذا المتعبد إليها، وهو من جهة أخرى ينظر هذا الزاهد إلى من يتعثرون في طلب الدنيا، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من « الغلابة » ويدعو لهم.

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء: لا شأن لك بأي إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض لهم واتركهم في حالهم، مادام الواحد منهم لا يسألك شيئا. ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾.

والدرجات عند البشر هي ارتقاءات يسعى إليها، فما بالنا بالدرجات التي عند الرب ؟ ومادام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عنده فقد ضمنوا المغفرة؛ لأن الواحد منهم سيطهر بالمغفرة، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المغفرة

لأنه سبحانه خلق الخلق ويعرف أنهم أهل أغيار، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات، وسبحانه علمنا أن معالم الدين تأخذ حظها من المسرفين على أنفسهم، لأن من لم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة فليس وراءه ما يلهب ظهره. أما من عملوا السيئات فإن هذه السيئات تقض مضاجعهم. والمسرف على نفسه لحظة الإسراف يظن أنه أخذ من الله شيئاً واحداً من خلف منهجه، فيوضح له ربنا: إياك أن تظن أن هناك من يخدع الله فأنت ستعمل كثيراً وبشوق لخدمة منهج الله، ولجد المسرف على نفسه لحظة الإفاقة والتوبة، وهو يندفع إلى فعل الخيرات. مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿ إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر ﴾(١).

لأن فجر الفاجر يتجسد أمامه ويريه سوء المصير، فيندفع إلى فعل الخيرات ليمحو السيئات، أما من لم يخطىء فتجده هادىء القلب، مطمئن النفس، لا يلهب ظهره شيء.

﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأنفال)

وهل هذا الرزق ناشىء من كريم؟ الجواب لا؛ لأن الكرم تعدى من الكريم الأصيل، إلى أن صار الرزق نفسه كريماً، وكأن هذا الرزق يتعشق صاحبه؛ لأن ربنا ساعة يعطي إنساناً نعمة، ثم يستعملها العبد في الطاعة، تحس النعمة أنها مسرورة بالذهاب إلى هذا الإنسان لأنه استعملها في الطاعة وفيما يرضي الله عز وجل.

وذلك أن تعرف أن الرزق أعلم بمكانك منك بمكانه. فلا أحد يعرف عنوان الرزق الذي قدره الله له، لكن الرزق يعرف عنوان صاحبه، ويبحث عنه في كل مكان إلى

(١) جامع الأحاديث للسيوطي جـ ٢ صـ ٣٢٥ رواه الطبراني.

أن يجده. هكذا نفهم أن الكرم يتعدى إلى الرزق نفسه فيصبح الرزق كريماً.

وجاء كل هذا الحديث بمناسبة الخلاف على الغنائم والأنفال، وفصل ربنا بالحكم وبين وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله، وهذه الحادثة في الأنفال حدثت في الخروج إلى الحرب، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب، كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضي به. لكن حالهم اختلف في الغنائم فطالب بعضهم بأكثر مما يستحق؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ ﴾

و « كما » تدل على تشبيه حالة بحالة، فهم قد رضوا بقسمة الله في الغنائم بعد أن رفضوها، وكذلك قبلوا من قبلُ أن يخرجوا لملاقاة النفير بعد كراهيتهم لذلك. لكنهم خرجوا وحاربوا وانتصروا ثم اختلفوا على الغنائم، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام.

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هي طعن فيهم؟ لا، فهذا القول له حيثية بشرية؛ لأن الذي يريد أن يخوض معركة لابد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر، وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة. وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد، وليس معهم عُدَد، بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان اثنان. وكان خروجهم من أجل البضائع والعير، لا لملاقاة جيش كبير، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبي على أوامر الله تعالى، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل.

ويريد الله أن يثبت لهم أنهم لو ذهبوا وانتصروا على العير فقط ، لقيل عنهم إنهم جماعة من قطاع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها ، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلا ، والمسلمون ثلاثمائة ويزيدون ، ومن المعقول أن ينتصروا ، ولكن ربنا أراد أن ينصرهم على النفير الذى استنفره الكفار من مكة ، هذا النفير الضخم فى العدد والعدة ويضم جهابذة قريش وصناديدها ، وتتحقق إرادة الحق فى أن يزهق الباطل . ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ .

والخروج من البيت هنا مقصود به خروج الرسول من المدينة لملاقاة الكفار ، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان ؛ لأن معنى « فريق » هم الجماعة الذين يفترقون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباط واحد ، فالجيش مثلاً يتكون من فرق ، يجمعهم الجيش الواحد .

وهذه الفرق التى يأتى الحديث عنها هنا هى الفرق التى كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً ، ونعلم أن كراهية القتال أمر وارد بالنسبة للبشر ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

و « يجادلونك فى الحق » ، أى يجادلونك فى مسألة الخروج لملاقاة النفير ، بعد ما

تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين، وهما طائفة العير أو النفير الضخم الذى جمعته قريش لملاقاتهم. ومادام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين، فلماذا لا تأخذون الوعد فى أقوى الطوائف ؟ لماذا تريدون الوعد فى أضعف الطوائف ؟! لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه مادام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين، فلنتقدم إلى الأنفع للإسلام والحق الذى نحارب من أجله، وأن نواجه الطائفة ذات القوة والشوكة والمنعة؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير، لكن هذا النصر سيبقى من بعد ذلك مجرد نصر يقال عنه ! إنه نصر لقطاع طريق، لا أهل قضية إيمان ودين.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فالمنطق إذن يفرض أن الله عز وجل مادام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين، طائفة فى عير والأخرى فى نفير، كان المنطق يفرض إقبال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية؛ لأن النصر على النفير هو أشرف من النصر على طائفة العير. ﴿ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾.

ونلحظ أن هناك « سوق »، وهناك « قيادة »، والقيادة تعنى أن تكون من الأمام لتدل الناس على الطريق، و« السوق » يكون من الخلف لتحث المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن، فبدلاً من أن نقطع المسافة فى ساعة - على سبيل المثال - لنقطعها فى نصف ساعة.

وقوله تعالى :

﴿ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦ من سورة الأنفال)

أى أنهم غير منجزين للسير . بل هم مدفوعون إليه دفعاً ، وهم ينظرون بشاعة الموت ، لأنهم تصوروا أن مواجهتهم لألف فتى من مقاتلي قريش مسألة صعبة ، فألف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة ؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعتاد ، فكأن الصورة التى تمثلت لهم صورة بشعة ، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم ربّا ينصرهم على هؤلاء جميعاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾

والوعد من الله عز وجل يجب أن يستقبل من الموعود بأنه حق ؛ لأن الذى يقدح فى وعد الناس للناس أن الإنسان له أغيار ، فقد تعد إنساناً بشيء ، وقد حاولت أن تفى بما وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد . أو كانت لك قوة وانتهت . أو قد يتغير رأيك . إذن فالوعد من المساوى من الخلق غير مضمون ، لكن الوعد من القادر القوى ، الذى لا تقف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد ، هو وعد حق ويجب أن يتلقوا هذا الوعد على أنه حق . ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ .

أي إن كنتم تميلون وتحبون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التي تحرس العير - والشوكة هي شيء محدد من طرف تحديداً ينفذ بسهولة من غيره، وأنت تجد الشوكة مدببة رفيعة من الطرف ثم يزداد عرضها من أسفلها ليتناسب الغلظ مع القاعدة لتنفذ باتساع . وذات الشوكة أي الفئة القوية التي تنفذ إلى الغرض المراد، ولا يتأبى عليها غرض، ولذلك يقال « شاكي السلاح ». فإن كنتم تتمنون وتريدون عدم ملاقاة جيش الكفار في معركة فالمولى عز وجل يقول لكم ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾.

أي أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة ضئيلة ضعيفة بغير عتاد على جيش قوي فيعرفون أن ربنا مؤيدهم، وبذلك يحق الحق بكلماته أي بوعده . وهناك الكلمة من الله التي قال فيها :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

(من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف)

هكذا كان وعد الله الذي تحقق . ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾

والدابر والدُّبر هي الخلف، وتقول : « قطعت دابره » أي لم أجعل له خلفاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن « يحق الحق »، وهنا يقول: « ليحق الحق » والمراد بالحق الأول نصر الجماعة الضعاف، القلة الضعيفة على الكثرة القوية، هذا هو الحق الأول الذي وعد به الحق بكلماته، ليحق منهج الإسلام كله، ولو كره المجرمون.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

ومادة «استغاث» تفيد طلب الغوث، مثل «استسقى» أي طلب السقيا، و«استفهم» أي طلب الفهم، و«الألف» و«السين» و«التاء» توجد للطلب. و«استغاث» أي طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصلها من الغيث وهو المطر، فحين تجدب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال: طلبنا الغوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل في كل ما فيه غوث، وهو إبقاء الحياة، وفي حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾.

و«تستغيثون ربكم» بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون في وقت واحد، وقد استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم ائتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1].

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذي وعد بالنصر، وود القوم خلفه: آمين، لأن أي إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد. فمن يقول: «آمين» يكون أحد الداعين بنفس الدعاء. والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب.

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(سورة يونس)

وهذا ما جاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها:

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة يونس)

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذى دعا، وقوله سبحانه من بعد ذلك «أجيبت دعوتكما» دليل على أن موسى دعا وهارون قال: «آمين» فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأنفال)

«فاستجاب لكم» الألف والسين والتاء – كما علمنا – تأتى للطلب، وقول الحق سبحانه وتعالى «فاستجاب» يعنى أنه طلب من جنود الحق فى الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه؛ لأن الله سبحانه وتعالى، خلق الكون، وخلق فيه الأسباب. نراها ظاهرة، ووراءها قوى خفية من الملائكة. والملائكة هم خلق الله الخفى الذى لانراه ولانبصره، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة.

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا، وإنما إيماننا بالله، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل: كيف يوجد شىء ولا يرى؛ نقول له: هذه أخبار من الله.

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال : إنها القوى الميكانيكية في الأسباب ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبي ، فسبحانه يترك في مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبي إلى الذهن ، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها ، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها ، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفتها ، وإنما هي كانت موجودة لكنك لم تتعرف عليها ، وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك وجود الشيء . ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب في القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف ، وكان يدخل في أجسام الناس ، وينفذ من الجلد ، وحين اكتشفوه ، دلّ ذلك على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه . إذن فإن حُدثت بأن لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه ، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة ، وكل شيء له ملائكة يدبرونه ، وهم : « المدبرات أمرا » ، والملائكة الحفظة ، وسبحانه القائل :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وسبحانه أيضاً القائل :

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان في الأرض ، المطر مثلاً له ملكه ، الزرع مثلاً له ملكه ، وكل شيء له ملك . وهو سبب خفي غير منظور يحرك الشيء . ﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة ﴾.

والإمداد هو الزيادة التي تجيء للجيش ، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد الموجود من الرجال أو السلاح ، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال

المدد من الرجال والعتاد.

﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض. أما الملائكة غير الموكلين بهذا، فلم يدخلوا في هذه المسألة، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس، قال له:

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بـ « العالين » هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود.

والحق تبارك وتعالى هنا في هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين في غزوة بدر بـ: ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾

والردْفُ هو ما يتبعك، ولذلك يقال: « فلان ركب مطيته وأردَفَ فلاناً »، أي جعله وراءه. والمُردِف هو من يكون في الأمام، والمردَف هو من يكون خلفه. والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد، وجيش الكفار كان كثير العدد، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين. وكان يكفي أن يرسل الحق ملكاً واحداً، كما تحكي الروايات عما حدث لقوم لوط، فقد روى أن جبريل عليه السلام، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار، ونباح الكلاب، وصياح الديوك، ولم تنكفئ لهم جرة، ولم ينسكب لهم إناء، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض.

وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود. لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من

الملائكة ؟. حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد فى أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثانى : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان للملائكة فى هذه المسألة عمل ؟ أو لا عمل لهم ؟ هنا حدث خلاف .

ونجد الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أى أن الملائكة هى بشرى لكم ، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية ، ويواجهون أول لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل ، فقد يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم ، و « لتطمئن به قلوبكم » ، أى أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفار ، والزيادة فى العدد هى أنتم يا من خرجتم للقتال . واعلموا أن الملائكة هى لطمأنة القلوب . لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أنتم ؛ لأن الله يريد أن يربى المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .

واختلفت الروايات فى دور الملائكة فى غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما هذه الأصوات التى أسمعها فى المعركة ؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع

الكفار في غزوة بدر - ويرد ابن مسعود على أبي جهل : إنها أصوات الملائكة .
قال : إذن بالملائكة تغلبون لا أنتم . .

فإياكم أن تفتنوا حتى بالملائكة ؛ لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من عندي أنا ؛ لأن الذي تحب أن ينصرك ، لابد أن تكون واثقاً أنه قادر على نصرتك ، والبشر مع البشر يظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر الحقيقي من الذي لا يُغلَب وهو الله سبحانه وتعالى :
﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذي نستنصر به إن كان من جنسك يصح أن يَغْلِب معك ويصح أن تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحرب مظنة أنك تغلبَ مع مَن ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمَّا الحقُّ سبحانه وتعالى فهو وحده الذي لا يُغَالَب ولا يُغْلَب . ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وهو سبحانه وتعالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذي يقاتل بحمية الإيمان واثقاً من النصر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً ، فإن تهاونتم في أي أمر يُسلب منكم النصر ؛ لأن الله لا يغير سنته مع خلقه ، وقد رأينا ما حدث في غزوة أحد حين تخاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا ؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله في غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخا له في دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقاتل أن ينفذ ما عليه . لكنهم خالفوا فسلبهم الله النصر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يغلب . وقال البخاري عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من

الرماة ، وأمَّر عليهم « عبد الله بن جبير » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لاتبرحوا وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» .(١)

ونلحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف ، ومرة بثلاثة آلاف في قول الحق سبحانه

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد ، لذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين ، ويبين ذلك قوله سبحانه : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾

فالصبر إذن وحده لا يكفي بل لابد أيضا من تقوى الله ، ولابد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو في الصبر ؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في موقع آخر : ﴿ اصبروا وصابروا ﴾ وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميزة الصبر ؛ لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شيء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه .

وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة الأنفال)

---

(١) رواه البخاري .

وما أن بدأت المعركة حتى بدأ توالى النعم التى سوف تأتى بالنصر، إمداد بالملائكة، بشرى لتطمئن القلوب، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

ثم يأتى التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

والنعاس عبارة عن السِّنَة الأولى التى تأخذ الإنسان عندما يحب أن ينام، ويسميها العامة فى مصر «تعسيلة» ويقولون : «فلان معسل» أى أخذته سِنَة النوم، وهى ليست نوماً بل فتور فى الأعصاب يعقبه النوم، وهذا من آيات الله تعالى فى أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً. وسبحانه يقول عن ذاته العليا:

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

أى أنه – جل وعلا – لا يأخذه النومُ الخفيفُ ولا النوم الثقيل. لأنّ السِّنَة هى إلحاح من الجسم فى طلب النوم، ويكون نوماً خفيفاً، وسبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فهو عز وجل لا يتجسد أو يتمثل فى شىء، لا السِّنَة تأخذه ولا النوم يقاربه، ونلحظ أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذه السِّنَة فهو يصحو وينتبه. أما النائم بعمق فقد لا يصحو.

فالسِّنَة - إذن - هي الداعي الخفيف للراحة. أما النوم فهو الداعي الثقيل. وهنا أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً. وتعلم أن النوم آية من آيات الله عز وجل في كونه؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل الغذاء ويشرب الماء ويتنفس الهواء، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة.

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة، من تمثيل للغذاء وتحويل الطعام إلى نوعيات مختلفة لتغذية كل خلية من خلايا الجسم بما يناسبها، ثم استخلاص «الأوكسجين» عبر التنفس وطرد ثاني أكسيد الكربون، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها فضلات لتخرج، وهي تختلف عن التفاعلات الأخرى التي تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك.

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحتراقات التي نقول عنها: «العادم» في الآلات الميكانيكية. والعادم هو نتيجة الاحتراق وهي غازات تنفصل لتسير الحركة. وفي الإنسان نجد العادم يتمثل في الغائط، وما خرج من صماخ الأذن، و«عماص العين»، والعرق، كلها عوادم. لكنْ هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يُمثل لإيجاد الطاقة وليس له عادم.

والوسيلة الأساسية لاستعادة التوازن الكيميائي المناسب للإنسان هي أن نريح الجسم، وتتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً. وهذا لا يحدث إلا بالنوم. ولذلك نجد الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برجليه وقد «تخدلت» أو كما يقال: «تملت». وهذا نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل الذي تحتاجه نتيجة اليقظة، وهذه كلها مسائل لا إرادية. بدليل أن الإنسان يرغب أحياناً في أن ينام، ويتحايل أحيانا على النوم فلا يأتيه؛ لأن النوم من

العمليات المختصة بالحق سبحانه وتعالى، وهو آية من آيات الله فى هذا الكون، ومن ضمن الآيات العجيبة. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم، وضعوا عشرات النظريات، وآخر التجارب التى أجريت أنهم أحضروا إنساناً وعلقوه كالرافعة من وسطه، وكأنه عصا مرفوعة من وسطهابتوازن، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً فى الوزن، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت، وكأن ثقلاً ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها، وهذا آخر ما درسوه فى النوم، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التى تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها: ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾.

وانظر إلى كلمة « والنهار » هذه تر فيها الرصيد الاحتياطى الموجود فى آية النوم؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل ﴾.

وفى هذا القول رصيد احتياطى لمن جاء له ظرف من الظروف ولم ينم بالليل، فيعوض هذا الأمر وينام بالنهار، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾.

وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقات الجسم، فعندما ينام الإنسان لا يقدر جسمه على أن يتحرك التحرك الإرادى، إلا السمع فهو باق فى وظيفته؛ لأن

به الاستدعاء، وإنّ العين - مثلاً - لا ترى أثناء النوم ، إنما الأذن تسمع ولا تتخلى عن السماع أبداً؛ لأن بالأذن يكون الاستدعاء ، فإذا ما نادى الأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء . لذلك قلنا سابقاً : إنّ الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينيم أهل الكهف ثلثمائة سنة وازدادوا تسْعاً ، قال تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً ، فإذا ظل السمع ، أهاجته الأعاصير ، وعواء الذئاب ، وزئير الأسود ، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو :

وهل هناك نعاس غير أمنة ؟ والجواب نعم؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتنشط بعدها ، هذا لنفهم أن «أمنة» جاءت لمهمة هي تهدئة أعماق المؤمنين في المهيجات المحيطة ، فهذا عدو كثير العدد ، وهم بلا عتاد؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يضيع منهم الطاقة اللازمة للمواجهة ، ولا تتبدد هذه الطاقة في الفكر؛ لذلك جعل نعاسهم نعاساً مخصوصاً يغلبهم وهو «نعاس أمنة» ، وجعل المولى عز وجل من هذا النعاس آية ، حيث جاءهم كلهم جميعاً، وهذه بمفردها آية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء مَيْلَة واحدة ، ولكنهم أخذوا شيئاً من الراحة التي فيها شيء من

اليقظة . ﴿ إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أمنةً ﴾.

وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمنة من الله ، وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

هنا فى آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك فى آية آل عمران أمنة ونعاس ؛ لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين فى غزوة أحد بعد أن أصابهم الغم فى هذه الغزوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما فى سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعا ولا يوجد بينهم منافق أو مرتاب فغشيتهم جميعا هذه الأمنة بالنعاس ؛ لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله .

ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً فى ذات الآية :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

ومعنى التطهير أن هناك حادثاً يستحق التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليتطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء فى أول الأمر ، فظمئ المسلمون وانشغلوا بالعطش ، وبالرغبة فى تطهير أجسامهم ، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل نظيفاً ، رغم الوجود فى المعركة التى لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام ، لما لامه أحد على ذلك ، وجاء

هذا القول ليدل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شئ من الإفرازات والعرق ، أو كان التطهر من رجز الشيطان ؛ لأن الشيطان خيل لهم منامات جنسية ، وأخذ يوسوس قائلا لهم : أنتم تقولون إنكم على حق ، فكيف تصلون وأنتم جنب ؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم جميعاً هو آية أخرى من الآيات . فأغاظ الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا .

ويقول المولى سبحانه وتعالى في ذات الآية : ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتوزع أو تتشتت مشاعرهم ، وما أن نزل المطر حتى حفروا الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كما أن نزول المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى - من جهة أخرى - حيث يثبت الرمال على الأرض فلا تثير غباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقله يدك ما تحته مما يحتمل الدك على قدر وزنه ، فالطفل الصغير حينما يمشى على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن قستها بالنسبة لوزن الصبى أو الغلام ، وبوزن الرجل الممتلىء ، تجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكتلة التى سارت عليها ، وحين يسير الناس دون عمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد تغوص في الرمال وقد يصير جزءٌ من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة ؛ لأن القدم هي التي تحقق التوازن.

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك في حياتنا ، فنجد أهل الريف يضعون فوق جداول الماء جزع نخلة أو «عرقاً» من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطين ، وإن فكر السائر في هذه المسألة قد يقع في الماء ، لكنه إن ترك رجليه للسير تلقائيا ، فهو يمشى محققاً التوازن ، ومثل هذا الأمر يحدث

فى صناعة سلالم البيوت ، إننا نجدها متساوية فى ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلت درجة واحدة فى السلم بأن كان ارتفاعها مختلفا عن بقية الدرجات يختل التوازن ويقع الإنسان ؛ لأن الساق ضبطت نفسها آليا على هذا الوضع.

ولذلك نجد الصعود على السلالم الحلزونية متعباً لأن السلالم الحلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة. وقد يرتبك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذه الأسباب نجد الجيوش تكشف طبياً على المجندين ، ولا يختارون إلا الشخص المستوى القدمين لتستقبل أقدامه كل الظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من الأعضاء له مواصفات خاصة .

وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ .

وتثبيت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنوياً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام «بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة » ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل فى مناسبة أخرى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام له ألوان متعددة ، حسّية ومعنوية .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

والمولى سبحانه وتعالى هنا يبين أنه أوحى إلى الملائكة بالإلهام : أنى معكم بالنصر والتأييد ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ .

أى قوُّوا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم. أى اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطة عليها فلا يخافون أية أغيار من عدوهم ، ويريد الإيضاح للمؤمنين : إياكم أن تظنوا أن كثرةَ العدَدِ أو قوةَ العُدَدِ هى التى تصنع النصر. بل النصرُ دائماً من عند الله تعالى وسبحانه القائل :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال من الله تعالى. وقلنا إن السماء تتدخل إذا كان الأمر فوق أسباب الخلق ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وإن قال قائل : أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبنى.. نرد عليه ونقول له :
أنت لم تدع دعوة المضطر، بل دعوت دعوة المترف، مثلما يدعو ساكن فى شقة بأن يرزقه الله بقصر صغير، أو يدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العمل طالباً سيارة خاصة، أو يدعو من يملك «تليفزيوناً» بأن يهبه الله جهاز «ڤيديو»، هذه كلها ليست دعوة اضطرار؛ لأن المضطر هو من فقد أسبابه.

ويتابع الحق القول فى ذات الآية :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

وإذا ألقى الله عز وجل الرعب والخوف فى قلوب العدو مهما كان عَدَدُه ومهما كانت عُدَدُه، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفزع، وقد فعل بعض من الكفار ذلك. وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واطمئناناً، وهيأ لهم الماء، وطهرهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وكل هذه مقدمات المعركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم، وما عليكم أيها المؤمنون سوى أن تُقبلوا على المعركة بعزيمة صادقة، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذى له من العقل ما يفكر به ويدبر فى التخطيط، وفى الكر والفر.

وكانت أدوات القتال قديماً هي السيوف والرماح والنبال، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليخطط به، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها السيف، ولذلك ينبه الحق المؤمنين إلى هاتين النقطتين المؤثرتين فيقول: ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ .

والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير، أو تذهب حياته لينتهي، وإن بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم. والضرب منهم في كل بنان.. أي ضربهم بالسيوف في أيديهم؛ لأن الضرب في الأيدي إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال.

لماذا؟. يجيب الحق في الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

وهنا يوضح الحق سبحانه وتعالى : أن هذا النصر المؤزر للنبي وصحبه والهزيمة للمشركين؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله، و "شاقوا" من "الشق" ومعناه أنك تقسم الشيء الواحد إلى اثنين. وكان المفروض في الإنسان منهم أن يستقبل منهج الله الذي نظم له حركته في هذا الكون، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين؛ جماعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك؛ لأن الطاقة التي كانت معدة لإصلاح أمر الإنسان والكون للخلافة؛ إنما يتبدد جزء منها في الحروب بين الحق والباطل، ولو توقفت الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها موجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير لبني الإنسان، لكنهم شاقوا الله ورسوله، فجعلوا أنفسهم في جانب يواجه جانب المؤمنين بالله والرسول؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه، وبسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأنفال)

وهذه قضية عامة، وسنة من الله في كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله ورسوله من بدء الرسالة، وإلى قيام الساعة.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

وذلكم إشارة للأمر الذي حدث في موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق، وضرب كل بنان كافر، وإن ربنا شديد العقاب، وهذا الأمر كان يجب أن يذوقه الكافرون. والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً، إلا أنه تعدى كل محسّ به ولو لم يكن مطعوماً أومشروبا ويقول ربنا عز وجل:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

(سورة الدخان)

أي ذق الإهانة والمذلة لا مما يُطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس؛ لأن ذوق الطعام هو الحاسة الظاهرة في الإنسان؛ قد يجده بالذوق حريفاً، أو حلواً، أو خشناً أو ناعماً إلى غير ذلك. وها هو ذا الحق يضرب لنا المثل على تعميم شيء: فيقول عز وجل:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

والجوع سلب الطعام، فكيف تكون إذاقة الجوع؟ الجوع ليس مما يذاق، ولا

اللباس مما يذاق، ومن قول الحق تبارك وتعالى نفهم أن الإذاقة هي الإحساس الشديد بالمطعوم، واللباس - كما نعلم - يعم البدن، فكأن الإذاقة تتعدى إلى كل البدن، فالأنامل تذوق، والرجل تذوق، والصدر يذوق، والرقبة تذوق؛ وكأن الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله. وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ذلكم فذوقوه﴾.

والذوق غير البلع والشبع، ونرى ذلك في عالمنا السلعي والتجاري؛ فساعة تشترى - على سبيل المثال - جوافة، أو بلحاً أو تيناً، يقول لك البائع: إنها فاكهة حلوة، ذق منها، ولا يقول لك كل منها واشبع، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك. وما نراه في الدنيا هو مجرد ذوق يتطبق عليه المثل الريفي "على لساني ولا تنساني"، والعذاب الذي رآه الكفار على أيدي المؤمنين مجرد ذوق هيّن جداً بالنسبة لما سوف يرونه في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم، وسيأتي الشبع من العذاب في الآخرة، لماذا؟ ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾.

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين، مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله على الكفر، وفي يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾.

إذن فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هي مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و« العذاب » هو إيلام الحس، إذا أحببت أن تديم ألمه، فأبق فيه آلة الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان والهدهد يقول :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النمل)

كأن الذبح ينهى العذاب، بدليل أنّ مقابل العذاب في هذا الموقف هو الذبح.

وماذا عن عذاب النار ؟، إن النار المعروفة في حياتنا تحرق أي شيء تدخله فيها، لكنّ نار الآخرة تختلف اختلافا كبيرا لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

ونعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، إما أن يكون بعدها أمر يتعلق الإيمان ومطلوبه، وإما أن يكون بعدها الإيمان نفسه، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

وبعضهم يقول : كيف ينادى مؤمنين ثم يقول لهم : « آمنوا » ؟ ، وهؤلاء المستفهمون لمْ يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغيار في الاختيار قد تدعوهم إلى أن يتراخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان. و « آمنوا » الثانية معناها : أنشئوا دائما إيماناً جديداً أي مستمراً يتصل بالإيمان الحاضر والإيمان المستقبل ، ليدوم لكم الإيمان.

فإذا كان ما بعد ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعى ، أو عظة أخلاقية. يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، ثقوا فى كل ما آمركم به لأنى لا آمركم بشىء فيه مصلحة لى ؛ لأن صفات الكمال لى أزلية ، فخلقى لكم لم ينشىء صفة كمال ، فإن كلفتكم بشىء ، فتكليفى لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم ، وضربنا المثل - ولله المثل الأعلى منزّه عن كل مثل - أنت تذهب إلى الطبيب بعد أن تتشاور مع أهلك وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطبيب الذى ينفع فى هذه الحالة التى تشكو منها ، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء ، وسواء استخدمت الدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأثر ذلك يعود عليك وعدم استعمالك الدواء لن يضر الطبيب شيئاً ، بل أنت الذى تضر نفسك ، كذلك منهج الله الذى جعله لصلاحية حركة الحياة. إن اتبعته وطبقته تنفع نفسك ، وإن تركته فلم تطبقه فسوف تضر نفسك ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

إذن فالاختيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارىء على هذا الكون ، طارىء على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء وعلى أى

شيء في هذا الوجود. والذي خلق ما سبقك لابد أن تكون له صفات الكمال المطلق، فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بالحكمة والنظام، ومادامت له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة، فهو لا يطلب منك بالتكاليف أن تنشيء له صفة كمال جديدة، وهو غني عنك. فإذا اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت، ولم يكلفك إلا بالأحكام التي تصلح من حالك. وحيثية كل حكم هو تصديره بـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾.

إياك أن تبحث عن علة في الحكم؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلته، لاشتركت مع غير المؤمنين، فالمؤمن - مثلا - حين سمع الأمر باجتناب الخمر، امتثل للحكم لأنه صادر من الله، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين - بالتحليل العلمي - أن الخمر ضارة فامتنعوا عنها، فهل امتناعهم هو امتناع إيماني ؟ لا .

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعلة الأمر بل لمجرد أنه قد صدر من الله؛ لذلك يمتثل للأمر وينفذه.. فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدي العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علته، فحين يقال - على سبيل المثال - إن من فوائد الصيام أن يذوق الغني ألم الجوع، ويعطف على الفقير، حين أسمع من يقول ذلك أقول له : قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم، لكن ماذا عن صوم الفقير الذي ليس عنده ما يعطيه لغيره، ألا يصوم أيضاً ؟.

إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام. ومعظم أحكام الله تأتي مسبوقة بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، أي : يا من آمنتم بي إلهاً أقبلوا عليَّ، فإنكم إن بحثتم عن العلة، ثم نفذتم الحكم لعلته فأنتم غير مؤمنين بالإله الآمر والمشرع، لكنكم مؤمنون بعلة المأمور به، والله يريدك أن ترضخ له فقط، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواهٍ، فأنت - مثلا - حين تحج بيت الله الحرام، تسلم على الحجر الأسود بأمر من الله، وقد تتيح لك الظروف أن تقبِّل هذا

الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت في كل ذلك لا ترضخ للحجر. بل للآمر الأعلى الذي بعث محمداً بحرب على الأصنام وعلى الأحجار، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم والإيمان، وتذهب بعد ذلك لترجم الأحجار التي هي رمز إبليس. وتفعل ذلك تسليماً لأوامر الله تعالى التي بلغتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فمادمت قد آمنت بالإله، لابد أن تدافع عن منهج الإله؛ لأن هذا أيضاً لمصلحتك؛ لأنك بإيمانك بالله أيها المؤمن ينتفع المجتمع كله بخيرك، ولن يأمرك سبحانه إلا بالخير، فلن تسرق، ولن تزني، ولن تشرب خمراً، ولن تعربد في الناس، ولن ترتشي، وبكل ذلك السلوك ينتفع المجتمع؛ لأن المجتمع يضار حين يوجد به فريق غير مهتد. وأنت حين تقاتل لتفرض الكلمة الإيمانية على هؤلاء، فهذا يعود إلى مصلحتك، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان لا يتحقق إلا إن عديته لغيرك، ومن حبك لنفسك، أن تعدي الإيمان بالقيم التي عندك إلى غيرك لتنتفع أنت بسلوك من يؤمن، وينتفع غيرك بسلوكك معه، ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع.

وحين يكلفك الحق تبارك وتعالى بالجهاد في سبيل الله فأنت تفعل ذلك لصالحك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

وزحفاً مصدر زَحَفَ، والزحْف في الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف الأعلى من الجسم. وتقول: « الولد زحف » أي تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية جسمه. كما نقول: « حبا ». أي استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض، ثم نقول: « مشى » أي وقف على قدميه وسار، فتلك إذن مراحل تبدأ من زَحْف ثم حَبْو ثم مَشْي، والطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف، بعد أن يتمكن من السيطرة على رأسه، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته، ويقوى نصفه الأعلى، فيقعد، ثم يزحف، وبعد ذلك تقوى فخذاه فيحبو، ومن بعد ذلك تقوى الساقان فيمشي.

إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى.

ولكن ما حكاية « زحفا » هنا في هذه الآية الكريمة ؟ ولماذا لم يقل هَرْولوا إلى القتال ؟. ونقول: إن الزحف هو انتقال كتلة لا ترى الناقل فيها، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك.

وكأن الحق تعالى يقصد: أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون. وزحفاً أصلها زاحفين، وقد عدل سبحانه وتعالى عن اسم الفاعل وجاء بالمصدر، مثلما تقول عن إنسان عادل: إنه إنسان عدل، أي أن عدله مجسم، ولذلك نجد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف:

خميس (١) بِشَرْقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ

وفي أذنِ الجــــوزاءِ منه زمـــــازم (٢)

---

(١) وسمي الجيش بذلك؛ لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.
(٢) زمازم: جمع زمزمة؛ وهو صوت الرعد.

والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصوّر الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة ومترابطة ، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندى من حركة جندى آخر ، حتى ليخيّل إليك أن الكتلة كلها تسير معاً. ومن يريد أن يتأكد من ذلك ندعو الله أن يكتب له الحج ويصعد إلى الدور الثانى من الحرم المكى الشريف ويرى الطائفين ، ويجدهم ملتحمين جميعاً كأنهم كتلة واحدة تسير ، ولذلك سمّوها «السيل».

و« سالت بأعناق المطى الأباطح »

مثلهم مثل السيل فى تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى.

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أى كتلة واحدة متماسكة ، فيصيب المشهد الكافرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التى لا يفرق أحد بين أعضائها ، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية.

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التنبيه فيقول :

﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

أى لا تعطوهم ظهوركم ، وهو سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

ويريد الله أن يعطى صورة بشعة فى أذن القوم ؛ لأن « الأدبار » جمع « دبر » والدبر مفهوم أنه الخلف ويقابله القُبُل ، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أى دبرك ، لأن هذا أمر مستهجن ، ولذلك نجد الإمام عليا - كرّم الله

وجهه - يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له ظهار، أى مغطى من الصدر، وليس له ظهر. وهنا يقول الإمام على رضى الله عنه : « ثكلتنى أمى إن مكّنت عدوى من ظهرى »، وكأن شهامة وشجاعة الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية.

وفى قول الحق جل وعلا « فلا تولوهم الأدبار » تحذير من الفرار من مواجهة العدو.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولى الدبر هرباً وفراراً من لقاء الأعداء. أما الذى يولى الدبر احتيالاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفى ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له، فهذا هو المقاتل الحق والصادق فى إيمانه الذى يمكر بالعدو. وكذلك من يولى الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن، فهذا أيضاً من أعمل فكره ليُنزل بالعدو الخسارة؛ لأن المؤمن يحرص دائما على أن يكون موته بمقابل، فإذا ما وعده الله بالجنة. ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة ؟. وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوة تغلب عشرة، مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولكن علم الله أن بالمؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن فى المعركة اثنين من الكفار، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولذلك فإننا نجد الذى يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فاراً فى الحكم الشرعى. لكن من يفر من مواجهة اثنين، يعد فاراً ؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين. فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن. ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين ؛ لذلك قال :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه فى مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلا ثمن.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

وعرفنا أن المتحرف للقتال هو صاحب الحيلة ، ونقول فى ألفاظنا التى تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية : « فلان حريف » أى لا يغلبه أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف فى القتال الذى يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهى فى الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه : « أو متحيزا » مأخوذ من « الحيز » ، وهو المكان الذى يشغله الجسم ، وكل واحد منا له « حيز » فى مكان يشغله ، أى أن كل واحد منا متحيز ، والحيز هو الظرف المكانى الذى يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وجاءت كلمة «متحيز» فى هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف ، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائما إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو ، ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بينه تعالى فى قوله سبحانه :

﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

و « باء » تعنى رجع ، والتعبير الأدائى فى القرآن الكريم مناسب لما فعلوه ؛

لأن من يعطى الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال. لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة فى القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين، فهذا له وضع مختلف تماما، إنه ناصر لدين الله، عكس المنسحب الفار الذى يصحبه فى انسحابه غضب من الله، والغضب من الله - كما نعلم - هو سبب من أسباب إنزال العذاب، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٦ من سورة الأنفال)

والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان، وتعلم أن الواحد منا حين يرغب فى الراحة فهو يأوى إلى المكان الذى يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء.

والفارُّ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يوم القيامة توضحه الآية الكريمة :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

ويُثْبتُ الحق فى قرآنه الكريم أن النار تغتاظُ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى ومسخرة لتنفيذ حكم الله، لمن خالف المنهج فى الدنيا تتلقاه النار بتغيظ وزفير، ويسمع الكافرون تغيظها حين تراهم من بعد، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وحين تكون النار هي المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟.

كأن الراجع من الزحف والفارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل ، سيذهب إلى شيء شر من القتل.

ثم يربب الحق في المؤمنين ويطلب منهم ألا يفتنوا بالأسباب فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وقول الحق تبارك تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

مثل قوله تعالى في آية أخرى :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وفي هذا ترييب من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين ، فكما أن النصر من عند الله عز وجل لمن أخذ بالأسباب ، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه لمن كفر ووقع هذا القتل بيد المؤمن ، فالمؤمن يضرب بالسيف ، ويتجرح العدو وينزف ، لكن ألم تر جريحاً لم يمت ، وألم تر غير مجروح يموت ؟. إذن فالقتل هو من الله .

سبحـــــان ربى إن أراد فــلا مرد له يفوت

كم من جريح لا يموت وغير مجروح يموت

إذن فالمؤمنون حين حاربوا أهل الكفر، إنما يجرحونهم فقط، أما الموت فهو واقع بهم من الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

ولقائل أن يقول : إن الحق تبارك وتعالى قال فى موقع آخر :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فللمؤمن المقاتل مظهرية القتال، وللحق حقيقة القتل. ولذلك يأتى سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

وفى هذا القول الكريم عطاء لشيء كان مجهولا لهم بشيء عُلم لهم، وبذلك قاس غير معلوم بمعلوم. وعرفنا من قبل أنك إذا رأيت حدثا أو فعلاً منفياً ومثبتا له فى وقت واحد، قد يبدو لك أن فى الكلام تناقضاً. وهنا - على سبيل المثال - ينفى الحق الحدث فى قوله : « وما رميت » ويثبته فى قوله : « إذ رميت ». والرمى معروف. والفاعل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف ينفى عنه الفعل أولاً، ويثبته له ثانياً ؟.

ونعلم أن القائل هو رب حكيم، وأسلوبه على أعلى ما يكون. وحتى نفهم هذه المسألة، نحن نعرف أن كل حدث له هيئة يقع عليها وله غاية ينتهى إليها، فمرة يوجد الحدث، لكن الغاية منه لا تتحقق، مثلما يقول الوالد لولده : لقد قرب الامتحان فاجلس فى حجرتك وذاكر. ويجلس الولد فى حجرته وأمامه كتاب ما يقلب صفحاته، وبعد ساعة يدخل الأب حجرة ابنه ليقول : هات كتابك لأسألك فيما ذاكرته. ويسأل الأب ابنه سؤالاً ثم ثانياً فلا يعرف الابن الإجابة عن الأسئلة، فيقول الأب : ذاكرت وما ذاكرت . أى كأنه لم يذاكر، بل فعل الفعل شكلياً، بأن جلس إلى المذاكرة، ولم يؤد ما عليه لأن أثر الفعل وهو المذاكرة لم يتحقق.

وفى غزوة بدر استنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه فقال :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم) فأخذ صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين (١) ومعلوم أنه ساعة تأتى ذرة تراب فى عينى الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شيء. إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

أى أنك يا رسول الله ما أرسلت بالرمية الواحدة - حفنة التراب - إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد، ولكنك « إذ رميت » أى أديت نصيحة جبريل لك، أما الإيصال إلى عيون العدو فهذا من فعل الله

(١) رواه الطبرى والقرطبى وابن كثير .

القوىّ القادر.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

والبلاء الحسن هنا هو خوض المعركة وحسن أداء القتال فيها.

ويخطىء الإنسان حين يظن أن البلاء هو نزول المصائب ، لا ، إن البلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور . فالطالب الذى استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسناً ، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً. إذن فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، لكن بنتيجة الإنسان فيه هل ينجح أم لا.

وحتى نعرف أن القرآن يفسر بعضه بعضا فلنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنبياء)

فالخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله ، فهذا كله اختبار من الله عز وجل ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالخير ، أما الابتلاء بالشر فيقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

والابتلاء بالخير أو بالشر هو مجرد اختبار، والاختبار كما وضحنا غير مذموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، ولكنه يذم ويمدح بالنسبة لغايته التي وصل إليها المبتلى أو من يمر بالاختبار، فإن نجح، فهذا ابتلاء حسن، وإن فشل، فهو ابتلاء سيىء.

ونلحظ - على سبيل المثال - أن الطالب الذي ركز فكره ووقته وحبس نفسه وبذل كل طاقته في التحصيل والاستذكار طوال العام الدراسي، هذا الطالب حين يدخل الامتحان. فهو يحاول أن يثأر من التعب الذي عاناه في التحصيل والإحاطة؛ لذلك يجيب على الأسئلة بدقة، وكلما انتهى من إجابة سؤال إجابة صحيحة، يشعر ببعض الراحة، وإن حاول زميل له أن يشوش عليه فهو يصده ولا يلتفت إليه، بل قد يستدعي له المراقب.

والمؤمن الذي يشترك مع المؤمنين في البلاء الحسن هو مثل التلميذ الذي يؤدي ما عليه بإخلاص.

والذي يسمع همسة كل مؤمن ويرى فعله هو الحق سبحانه وتعالى، ولذلك جاء بعد الحديث عن البلاء الحسن بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

« من الآية ١٧ سورة الأنفال »

إذن فالله سبحانه وتعالى سميع بما تجهرون به وعليم بما تخفونه في صدوركم. وهو جل وعلا يعلم من حارب بقوة الإيمان، ومن خالطته الرغبة في

أن يرى الآخرون مهارته فى القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة. ولا أحد يقادر على أن يدلس على الله عز وجل.

ويقول سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

و « ذلكم » إشارة إلى أن الأمر كان كذلك، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه موهن كيد الكافرين، أى يضعف هذا الكيد، ولسائل أن يقول : لماذا لا ينهاهم ؟ ولماذا يضعف الكفر فقط ؟ ونقول : إن إضعاف الكفر يُهَيّج على الإيمان ويحبب المؤمنين فى الإيمان حين يرون آثار الكفر التى تفسد فى الأرض وهى تضعف، ولأن الحمية الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام من خصومه. إذن فبقاء الكفر لون من استبقاء الإيمان.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًۭٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

و « تستفتحوا » من الاستفتاح وهو طلب الفتح ؛ لأن الألف والسين والتاء تأتى بمعنى الطلب، فنقول : استفهم أى طلب الفهم، و « إن تستفتحوا »، أى تطلبوا الفتح، ونعلم أن المعنويات مأخوذة كلها من الأمر الحسىّ ؛ لأن أول إلف للإنسان فى المعلومات جاء من الأمور الحسّية، ثم تكون للإنسان المعلومات العقلية. ومثال ذلك قولنا : « إن النار محرقة »، وعرفنا هذا القول

من تجربة حسّية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً.

وعندما تجتمع المحسات تتكون عند الإنسان خمائر معنوية وقضايا كلية يدير بها شئونه العامة، ومثال ذلك : إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح، وأخذنا هذه الحقيقة من الواقع، تماماً كما أخذنا الحقيقة القائلة: إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب.

وسبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه فيقول :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

أى أن الإنسان منا مخلوق وهو خالى الذهن، وخلو الذهن يطلب الامتلاء، وكل معلومة يتلقاها الذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً، ولذلك نجد التلميذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من الشاب الكبير؛ لأن هذا الشاب الكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلى.

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا: إن لكل شعور بؤرة هى مركز الشعور. والأمر الذى تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به فى ذهنك فوراً. وقد تتزحزح هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت فى موضوع آخر، كما تتزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد فى بؤرة الشعور.

والحيز فى المعنويات مثله مثل الحيز فى الحسّيات، فأنت حين تملأ زجاجة بالمياه لابد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتدخل فيها المياه ويخرج الهواء الذى بداخل الزجاجة. لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة العطر مثلاً

فهذه يصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن رفيع كالسرنجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطرد الهواء الموجود بداخل الزجاجة ذات الفوهة الضيقة.

وهكذا نرى أن الحيز فى الأمور المحسة لا يسع كميتين مختلفتى النوعية، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز. وتقترب المسألة فى المخ من هذا الأمر أيضاً، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضوع فى مركز الشعور، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة. والطفل الصغير يكون خالى الذهن لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضرا لها.

ولذلك لا يجب أن نتهم إنساناً بالغباء وآخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التَّذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله فى ذلك، فالذكاء له مقاييس متعددة مازال العلماء إلى الآن يختلفون حولها. لكن فى موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الذهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول لقطة شريطة أن تكون بؤرة الشعور خالية لهذه المعلومة. أما إن كانت بؤرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهى لا تلتقط المعلومة. والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

والسمع والأبصار هما عمدة الحواس، تأخذ بهما محسّات وتُكَوِّنُ منها معلومات عقلية.

والحق تبارك وتعالى هنا يقول :

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

(سورة الأنفال)

والفتح يُطلق إطلاقات متعددة، منها الحسّى، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزالة إغلاق شيء يصون شيئاً، مثل فتح الباب، والباب إنما يصون ما بداخل الغرفة. والفتح الحسّى يمثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

أى إن إخوة يوسف حين فتحوا الأخراج - وكانت هى بديلة الحقائب - وجدوا البضاعة التى كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى. وهذا هو الفتح الحسّى.

وقد يكون الفتح فى الأمور المعنوية كالفتح فى الخير وفى العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

إذن ففتح الرحمة فتح معنوى.

وقد يكون الفتح فى الحكم ؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبكة فى قضية، وكل طرف يدّعى على الآخر، ويأتى الحكم ليزيل خفاء القضية ويفتحها.

ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه. فقومه قالوا :

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الشعراء)

فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام ؟ :

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

(سورة الشعراء)

أى أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل فى القضية التى بينه وبين قومه بالحق وهو يعلم أن الله تعالى معه. لذلك طلب منه النجاة لنفسه ولمن معه من المؤمنين.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الفتح يأتى بمعنى الحكم الذى يفصل بين المتنازعين، وهو طلب حكم يفصل بين فريقين، فريق الهدى والداعى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين، وفريق الضلال وهم كفار قريش.

وقد استفتح الفريقان، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم: « اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه [1] الغداة» [2].

لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم يقطع رحمهم، ويجعل الولد يترك أباه وأمه، وأيضاً كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى

---

(١) أحنه : أى أهلكه.
(٢) رواه أحمد والنسائى والحاكم.

بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا :

« اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين »

هكذا كان دعاء الكفار.

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو قوله :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً) .

والاستفتاح من الطرفين يدل على أن كلا منهما مجهد بأمر الآخر، فلو كان أحدهما مرتاحاً والآخر متعباً لطلب المتعب الفتح وحده.

وجاء الحكم من الله سبحانه وتعالى فى القضية هذه، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثار السخرية من أنفسهم وممن يرونهم وقد استحقوا ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحاربتهم للحق، والذى رجح أن الفتح جاء أيضاً من المؤمنين أن الحق قال :

﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

أى إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان فى صالح المؤمنين ، وأيضاً فى صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء فى الأمرين الاثنين : فتح للمؤمنين، وفى صالح دعاء الكفار. فأنتم – أيها الكافرون – قد دعوتم ، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء فى الدعاء، ومادام الفتح قد جاء، كان الواجب أن ينتهى كل فريق عند الحد الذى وقع، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا.

﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

و « تنتهوا » هذه صالحة أولاً بظاهرها للكفار، أى إن تنتهوا عن معاداة الرسول وخصومته، واللجج فى أنكم جعلتموه عدوا، وتكتلون وتتآمرون عليه، فإن تنتهوا فهذا خير لكم فى دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة. حيث قتل البعض من صناديدكم، وأسر البعض الآخر، وأخذت منكم الأسلاب والغنائم. فإن انتهيتم عن العمل الذى سبب هذا فهو خير لكم فى دنياكم، وخير لكم أيضاً فى أخراكم؛ إذا كان الانتهاء سيئول بكم إلى أن تنتهوا عن مخاصمة الدين الذى تخاصمونه وتصبحوا من المنتمين إليه.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وإن لم تنتهوا وعدتم إلى العداء ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة؛ ففئتكم لن تغنى من الله عنكم شيئاً، والدليل على ذلك أنكم هزمتم فى بدر وأنتم كثرة، وأصحاب عدد، وأصحاب عدة. فما أغنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئا.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين.

وما تقدم إنما يعنى الكلام بالنسبة للكفار، فماذا إذا كان الكلام والاستفتاح

بالنسبة للمؤمنين ، ففى أى شىء ينتهون ؟.

إن عليهم أن ينتهوا عن اللجاج والخلاف فى الغنائم ، الذى جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه ، فإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان ، فلن تغنى فئة عن أخرى شيئا ، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم ، فلتهن أمامها الطائفة الأخرى ، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا بالفئة ولا بالملائكة ، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين ، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول ؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبى بالله وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان. ومطلوب الإيمان - أيها المؤمنون - أن تنفذوا التكاليف التى يأتى بها المنهج من الله عز وجل ، ومن المبلغ عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الأوامر وفى النواهى.

وقد فصلنا من قبل مسألة الطاعة ؛ الطاعة لله تكون فى الأمر الإجمالى ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون فى اتباع الحكم التفصيلى التطبيقى الذى يأتى به رسول الله للأمر الإجمالى. وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة فى أى أمر أو حكم ؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الملحظ الجميل فى الأداء القرآنى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والتولى - كما تعلم - هو الإعراض ، والأمر هنا بعدم الإعراض ، ومادمتم قد آمنتم فلا إعراض عما تؤمنون به. والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل : ولا تولوا عنهما . قياساً بالأسلوب البشرى. لكنه قال : « ولا تولوا عنه » أى أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام فى أمرين اثنين ؛ طاعة الله وطاعة الرسول ، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين ؛ لأن طاعة الرسول هى طاعة لله تعالى.

أو نقول : إن التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله؛ لأن الله لاحقه ومدركه فى أى وقت.

لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول فى آية ثانية :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهو سبحانه وتعالى فى هذا القول يوحد بين رضاء الله والرسول فيجعله رضاءً واحداً، فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يفعل الفعل المخالف للإيمان إرضاءً للمؤمنين، وليبرىء نفسه عند البشر، لكن هناك رضاء أعلى هو رضاء مراعاة تطبيق المنهج الذى أنزله الله عز وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهناك قيوم أعلى يرقب كل سلوك، ويعلم ما ظهر وما بطن. فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأى إنسان أن يواجه الآخر، كل بقوته، لكن نحن فى الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المقتدر القيوم، فمن ظلم أخاه؛ وغفر المظلوم لظالمه، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم - لا يغفر للظالم بل يؤاخذه.

وسبحانه وحد أيضاً فى هذه الآية بين رضاء الله ورضاء الرسول ولم يقل : والله ورسوله أحق أن يرضوهما بظاهر الأسلوب فى لغة البشر، لكنه شاء أن يوحد الرضاء؛ لأنه يدور حول أمر واحد بطاعة واحدة، وحول نهى واحد بانتهاء واحد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله، والبلاغ أول وسيلة له الأذن، لأن الأذن أول وسيلة للإدراكات، ولذلك فإنّ الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظا.

ونعلم أن السماع هو الأصل فى القراءة. وأنت لا تقرأ مكتوباً، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد، وعرفت كيفية نطق الحروف.

والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً، إذن فالسماع مقدم فى كل شيء، ولن يستطيع واحد أن يقول فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تبلغنى الدعوة؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع، وقوله: « وأنتم تسمعون » تعطينا أن الإنسان إن لم تبلغه الدعوة، فليس مناطاً للتكليف، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

والمجتمعات التى تعيش فى غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج، لن يعذبهم الله، وهذا أمر وارد الآن فى البلاد النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهج الإسلام، وبالسماع عن الإسلام؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه. وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس، ولذلك أخذنا حكما هاماً من الأحكام من قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون. ولكن أيكفى السماع فى أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفى فى السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق ، ولكن عليك أن تبحث أنت. فإن كان فى الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناج ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث.

ولنفرض أن إنساناً قال فى قرية : إن الدولة ستغير بطاقة التموين ، ألا يتجه كل فرد فى القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام ؟. إذن كان يكفى فى وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولاً فى العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسالات السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية لأنه اذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة ؟.

وجزء من التبعة فى ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدُّوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

فـفى هذه الآية الكريمة ينهـانا الحق جل وعـلا أن نكون مـثل من قـالوا :

«سمعنا» وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا؛ لأن المراد بالسماع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدى مطلوب ما سمعت ، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع. بل تكون شراً ممن لم يسمع ؛ لأن الذى لم يسمع لم تبلغه دعوة ، أما أنت فسمعت فبلغتك الدعوة ولكنك لم تستجب ولم تنفذ مطلوبها.

إذن قول الله تعالى :

﴿ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأنفال)

يفسر لنا أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التى تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق فى حياتهم. فإذا لم يتأثروا بالمنهج ، فكأنهم لم يسمعوا ، وياليتهم لم يسمعوا؛ لأنهم صاروا شراً ممن لم يسمع.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أو أن السمع يراد ويقصد به القبول ، مثلما تقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنك تقول : اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى « اللهم اقبله » ، فيكون المراد بالسمع القبول.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وكلمة « دابّة » تعني كل ما يدب على الأرض، ولكنها خُصَّتْ عرفاً بذوات الأربع. وجمع دابة دواب.

و « الدواب » كما نعلم هي القسم الثالث من الوجود، لأن الوجود مرتقى إلى حلقات؛ أولها الجماد، وثانيها النبات، وثالثها الحيوان، ورابعها الإنسان، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد، فنجد أن أعلى مرتبة في الأدنى، هي أول مرتبة في الأعلى، فالأدنى هو الجماد، وفوقه النبات، وأعلى شيء في الجماد، يُمثل أول شيء في النبات، مثل المرجانيات، كأن الجماد نفسه له ارتقاءات في ذاته تتوقف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلا ترتقي إلى أن تصير نباتاً، أو أن يصبح النبات حيواناً، لا، إن كل قسم يظل مستقلا بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين. وإذا كان أعلى شيء في الجماد يكاد أن يماثل أول شيء في النبات. فهو لا يتحول نباتاً مثل ظاهرة نمو الشعاب المرجانية التي أخذت ظاهرة النبات، لكنها لا تنتقل إلى نبات، بل تظل أعلى قمة في الجماد. وكذلك النبات، نجده يرتقي إلى أن ينتهي إلى أعلى مرحلة فيه. فالنبات مراحل، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحسّ، لأن الإحساس فرع الحياة، وهذا ما نراه في نباتات الظل التي تشاهدها وهي تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار. وكأن فيها نوعاً من الإحساس. وإن تغير مكان الضوء، فإنها تُغيِّر اتجاهها إلى المكان الجديد.

وهناك نوع من النبات يذبل فور أن تلمسه. ونسمع عن نبات يسمى في الريف « الست المستحية » وهي تغلق أوراقها على ثمرتها فور اللمس، وأخذت

أعلى مرتبة في النبات، وهي أول مرتبة في الحيوان، لكنها لا ترتقي إلى حيوان، بل تظل في خلقتها كنبات.

ونأتي إلى الحيوانات لنجدها ترتقي، فهناك حيوانات تستأنس، وحيوانات لا تستأنس، بل تظل متوحشة، وقد خلقها ربنا لحكمة ما. فالإنسان يستأنس الجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان، ولا البرغوث، كأن الله يريد بذلك أن يعلمنا أننا لم نستأنس الحيوانات التي نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا؛ بل هو الذي جعلك تأنس بها، فأنت أنست بالجمل، وقد ترى البنت الصغيرة وهي تقوده، وتأمره بالقيام والقعود، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال الليل لا يعرف كيف يصطاده. إذن هذه الأمور تعطينا حكمة أوجزها الحق تبارك وتعالى في قوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

ولو لم يذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات، لما استطاع الإنسان تذليلها، ونرى المخلوق الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذليله، ليعرف أن المذلل ليس الإنسان، بل المذلل هو الله سبحانه وتعالى. وفي المستأنس من الحيوانات تجد نوعاً تُعوده على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذي يقول له مدربه اعجن عجين الصبية، أو العجوزة، فيقلد القرد الصبية أو «العجوزة»؛ لأن فيه قابلية التقليد، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة في الحيوان، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها، بدليل أنك إن علمت قرداً كل شيء، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه، لكن القرد لا يستطيع أن يعلمها لبني جنسه. وكذلك تجد من يدرب الأسد والنمر ليؤدي

فقرات ترفيهية فى السيرك، لكن الأسد لا يعلم أولاده من الأشبال ما تعلمه من مدرب السيرك.

إذن فالوجود بحلقاته الأربع؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقي فيه حلقة إلى الأعلى منها؛ بل تقف عند حد معين، وتلك هى الشبهة التى أصابت بعض المفكرين فى أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض، وأدنى مرتبة فى الأعلى لكل حلقة هى أعلى مرتبة فى الأدنى وتقف في حدودها. والذى يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

أى أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر.

ونقدم هذا الدليل العقلى لغير المتدينين، فنقول : لماذا لم تؤثر الظروف التى أثرت فى القرد الأول ليصير إنساناً، فى بقية القرود لتكون أناساً ؟

وهكذا تتهدم النظرية - نظرية داروين - من أولها لآخرها، وعلماء الأجناس يهدمونها الآن. والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخلوقات التى تقع فى المرتبة تحت الإنسان، لا تستطيع أن ترتب المقدمات، وتأخذ منها النتائج. ولا تعرف البديلات فى الاختيار، والحيوان وهو أرقى الأجناس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهى المسألة؛ لأنها دواب لا تعقل، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات. وجرب أن تعاكس قطة فإنك تجدها تهاجمك وتجرحك بمخالبها إلا إن كنت أنت مستأنسها وتعرف أنك

تداعبها. أمّا المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف في المواقف بشكل مختلف. فإن قام إنسان بإيذائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب، وقد يعفو عنه، وقد يكظم غيظه.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة، لكن الحيوان لا يملك مثل هذه البديلات.

ولذلك ضربنا من قبل المثل : لو أنك علفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم جئت إليه بعد شبعه بشيء زائد من أشهى طعام عنده؛ تجده لا يأكله. بينما الإنسان إن شبع فقد لا يمانع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه.

ومثال آخر : نرى في الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون اتساع الجدول فوق قدرته على أن يقفز عليه ليعبره، نجد الحمار قد توقف رافضاً القفز أو المرور فوق هذا الجدول. فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووازنها بقدرته ؟! إنه يقفز فوق الجداول التي في متناول قدرته، لكنه يرفض ما فوق هذه القدرة، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة.

وهذا يبين لنا أن كل جنس يسير في ناموس تكوينه ليؤدي مهمته التي أرادها له الله. ولقائل أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى: « إن شر الدواب عند الله » بينما الحيوانات كلها مسخرة ؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ وظيفة الأدنى فأنت تختار أن تكون شراً من الدابة ؛ لأن الأدنى مسخر بقانونه ويفعل الأشياء بغرائزه لا بفكره ، فكأن فكر الاختيار بين البديلات غير موجود فيه ، لكنك أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذي يختار بين البديلات ، فإن أوقفت عقلك عن العمل ، وسلبت قدرتك على القبول لما تسمع من وحي ألا تكون شر الدواب ؟

وحين نتأمل كلمة « شر وخير » نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾

(سورة الزلزلة)

فالخير يقابله الشر، وحين يقابل الخير الشر، فالإنسان يميز الخير، لأنه نافع وحسن، ويميز الشر؛ لأنه ضار وقبيح.

ولكن كلمة « خير » تستعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر، بل يقال : إن هذا الأمر خير من الثاني، رغم أن الثاني أيضاً خير، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير). [(١)]

إن كلاً منهما - أي المؤمن القوى والمؤمن الضعيف - فيه خير، لكن في الخير ارتقاءات، هناك خير يزيد عن خير، ويخبر المولى في قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون).

أي أن الكفار شر مادبَّ على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهي السماع، وبذلك صاروا بكماً أي لا ينطقون كلمة الهدى.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير، فلم يسمعهم سماع الاستجابة.

---

(١) رواه مسلم.

والمولى سبحانه وتعالى منزه من أن يبتدئهم بعدم إسماعهم ؛ لأنهم لم يوجد فيهم خير ، والخير هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول ، وهم لم يؤمنوا، فلم يستمعوا لنداء الهداية منه صلى الله عليه وسلم كمبلغ عن الله تعالى . إذن فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهم - إذن - سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة المائدة)

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله.

والله منزه عن الافتئات على بعض عباده ، فلم يسمعهم سماع الاستجابة لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)

وعلم الله تعالى أزلي ، لكنه لا يحاكم عباده بما علم عنهم أزلاً. بل ينزل لهم

حق الاختيار في التجربة الحياتية العملية. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - تجد أباً يعاني من مأساة فشل ابنه في الدراسة أو في الاعتماد على نفسه في الحياة، ويحيا الولد لاهياً غير مقدر لتبعات الحياة، فيقول أصدقاء الوالد له: لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو، فيرد الأب: إنني أعرف هذا الولد، سيأخذ المشروع ليبيعه ويصرف ثمنه على اللهو. والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن. لكنْ ألا يُحتمل أن يكون هذا الابن قد ملّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأى والده فيه غير صحيح؟ لذلك تجد الأب يفتح لابنه مشروعاً، لكن الولد يغلبه طبعه السيىء فيبيع المشروع ليصرف نقوده في الفساد.

هل حدث ذلك من نقص في تجربة الوالد؟ لا، بل عرف الأب عدم الجد عن ابنه، وسهولة انقياده لهواه. فما بالنا بالحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما خفي وما ظهر من عباده؟.

ولكنّه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عباده بما علمه أزلاً، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً، فهو القائل:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه؛ لأن الله لو حكم على العباد بما علم أزلاً، لقال العبد: كنت سأفعل ما يطلبه المنهج يارب. لذلك يترك الحق الاختيار للبشر ليعملوا على ضوء اختياراتهم ويكون العمل إقراراً بما حدث منهم.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا شراً من الدواب عنده، وهم الصم الذين لا يسمعون دعوة هداية، وبكم لا ينطقون كلمة توحيد، ولا يعقلون فائدة المنهج الذى وضعه الله تعالى لصلاح دنياهم وأخراهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وهنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب.

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾

أى استجيبوا الله تعالى تشريعا، وللرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً، وغاية التشريع والبلاغ واحدة، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل، بل وللرسول صلى الله عليه وسلم تفويض بأن يشرع. ورسول الله لم يشرع من نفسه، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - : نسمع أن فلاناً قد فُصل لأنه غاب خمسة عشر يوماً عن عمله فى وظيفته، ويعود المحامى إلى الدستور الذى تتبعه البلد فلا يجد فى مواد الدستور هذه الحكاية، ويسمع من المحامى الأكثر خبرة

أن هذا القانون مأخوذ من تفويض الدستور للهيئة التي تنظم العمل والعاملين.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه بالبلاغ وبالتشريع.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال : « إذا دعاكم » ولم يقل : إذا دعَوَاكُمْ ، وفي ذلك توحيد للغاية ، فلم يفصل بين حكم الله التشريعي وبلاغ الرسول لنا. ونعلم أن الأشياء التي حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدّل الله له فيها الحكم ، هذا التعديل نشأ من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشىء حكماً عدّله الله تعالى إلا فيما لم يُنزل الله فيه حكماً. وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وضعه الرسول ، فمن عظمته صلى الله عليه وسلم أنه أبلغنا هذا التعديل ، وهكذا جاءت أحكامه صلى الله عليه وسلم إذا وافقت حقاً فلا تعديل لها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو صلى الله عليه وسلم يعدل لنا. وبذلك تنتهي كل الأحكام إلى الله تعالى. فإذا قال قائل : كيف تقول إن قول الرسول يكون من الله؟ نجيب : إنه سبحانه القائل :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾

(سورة النجم)

و « الهوى » - كما نعلم - أن تعلم حكماً ثم تميل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوًى في نفسك ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمد إلى أي حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل ، فإن جاءه تعديل أبلغنا. إذن ما ينطق عن الهوى . أي من كل ما لم ينزله الله ، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم ببشريته ، ولم يكن له هوى يخدم أي حكم ، ونجد في قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أنَّ كلمة « دعاكم » مفردة، مثلها مثل كلمة « يرضوه » في قوله لكم :

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة التوبة)

ومثلها مثل الضمير في « عنه » في قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

وفي هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المثنى، وهذا التوحيد كان مثار شبهة عند المستشرقين، فقالوا : كيف يخاطب اثنين ثم يوحدهما ؟ ونقول لمن يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية. فلم تفهم، ولو وجد الكفار في أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا، فهم المعاندون، ولو كانوا جربوا في القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة. وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التي يثيرها الأعداء، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن، وهم فهموا - على سبيل المثال - الآية التي يكرر المستشرقون الحديث عنها ليشككوا الناس في القرآن الكريم، وهي قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجرات)

وتساءل المستشرقون - مستنكرين - : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين، ثم يأتي الفعل الصادر منهما بصيغة الجمع ؟. ونقول : إن « طائفتان » هي مثنى طائفة، والطائفة لا تطلق على الفرد، إنما تطلق على جماعة، مثلما نقول : المدرستان اجتمعوا؛ وصحيح أن المدرسة مفرد. لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون، وكذلك « طائفتان »، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد، وحين يحدث القتال فهو قتال بين جمع وجمع ؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين، إن انتهوا فيما بينهم إلى القتال. فساعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله، وإنما كل فرد يقاتل في كل أفراد الطائفة الأخرى، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين.

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه :

﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجرات)

وهنا يقول سبحانه وتعالى : « فأصلحوا بينهما »، ولم يقل : أصلحوا بينهم. وهكذا عدل عن الجمع الذي جاء في الاقتتال إلى المثنى ؛ لأننا في الصلح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين، ونحن لا نأتي بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى. ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها، وهكذا استخدم الحق المثنى في مجاله، واستخدم الجمع في مجاله، وسبحانه

وتعالى منزه عن الخطأ.

وهنا في الآية التي مازلنا بصدد خواطرنا عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وفي أولها نداء من الله للمؤمنين، والنداء يقتضي أولاً أن يكون المنادى حياً؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إذن : كيف يقول سبحانه لمن يخاطبهم وهم أحياء : « دعاكم لم يحييكم » ؟.

وهنا نقول : ما هي الحياة أولاً ؟. نحن نعلم أن الحياة تأخذ مظهرين، مظهرَ الحسّ ومظهرَ الحركة، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح في المادة فتتكون الحياة، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر. وثمرة الحياة أن يسعد فيها الإنسان، لا أن يحيا في حرب وكراهية وتنغيص الآخرين له وتنغيصه للآخرين، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله، وبذلك تتآزر الطاقات في زيادة الإصلاح في الأمور النافعة والمفيدة، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة في معاندة البعض للبعض الآخر، فهذه حياة التعب والمشقة، حياة ليس فيها خير ولا راحة. وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى

للخلق، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له في الأرض ليصلح لا ليفسد، وليزيد الصالح صلاحاً، ولا تتعاند حركة الفرد مع غيره؛ لأن كل إنسان هو خليفة لله، ومادمنا كلنا خلفاء لله تعالى في الأرض. فلماذا لا نجعل حركاتنا في الحياة متساندة غير متعاندة ؟

وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بحفر بئر، هنا يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر؛ فمجموعة تحفر، ومجموعة تحمل التراب بعيداً، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع، لكن أن يتسلل إنسان ليردم البئر، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة.

وقد نزل المنهج من الله عز وجل ليجعل حركة الحياة متساندة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط، فإذا قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لما آمنتم به؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به، بل يطلب منك الاستجابة إذا كنت قد دخلت في حظيرة الإيمان بالله، واهتديت إلى ذلك بعقلك، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً؛ بل طلب منك لأنك آمنت به تعالى إلهاً، ورباً، وخالقاً، ورازقاً، وحكيماً، وعادلاً .

حين يأمرك من له هذه الصفات، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك إليه. ولله المثل الأعلى؛ نجد في حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة للغلام، ويأمره الأب قائلا :

اسمع الكلام لأني والدك الذي يتعب من أجل أن تنعم أنت. وتضيف الأم قائلة له : اسمع كلام والدك، فليس غريباً عنك، بل لك به صلة وهو ليس عدواً لك، وتجربته معك أنه نافع لك ويحب لك الخير، هنا يستجيب الابن. وكلنا عيال الله، فإذا ما قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيدعوكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة.

الداعي - إذن - هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك، وهو سبحانه قد أرسل رسولاً مؤيداً بمعجزة لا يستطيع واحد أن يأتي بها، ويدعو كل إنسان إلى ما فيه الخير، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غبياً.

ونلحظ في حياتنا اليومية أن الإنسان المريض، المصاب في أعز وأثمن شيء عنده وهو عافيته وصحته، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل عن الطبيب المتخصص فيما يشكو منه، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب متخصص، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين، وإن لم يكن له علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب، وبذلك يكون قد أدى مهمة العقل في الوصول إلى من يأمنه على صحته. فإذا ما ذهب إلى الطبيب وشخص له الداء وكتب الدواء، في هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا أشرب الدواء إلا إن أقنعتني بحكمته وفائدته وماذا سيفعل في جسمي؛ لأن الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء، اذهب إلى كلية الطب لتتعلم مثلما تعلمت. وطبعاً لن يفعل مريض ذلك؛ لأن المسألة متعلقة بعافيته، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشتري الدواء ويسأل عن كيفية تناوله، والمريض حين يفعل ذلك إنما يفعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو الصيدلي.

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعونا لما يحيينا به ، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى أوكل له البلاغ بالمنهج الذى يصلح حالنا ، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة ، بعد أن تأتى الروح فى المادة ، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات. وهذه حياة للمؤمن والكافر ، وقد يكون فى الحياة منغصات وتمتلىء بالحركات المتعاندة ، وقد يمتلىء البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران ، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية. والموت أحسن منها. والشاعر يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وشاعر آخر يقول :

ذل من يغبط الذليل بعيش

رب عيش أخف منه الحِمام

والحمام هو الموت ، وكأن الموت - كما يراه الشاعر - أخف من الحياة المليئة بالمنغصات. إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب ، بل المطلوب حياة خليفة يأتى فى مجتمع خلفاء لله فى الأرض. وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح المجال الذى يخصه. ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض ، بل عليهم أن يتفقوا ؛ لأنهم وكلاء لواحد أحد. كذلك خلق الله الإنسان ، خلقه خليفة له فى الأرض وأنجب الخليفة خلفاء ؛ ليؤدوا الخلافة بشكل متساند لا متعاند.

إننا - على سبيل المثال - حين نرغب فى تفصيل جلباب واحد ، نجد الفلاح يزرع القطن ، والغزّال يغزله ، والنسّاج ينسجه ، ومن بعد ذلك نشتريه لنذهب به إلى الخيّاط الذى يأخذ المقاسات المناسبة للجسم ، ثم يقوم بحياكة الجلباب

على آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون. إذن فجلباب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر، هكذا تتعاضد الحياة.

وإذا نظرنا إلى العالم الذى نحيا فيه نجده مليئاً بالتعب، خصوصاً الأمم المتخلفة، وأيضاً نجد التعب فى الأمم المتقدمة؛ لأننا نجد صعاليك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تتبع دولة كبرى ويهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط، ويُذِلُّون الدولة الكبرى.

إذن فالحياة حتى فى الدول الراقية متعبة.

وعلى سبيل المثال: الحروب التى قامت فى منطقتنا منذ عام ١٩٤٨ مع إسرائيل واستمرت كل هذه المدة الطويلة، ثم الحرب الأهلية فى لبنان، ثم الحرب التى دارت بين العراق وإيران؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التى لو استخدمت فى وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا.

إذن الذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة. فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد، وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله تشريعاً والرسول بلاغاً، وبهذا تتساند الحياة وتصبح حياة لها طعم. وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

(سورة النحل)

أمَّا من يحيا بغير منهج فتكون حالته كما يبينها قول الله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة، والمعيشة ضنكا.

إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط، لا. بل إن اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة، وأما ثمرته ففى الدنيا. فمن يوفق فى هذه الدنيا، وحركته متساندة مع غيره، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة. وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا، أما الآخرة فهى جزاء على هذا الاختيار الدنيوى.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أى يعطيكم منهجاً من إله واحد؛ لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم، وتلك هى حيثيات الاستجابة، ومن لا يستجب لهذه فهو الأحمق.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إذن فالخير يأتى من أمر إله واحد؛ فلا يجعل كل منا إلهه هواه، حتى لا تتعدد الأهواء :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

ولذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل، أمّا الشيء الذي ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التي خلقها الله له، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى، أما الأمور التي لا تخضع للهوى فألد الأعداء يتفقون فيها.

والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحي علمي، وهذا الطموح العلمي نشأ عن التجربة في المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليخترعوا ويطوروا، مثال ذلك : « أديسون » الذي قضى وقتاً طويلاً ليخترع المصباح الكهربي، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نفاجأ بمخترع قد أتى منهم، والعالِمُ من هؤلاء تجده أشعث أغبر، لا يفكر في العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب، ولا تدرى أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واختراعه جاءت، ويقال : فلان اخترع الشيء « الفلاني »، وتنتفع أنت بما اخترع رغم أنك لم تَشْقَ شقاءَه حين أخذت الخير الناتج منه.

وترى المعسكرات المتضادة في عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها في العلوم، وهذه المعسكرات تختلف فقط في الأهواء، فذلك شيوعي، وآخر رأسمالي، وثالث وجودي. الخلاف - إذن - في الأهواء غير المحكومة بالمادة أو بالتجربة. ومن المؤسف حقّاً أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التي هي وليدة التجربة، هذه المخترعات نستعملها في فرض ما نختلف فيه، وهكذا تجد أن التعب في العالم إنما يأتي من الطموح الأهوائي لا الطموح المادي العلمي؛ لذلك يتدخل الشرع في الأهواء ويحسمها؛ ليكون كل منا عبداً لله تعالى،

وكل منَّا حر أمام غيره.

والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذى جاء به من الله يدعو الحيّ - صاحب الحس والحركة - إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضنك؛ هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة. فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة، فهى لا تساوى إلا القليل؛ لأن ما لا نختلف فيه كأفراد فى الخلافة يجب أن يكون غاية للخلفاء، فربنا قد يخلق واحداً ليموت فى بطن أمه، وواحداً يموت بعد ساعة من مولده، وثالثاً يموت بعد شهر من ميلاده، ومنا من يعمر مائة سنة، ولا يمكن أن يكونَ الأمر المُخْتَلَف فيه غاية للمتحدين فى الجنس، فالغاية أن نعمر الدنيا بالعمل الصالح لنسعد بها، ونعبر منها إلى ما هو أجمل وهى الآخرة، ومأمون فيها أننا لا نموت، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً، لأنه كلما اشتهيت شيئاً ستجده أمامك. وهذه قمة الحياة الطيبة.

وعلى فرض أنك ستتعب فى سبيل منهج الله حين تبلغه للناس، دفاعاً عنه بالحرب والقتال وبالتضحية بالأموال، فأنت رابح لحياة طيبة أبدية، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة، بل أكبر من حياة؛ لأن حياتك الدنيا موقوتة ومحددة، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك وتصوراتك، ولكن الحياة الأخرى ليست موقوته بل ممتدة، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات خالقك المنعم القادر. وهكذا نتأكد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما يحيينا.

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمى المعيشة فى منهجه

حياة، لأنها حياة سعيدة، وتسلم إلى حياة خالدة. ولذلك سمى الحياة الأولى التى تأتى إذا نفخ الله الروح فى المادة، وقال عن آدم وكل بنى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر. وسمى سبحانه وتعالى ما يحمل المنهج للناس وهو القرآن روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والمنهج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين، وهذه هى الحياة المطلوبة لله سعادة، وتساندا، وخلوداً فى الجنة. ولذلك أنزل المنهج ليمتنع التعاند والتعارض والتضاد بين المؤمنين، وليحمى كل مؤمن نفسه من الزلل، فيقاوم المعصية وهى صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل.

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وماذا يعنى قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ؟.

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلن أن قلبه قد انعقد على الكفر؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان

فيقتنع به، ولن يسيطر على هواه، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير، مثل صناديد قريش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر، لكنها لم تستمر على الشر، بل حال الحق بين كل امرىء منهم وقلبه.

والقلب هو محل التمنيات والأمانى، وأول الأمانى أن تطول حياة الإنسان، خصوصاً وهو يرى أن من في مثل عمره يموت، ومن فى مثل عمر والده يموت، وأن جده يموت، ولأن الإنسان يحب أن تطول حياته، يرغب فى أن ينجب ولداً ليمتد ذكره، إنه يريد الحياة ولو من غيره، مادام منسوباً له.

كما أن الإنسان يحب الآمال، ويبنى فى أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه، والواجب عليه ألا ينسى أن لهذا الكون إلهاً قادراً، قد ينهى حياة أى منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول حياته، وقد يقف بين الإنسان وبين آماله التى يريد أن يحققها، ولا أحد منا معزول عن خالقه، وكل منا فى يد الخالق، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك النواميس لتعمل دون إرادته، بل كل النواميس فى يده.

ومادام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه: استطالة حياة، وتحقيق آمال، وستراً للموت وأسبابه وزمنه، كل ذلك لتتجه دائماً إلى فعل الخير لتحيا فى ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينتهى الأجل، وإلى الله المصير.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ويأمرنا الحق عز وجل أن نتقى الفتن من بدئها قبل أن يستفحل شأنها، وأن يتجنب الإنسان المعصية، وأن يضرب المجتمع على يد أي انحراف، فمن يسرق الآن الخزائن قد بدأ أولا بسرقة اليسير، سرق من أخيه أو من البيت ثم من الجيران ثم من البنك. ولو أن كل انحراف عوجل بالضرب على يد من فعله وهو صغير لما كبر المنحرف والانحراف، ولتم وأد الجرائم الكبيرة فى مهدها؛ لأن من ارتكب الصغيرة قد عوقب. وإياكم أن يقول أحدكم مادام مثل هذا الانحراف لا يمسنى فليس لى به شأن؛ لأن الذى اجترأ على مثلك، من السهل أن يجترىء عليك. ونحن نعرف جميعاً قصة الثيران الثلاثة؛ الأحمر والأبيض والأسود، فقد هاجم الأسد الثور الأبيض فأكله، ولم يدافع عنه الثور الأحمر أو الأسود. وهاجم الأسد الثور الأحمر بعد ذلك فقال الثور الأسود لنفسه : مادام الأسد لم يأكلنى فلا دخل لى بهذا الأمر. وجاء الأسد إلى الثور الأسود، بينما هو يقترب منه قال : لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنفال)

هذا القول يدلنا على أن اتقاء الفتنة يبدأ من الضرب على أيدى صانع الفتنة وهى فى بدايتها. وأضرب هذا المثل ليبقى فى الذاكرة دائما؛ إن الأم التى قسمت الأكل بما فيه من لحم وخضر وفاكهة على الأبناء، فأكل أحد الأبناء نصيبه، ثم احتفظت الأم ببقية أنصبة إخوته فى الثلاجة، ومن بعد ذلك لاحظت الأم أن الابن الذى أكل نصيبه يأكل نصيب أحد إخوته من خلف ظهرها ودون استئذانها، وهنا يجب أن تؤنبه وتعاقبه على مثل هذا الفعل حتى لايتمادى فى ذلك.

كذلك إن دخل الابن بلعبة أو بشيء يفوق ثمنه قدرة مصروف يده على الشراء، فعلى الأب أن يضرب على يد الابن حتى لا يتمادى الولد في إفساد نفسه. ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل الدية في القتل الخطأ على العاقلة وهم العصبة أي قرابة القاتل من جهة أبيه ،ويطلق عليهم العائلة - أي عائلة القاتل - لأن أفراد العائلة حين يرون أن كلاً منهم سوف يصيبه جزء من الغرم، فإنه يضرب على يد من يتمادى في إرهاب الغير وتهديدهم إن كان من عائلته.

ولذلك ترى أن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادى في ظلمه وطغيانه ويعربد في الآخرين، فيستشري الظلم في المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله. ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضوان الله عليه - يقول ، يبين لنا ذلك فيما رواه عنه الإمام أحمد . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها .

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك الله - عز وجل - أن يعمهم بعقابه » .

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق الفاصل في القضايا العقدية والحكمية ويأتي بمثال واضح يتفق عليه الكل ، فيقول صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه النعمان بن بشير :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا [1] على

---

(١) استهموا : اقترعوا.

سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا لو أنَّا خرقنا خرقاً في نصيبنا ولم نؤذ منْ فوْقنا. فإن يتْركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونَجوْا جميعا » .[1]

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل بقوم ركبوا سفينة ، وأجروا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين ؛ جماعة تجلس في النصف الأعلى من السفينة أي على سطحها ، وجماعة تسكن في بطن السفينة ، حسب ما تأتي به قسمة القرعة وهي ما تسمى بالاستهام.

وهذا يدلنا على أنهم أناس طيبون ، ولا توجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة. وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأواني من فوق سطح السفينة إلى النهر.

ولو تُرِك الذين في أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم في خرق السفينة ليأخذوا الماء من النهر لغرقت السفينة ، لكن إن ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يد من يريدون خرقها لنجوا جميعاً.

وهكذا يكون فهمنا لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولسائل أن يسأل ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ، والظالم هو الذي يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم ، ولكن ما ذنب المظلوم ؟

(١) أخرجه البخاري والترمذي.

والجواب : أن المظلوم قد كان فى مكنته أن يرد الظلم لكنه سكت عن ذلك فاستحق أن يشمله العقاب.

وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الفتن، أنزل الله بها العقاب، وعقاب الحق تبارك وتعالى أشد من عقاب الخلق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وبعد كل ما حدث من وقائع، يذكّر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلى بالماضى الأدنى، ليثبت له : أن الذى نقلك من أدنى حياة إلى أعلى حياة، موجود ولايزال موجوداً، ومادام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى، فقدرته سبحانه وتعالى - إن شاءت - تنقلك من الأعلى إلى الأدنى. فإذا كنت فى حال أعلى؛ إياك أن تنسى أنك كنت فى حال أدنى. وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتفضل وتقول : إن ربى القوى العظيم هو الذى وهبنى ورفع مكانتى ولم أفعل ذلك بمهارتى، وحتى إن كنت قد ارتقيت بالمهارة، فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى، لذلك يقول المولى عز وجل هنا :

﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾ .

أى اجعلوا هذا الأمر على بالكم دائما وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة، ولكن أعدوا لكل قوة ما يناسبها من أسلوب المواجهة الكثير؛ لأنكم حملة دعوة، ومن يحمل الدعوة قد يعانى من المصاعب والمتاعب والمشقات؛

لكن يجب ألاّ يفت ذلك في عضدكم.

لقد كان المسلمون الأوائل قلة تعانى من إذلال واضطهاد الكافرين الأقوياء. وكان المسلم من الأوائل لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين، فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له : أجرني من إخوانك الكفرة. وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائل أشده، ولم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعذيب الكفار، عرض عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة ؛ لأنَّ فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم، ولم يظل حال المسلمين كذلك، بل نصرهم الله لا بقوتهم، ولكنه سبحانه وتعالى شاء لهم أن يأخذوا بأسباب منهجه فانتصروا وعلت كلمة الله عز وجل.

إننا نتخذ من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون في قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها ؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلم والفكر والابتكار، وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام.

لقد سبق أن قلت : إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هي ساعة دقاقة بالماء ؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال الناس في فرنسا، ولحظة أن شاهدوها في فرنسا ظنوا أن الشياطين هي التي تحركها ؛ لأن التقدم العلمي والتطبيقي في بغداد في ذلك الوقت فاق كل التصور الأوربي حيث كانوا يعيشون في تخلف علمي شديد.

لكن المسألة انعكست في زماننا هذا وصرنا نعاني من تخلف في الأخذ بأسباب الله للاستفادة بالعلم، فحين جاء « الراديو » وجاء « التليفزيون » إلى بعض البلاد الإسلامية، وجدنا من يقول عن الراديو : إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلوّن ويغير من صوته. ولم يغير أصحاب هذا الرأي اندهاشهم ورفضهم

لوجود محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال فى بلادهم إلا بعد أن قلنا لهم : حركوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم، وحين فعلوا ذلك استمعوا إلى صوت الشيخ محمد رفعت، وكان يقرأ فى سورة مريم، وقلنا لأصحاب هذا الرأى : إن الشيطان لا يقرأ القرآن ، بل إن الإذاعة وأجهزة الاستقبال هي اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله فى العلم التطبيقى.

وحين جاء اختراع « الميكروفون » وطالب الكثير بوضعه فى المساجد وقت صلاة الجمعة ، وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد، متجاهلاً أن هناك مساجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من « ميكروفون » . وقلت لواحد من هؤلاء : ليصلح الله حالك وبالك ، لماذا ترتدى نظارة طبية وتضعها على عينيك ؟ أجابنى : لأن نظرى ضعيف والنظارة تكبر لى الكتابة. فقلت : وهكذا « الميكروفون » يكبر الصوت ليسمعه من يجلس بعيداً عن المنبر والإمام، أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة.

فإذا كان بعض من الدول الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من العجز فى تقبل العلم ، فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله فى الكون، ولنطور العلوم، ونخدم بها منهج الله ، بدلاً من أن نظل متخلفين رغم أن منهج الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة فى الكون، وكلنا يعلم أن كون الله فى يده والنواميس فى يده ، يسخرها سبحانه وتعالى لمن يأخذ بالأسباب.

ويذكرنا الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

والخطف هو أخذ بسرعة، أى أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق، وعرفنا من قبل أنَّ أخذ غير الحق له صُوَر متعددة، والمثال: نجد تاجراً يعرض أىْ يفرش بضاعته من تمر أو تفاح، ويأتى أحد المارة لينظر إلى البضاعة المعروضة والمفروشة وليس معه نُقُود يشترى بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من التمر ويجرى بسرعة، ويحاول صاحب البضاعة أن يجرى وراءه فلا يلحق به؛ هذا هو الخطف، لكن إن استطاع صاحب البضاعة أن يلحق به وحاول اللص أن يتخلص ويفلت منه؛ فهذا اسمه «غصب»، أما السرقة، فهى أخذ المال خفيةً من حرز وصاحبه غير موجود. ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ مما فى حوزتك وأنت مأمون عليه؛ إذن أخذ غير الحق له عدة صور هى: خطف، أو غصب، أو سرقة أو اختلاس. والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

أى يأخذونكم دون أن يدافع عنكم أحد. وها أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان فى قلوبكم، وبمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناناً وتقديرا وعبادة، وشكراً، وخشوعاً. فهو سبحانه وتعالى قد أعطاكم الاستقرار فى المأوى الجديد - المدينة المنورة - ورحب بكم مجتمع الإيمان فى المدينة المنورة.

وعند ما دخلتم إلى المدينة أقمتم المسجد وهو سمة استمرار النور من السماء هداية للأرض. كان هذا هو أول عمل لكم ولم تنشغلوا من قبله بأى عمل آخر. واعتبركم الأنصارُ إخوةً، فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان، وصاروا هم أيضا أقوياء بهذه الأخوة بعد أن كان اليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم، جاء

الرسول وكان فى نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته، لا للطعام ولا للشراب فقط، بل للإقامة أيضاً.

ثم حدث الملحظ العجيب، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى، فقد يحب أن يمتع صاحبه من هذه النعم، إلا المرأة، فالزوج يغار على نسائه. لكن الأنصارى من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنتين، يقول للمهاجر : لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك. فانظر إلى زوجتيّ، فأيهما تعجبك أطلقها وتتزوجها بعد انقضاء عدتها، هذا هو الملحظ العجيب، وهى مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربى أبداً.

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش، ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن فالذى صنع لكم كل ذلك حقيق أن يُذكر فلا ينسى وأن يشكر دائما.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

والخيانة مقابلها الأمانة، والأمانة هى الشىء يستودعه واحد عند آخر بدون

وثيقة عليه، ولا شهود. بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة، إن شاء أقر بها وإن شاء أنكرها ؛ لأن الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهود. ولا عليها «كمبيالة»، وغير محكومة بأى شيء إلا بذمة من اؤتُمن، والحق سبحانه تعالى يقول :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكل الأجناس التى فى الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد، كلها مُسخرة، ولا تملك الاختيار فى أن تفعل أولا تفعل. الشمس ليس لها اختيار فى أن تقول: سأشرق اليوم على هؤلاء الناس، أو لن أشرق اليوم. والهواء لا يملك إرادة الاختيار، كل الكائنات التى أوجدها الله فى هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر، ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار، لكن الإنسان قال: أنا لى عقل يختار بين البديلات وأقبل تحمل الأمانة وسوف أؤدى كل مطلوبات الأمانة لأنى أقدر على الاختيار.

لكن الإنسان ادّعى لنفسه القدرة على أداء الأمانة. وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها، وهو لا يعلم بأى شيء حكم ذلك الحكم على أمر غيبى مستقبلى.

صحيح أنه ساعة التحمل كان فى نيته أن يؤدى الأمانة، لكن ماذا عن ساعة الأداء ؟. وأنت لا تعرف ماذا تجىء به الأحداث والأغيار معك، فقد يأتى لك ظرف تضطر أن تبدد فيه الأمانة ؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول : ابعد عنى أمانة الاختيار، لأنى لا أعلم ماذا ستفعل بى الأغيار لحظة الأداء. وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل التسخير، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة

وأنه سيؤديها. ووصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

« ظلوماً » لنفسه لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس فى يده. و « جهولاً » لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء . فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار.

ويقول الحق عز وجل هنا :

﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

وكثير من التصرفات السلوكية للإنسان تكون مستترة عن أعين الخلق ؛ لأن أعين الخلق حين ترى جريمة ما ، فهى تستدعى رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم ، لكن ماذا عن الجرائم المستترة ؟.

نحن نعلم أن كل جريمة تطفو وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مختفية ؛ لأن الذى يقتل إنما يخفى جرائم أخرى ؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص ، وإن كان لا يملك نقوداً فقد يسرق ليشترى السلاح ، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته فى القتل ، وكل ذلك جرائم مستترة ، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتى بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجريمة الظاهرة ، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط ، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية ، أما عين الدين فتختلف ، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب ؛ لأن الدين أمانة وضعها الحق - الذى خلق الخلق - فى ضمير الإنسان. فإياك أن تخون الأمانة فى الأمور السرية التى لا يعرفها أحد سوى الله ؛ لأن الأمور التى يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس ،

بخلاف الأمور الباطنة وهي المهمة ؛ لأنها هي التي تسيطر على إيجاد السلوك.

فإياك أن تخون الله والرسول، وتخون الأمانة التي وضعت لك. ولا حجة لك - في ذلك - إلا اختيارك. إن شئت فعلت وإن شئت تركت، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التي بينه وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من ضميره على الأعمال الباطنة قد ينحرف؛ لأن كل جريمة ظاهرة إنما تتم بتبييت أمر باطن.

ومادمت قد آمنت بالله تعالى ربًا بمحض اختيارك، فالتزم بالأشياء التي جاء لك بها من آمنت به، وأنت تعلم : أن الإيمان هو علة كل تكليف، ، وعلى سبيل المثال؛ أنت تصلي خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك؛ تصلي في الصبح ركعتين، وفي الظهر أربع ركعات، وفي العصر أربع ركعات، وثلاث ركعات في المغرب، وأربع ركعات في العشاء؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه وتعالى أمرك بذلك. وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه منافع لك، فهذا موضوع آخر، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به، وهكذا تكون علة كل حكم هي الإيمان بمن حكم بهذا الحكم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

وما الخيانة ؟. إن مادة الخيانة كلها الانتقاص؛ وضده التمام، والكمال، والوفاء. ويقابل كل ذلك الاختيان والغدر. فإذا كان الله يقول لنا : لا تخونوا الله والرسول، فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة، بل خاطب رسولاً اصطفاه من خلقه وأيده بمعجزة. وكل بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول.

﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

فلا تخن الله فيما جاء فى القرآن، وجاء من الرسول المفوَّض من الله بأن يشرع. وتشريع الرسول واتباعه جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلله أمانة فيما نص عليها قرآناً، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول بأن يشرع، فإن أطعت هذا الرسول، فقد أطعت الله.

وعرفنا أن الاختيان هو الانتقاص، ومعنى الانتقاص هو الوقوف بعيداً عن الكمال والإتمام المطلوب. والإنسان حين آمن يصبح للإيمان فى النفس أمانة. فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألا تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من اتباع منهج الله تعالى. وهذه هى أمانة الشهادة، أما أمانة الرسالة فهى الحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة.

إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان فى أنه لا إله إلا الله، وإياك أن تعتقد فى أن أحدا يمكنه أن يتصرف فيك، أو يملك لك ضراً أو نفعاً، أو أن مصالحك ممكن أن تقضى بعيداً عن الله، فكل شىء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله، وإياك أن تفهم أن حكماً يجىء لك عن غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول.

والقمة فى الأمانة هى إيمان بالله، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة، وأمانتها هي أداؤها من غير نقص في شيء سواء كان عاماً أو خاصاً، ولو في الحديث يجرى أمامك، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شيء، مثل أمانة أي مجلس توجد فيه، فلا يحق لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

وتعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم، فوشى واش بهمام بن عبدالله السلولي إلى زياد، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن، لكن الله ألهم همّاماً كلمة ظلت دستوراً يطبق، وحين استدعى زياد هماماً، قال زياد: بلغني أنك هجوتني. قال همام: كلا أصلحك الله. ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل. فقال: إن هذا الرجل - وأخرج الرجل من الخباء - أخبرني. فنظر همام إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال: أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت - رجعت - من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم، أي إما أنك خائن أو آثم، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسي فأنت خائن، وإن كنت اختلقتها عليّ فأنت كاذب، فأعجب زياد هذا المنطق، وأقصى الواشي ولم يتقبل منه. ويقال إنه خلع على همام الصلة والعطايا. فكان همام حين يرى الواشي يقول له: هل لك في وشاية أخرى تغنيني ؟!!

وفي سيرته صلى الله عليه وسلم وقائع حدثت في تاريخه حتى من بعض الصحابة، وعلى سبيل المثال: نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جعل عهداً بينه وبين اليهود، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد، فلما خالفوا هم العهد؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم، فأدبهم، وكان أول ذلك في بني النضير وأوضح لهم أنه لن يقتلهم، بل سيكتفي بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام. ثم حدثت خيانة من بني قريظة، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن. فبعثوا

إلى رسول الله من يقول : يا رسول الله إن بنى قريظة يريدون أن تصنع بهم ما صنعته مع بنى النضير، أى أن بنى قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ، وكان يحب بنى قريظة وبينه وبينهم صلة، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة، وهذه كُنْيته، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر، وكان ماله فى يد اليهود يتاجرون له فيه، أى أن بينه وبينهم صلةً مالية.

ذهب أبو لبابة إلى اليهود، فاستَشاروه في الأمر متسائلين : أنرضى بحكم سعد بن معاذ ؟ فماذا قال أبو لبابة ؟ قال : إنه الذبح، وأشار إلى حلقومه، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماى حتى تيقنت أنى خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن انظروا إلى الإيمان، ويقين الإيمان، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا، والنظر إلى أن افتضاح الإنسان فى الدنيا أمر هين بالنسبة لافتضاحه فى الآخرة .

ذهب إلى سارية المسجد - أى عمود فى وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده ، وظل لا يَطْعَم ولا يَشْرَب سبعة أيام، حتى خارت قواه وغشي عليه وسقط، فعطف الله عليه، وأبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه. فقالوا له : حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذى ربطت نفسك، فقال : والله لا أحلها حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية.

لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه ؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه قال لليهود إنه الذبح.

وهناك صحابي آخر هو حاطب بن أبي بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستر مقدمه حتى تفاجأ قريش، وتكون المفاجأة سبباً في عدم تولد اللدد وليتم الصلح. لذلك كتم الأمر، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمه الله أن حاطبا قد أرسل إلى قريش يخبرها. فانتدب علياً ومعه صحابيان وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدّده لهم في الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة، فقال لها الإمام عليّ: أخرجي ما معك، فقالت: ليس معي شيء. فمسك عليّ بن أبي طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذي تخبيء فيه أشياءها، فوجد رسالة تحذير لقريش، وعاد عليّ - كرّم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطبا: ما حملك على هذا يا حاطب؟

قال: والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرك في شيء، وأن الله ناصرك.. ناصرك، ولكني أردت أن أتخذ لي يداً عند قريش، لأنني رجل ضعيف ولا مال لي ولا أهل.

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول. ولكنْ عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذي آمنت به يعتبر خيانة للأمانة.

﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

أي لا تخونوا الله والرسول في المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون، أي ألا يخون أحدكم قومه عن عمد، ويؤخذ من هذا القول ثبوت

المغفرة في حالة الخطأ والنسيان، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم، وله فضل عظيم، لا يأخذك بالسهو، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم، ولو لم يكن متديناً، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو : أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك ؟. وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة. فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تقبله، فعليك ألا تفعله، لأنه مناف لهذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، وعلى سبيل المثال : إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضي أن يسرق، والمعتدي على العرض، لو تخيل أن هناك من يعتدي على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة في النفس. وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك. أتحب أن يخونك أحد في حديث أو في أمانة ؟ لا ؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر، بل من طرفك أنت.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى : « وأنتم تعلمون » أي متعمدون، غير ناسين أو ساهين، أو جاء الأمر كفلتة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون، ففي ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهى عن ذلك فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

ونلحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضاً جماعة، وأنت حين تُفصِّل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أنَّ على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم. فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن العلاقة واضحة ؛ لأن خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع فى النفس ، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك ، ومثال ذلك : أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك ، وقد لايكفى دخلك لمطالبهم ، فهل يعنى ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها واحد عندك ؟ لا .

هل يعنى ذلك أن تخون فى البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما ؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنياً ؟. لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ؛ المال والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تذم ولا تمدح إلا بنتيجتها ؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت فى الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب فى ذلك الاختبار المبين فى تلك الآية الكريمة.

والمتتبعون لأسرار الأداء القرآنى يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟. ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه. وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد. ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجىء الزوج يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتى الحق بالأموال أولاً ثم يأتى بذكر الأولاد.

وأساليب القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع بألوان مختلفة ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة آل عمران »

وفي هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين. ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة. وعلينا أن نتنبه أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطير المقنطرة، وهي تأتي بعد تحقيق الشهوة الأولى؛ وهي النساء، والزينة الثانية وهي الأبناء، وتعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع في المزيد من المال، فإن كانت الوحدة من القناطير المقنطرة هي القنطار، فمعنى ذلك أن الإنسان الذي يملك قنطاراً إنما يطمع في الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه في أن يزيد ما يملكه ويصل إلى مليون جنيه، وهكذا. إذن فالقناطير المقنطرة تعني الرغبة في المبالغة في الغنى.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« من الآية ٢٨ سورة الأنفال »

ويقول في آية ثانية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

« من الآية ١٤ سورة التغابن »

وفى هذا القول نجد أن العداوة تأتى من الأزواج قبل الأولاد، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء، وهذا كلام منطقى؛ لأن الذى يتكلم هو رب حكيم.

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾.

وفى هذا القول تحذير واضح : إياكم أن ترسبوا فى هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائن للأمانة، وهذا له عقاب، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى فى آخر هذه الآية بما يحبب إلينا النجاح فى الاختبار فيقول سبحانه :

﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾.

ونعلم أن النفس البشرية مولعة بحكم تكوينها الفطرى من الله بحب النفع لنفسها، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع؛ وعمر هذا النفع؛ لأن الذى يسرق إنما يريد أن ينفع نفسه بجهد غيره، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن ينفع نفسه ليبارك الله له فى المال وأن يعطيه الرزق الحلال. وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجاباً أم سلباً.

والمثال الذى أضربه دائماً لذلك هو الطالب الذى يهمل فى دروسه، ويوقظه أهله كل صباح بصعوبة، ثم يخرج من المنزل ليتسكع فى الشوارع، والطالب الثانى الذى استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وانكب على دروسه، إنَّ كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه، الفاشل أراد النفع الأحمق، والناجح أراد النفع فى المستقبل. ونعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس. والمهم هو قيمة النفع، وعمر النفع. فإذا كانت الخيانة ستؤدى لك نفعاً فى أولادك أو أموالك؛ فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل، وضع هذه فى كفة، وضع تلك فى الكفة الأخرى، وانظر أى كفة ترجح، ولابد أن ترجح كفة الأجر عند الله عز وجل.

ولذلك قال المتنبى :

أرى كلنا يبغى الحياةَ لنفسه

حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا

فحُبُّ الجبانِ النفسَ أوْرَده التقى

وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوْرَده الحَرْبا

فكلنا نحب الحياة؛ الجبان الخائف من الحرب يحب الحياة، والشجاع الذى يحب نفسه ويعلم قيمتها عند خالقها يخوض الحرب رغبة فى حياة الاستشهاد، وهى حياة عند الله إلى أن تقوم الساعة، ثم تتلوها حياة الجنة حيث يخلد فيها أبداً.

إذن فالمعيار الذى نقيس به النفع هو محل الاختلاف.

وفى عرف البشر نجد أن الأجر يساوى قيمة العمل، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط، بل هو عظيم بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان، ثم يضع شرطاً هو: « إن تتقوا الله »، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاناً، ويكفر عنا السيئات، ويغفر لنا وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم.

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاما بالأحكام ؛ وقمة الالتزام بالأحكام هى الإيمان بالله عز وجل، وإذا وجد الاثنان ؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام، لابد أن يتحقق وعد الله المتمثل فى قوله تعالى :

﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

والفرقان من مادة « فرق » « الفاء والراء والقاف »، وتأتى دائماً للفصل بين شيئين ؛ مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْق كالطود العظيم . وسبحانه و تعالى يقول :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة البقرة)

أى نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير .

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوباً من قماش مُتَساوٍ فى النسيج واللون، ثم شققت من الثوب جزءاً منه ؛ هنا لا يقال إنك فرقتَ بين القطعتين، بل فصلت بينهما، لكن لا يقال فرْق إلا إذا كان الفصل يؤدى إلى فرقتين ؛ فرقة هنا، وفرقة هناك وهذه لها أشياء ومتعلقات، وتلك لها أشياء ومتعلقات.

إذن فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط، بل هو فصل يؤدى إلى أن يكون لكل فرقة منهج، ومذهب، ورأى.

و « يجعل لكم فرقانا » أى يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق ؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة، لكن لأنهما مختلفان لذلك لابد من وجود تناقض بينهما. وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقاناً، مثال ذلك، هناك من يهتدى، وهناك من يضل. وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال. فالله شرح صدر المهتدى للإسلام، وجعل صدر

الكافر ضيقاً حرجاً ؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر ، وخديعة ؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلىء صدره بالضغينة ، فالمؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل ؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة ، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر ؛ لأنهم كلهم خلفاء لله فى الأرض ، وكلهم مخلوقون لله ، وكلهم متمتعون بخيرات الله ؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاندة.

والتفرق - كما نعلم - إنما ينشأ عن اشتباك ؛ بين فريقين اثنين ، واحد منهما يمثل فريق الهدى ، والثاني هو من حق عليه عذاب الله.

﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويتمثل الفرقان فى هدى القلب ، والبصيرة والعلم ؛ وأى شىء يفصل بين الحق والباطل ، وأحوال الإنسان - كما نعلم - قسمان : أحوال الدنيا ، وأحوال الآخرة ، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستترة ، وفيها أمور ظاهرة ، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسة ، ومنها القلبى الذى لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب. والفرقان فى أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى ، ومن ضل ؛ ونجد أن المهتدى قد شرح ربنا صدره للإسلام. ونجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدى يعيش ضمن الفريق الذى لا غل فيه ولا حقد ، والضال هو من يعيش فى فريق يتصف

بالغل والحقد، هذا في الأمور القلبية. أما في الأعمال الظاهرة، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالنصر، والغلبة، والعزة.

وماذا عن الفرقان في الآخرة؟.

إن الحق يجعل الفرقان في الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم، ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير.

﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وإذا كنا سنتقي الله فهل سيكون لنا سيئات؟.

وأقول: إن أردت بقوله: «إن تتقوا الله» إيماناً به، فسبحانه يُكَفِّر عنكم سيئاتكم؛ صغائرها وكبائرها. ولا يضر مع الإيمان معصية، بل تدخل في عفو الله وغفرانه.

وإن أردت بالتقوى «التزام أمر» فتكفير السيئات يعني أن نتقي الله بترك الكبائر ليكفر عنا السيئات وهي الصغائر. والتكفير على نوعين؛ أولا أن يسترها عليك في الدنيا، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة، ولذلك يقول سبحانه في ختام جميل للآية:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم، فمعنى ذلك أنَّ هناك فَضْلاً أقل من عظيم، كما أن هناك فَضْلاً يعلوه تميزاً. نعم، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر؛ هذا يتفضل على هذا بطعام، أو يتفضل عليه بِمَلْبَس، أو يتفضل عليه

بشراب، أو يتفضل عليه بسكن، أي أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل، لكنها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلتعلم أن وراءه من أحضر الخبز من المخبز، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن، ووراءه من زرع وحصد.

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله عز وجل، وهذا هو الفضل العظيم. وأيضاً نجد أن الذي يتفضل على واحد لابد أنه يبغي من وراء هذا الفضل شيئاً، مثل كمال الذات، وأنه يود الحمد والثناء، ويبغي راحة نفس إنسانية، ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم، لا لأنهم يطبقون منهج الله، بل يرغبون في مجرد راحة النفس، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس، فهم يفعلونها وليس في بالهم الله، بل في بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن فالذي يتفضل إنما يريد شيئاً، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مناظر الإيلام التي يراها، وهذا دليل على أنه يعاني من نقص ما ويريد أن يكمله. فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل، أَلله نقص في كمال؟!! لا. إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة في كمال أو ثناء، وأيضاً فكل فضل من دون الله يتضمن المنّ؛ لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذلة لأحد. وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئا من إنسان آخر. لكن من الذي يستنكف على فضل الله؟ . لا أحد. لأنّ الحياة كلها هبة منه، ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التي قالت لمعن بن زائدة :

فَعُـــدْ إنَّ الكريم له معـــاد

وظنّي بابن أروى أن يعـــودا

وكانت الفتاة تطالب ابن زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم، فنهرها أبوها، فقالت له : يا أبي إن الملوك لا يُستَحَى من الطلب منهم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنتبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك في الحياة ومظاهر استبقاء حياتك، ومظاهر نعيمك كلها، إن نسبتها فستصل إلى الله، فإن كنت تشترى - على سبيل المثال - أثاثاً لبيتك، واخترت خَشَب الورد ليكون هو الخشب الذى يصنع لك منه النجار هذا الأثاث، فأنت تأتى بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً؛ لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب، وكل شيء في حياتك إن سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهي عند خلق لله وهبه للإنسان، وهذا هو الفضل العظيم من الله تبارك وتعالى.

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخونوا الله، ولا تخونوا الرسول، ولا تخونوا أماناتكم، من أجل أولادكم أو أزواجكم، واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى، واذكروا واقع الدنيا معكم، أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق ؟ لقد صدقت كلها، كما قال الحق سبحانه وتعالى من قبل :

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين، فماذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟. هنا يقول المولى سبحانه :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر فى جانب النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يقل له: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا ؛ لكنه فى جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال: واذكروا إذ أنتم قليل، فما السبب ؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الغاشية)

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان فى حياة المؤمنين؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم. لذلك جاء هنا بالظرف فقط.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا كله شرط وحيثية لقوله تعالى: ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

والمكر هو التَّبْيِيت بشىء خفىّ يضرّ بالخَصْم. والذى يمكر ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه، لا يملك قدرة على المواجهة، فيبيت من ورائه، ولو كانت عنده

قدرة على المواجهة فلن يمكر ؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

وما دام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربي يقول :

وضعيفة فإذا أصابتْ فرصة

قتلتْ كذلك قُدْرة الضُّعفاء

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية ؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه . أمَّا القوى فهو يثق في نفسه وقدراته ولذلك يعطى خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

أي يدبرون الكيد والتبييت لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد يقدرون على المكر لمن هم في مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت في حفظه ورعايته .

إذن فلست وحدك لأنك تأوي إلى الله ، ويكشف الله لك كل مكرهم ، وهذا المكر والتبييت مكشوف ومفضوح من الله ؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

والمكر منهم له وسائل وغايات ، هم يمكرون ليثبتوك ، ويمكرون ليقتلوك ، ويمكرون ليخرجوك . وكل لقطة من الثلاثة لها سبب . فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه ؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حدّاً لهذه المسألة ، فاجتمعوا في دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليهم أعرابي فوجدهم يتشاورون ؛ وقالوا لنثبته ، والتثبيت ضد الحركة ، وقوله : «ليثبتوك» أي ليقيدوا حركتك في الدعوة ؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم . ولولا الرسالة ، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله ، فقد كنت في نظرهم الصادق والأمين ، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى في الأرض ، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم .

والتقييد إما أن يكون بأن تمنع المتحرك عن الحركة ، وإمّا أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته . إذن فالتثبيت يكون بالقيد أو السجن ، وقيل لهم : إن هذا رأي غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم ، أو يحتالون ليفكوا عنه القيد أو السجن ، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا ، وقال آخر : نخرجه من بلادنا ، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً ، وقالوا : إنه إن خرج ، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً ، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا ، وأشار الأعرابي بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كبار قريش قالوا : نخاف من

قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا فتى جلداً قوياً ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو في فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه في القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهي هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا مكر وتبييت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقاً وصدقاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقول الحق : « آياتنا » يعني آيات القرآن ؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التي تلفت إلى وجود المكوِّن الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإمّا أن تكون الآيات بمعنى المعجزات :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾

(من الآية ٢٠٣ سورة الأعراف)

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التي هي قسط من القرآن وهو المنهج .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

ونفهم من التلاوة أن المقصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

وقولهم : « لو نشاء » هذا يدل على أنهم لم يقولوا؛ لأن « لو » حرف امتناع لامتناع ، مثلما تقول : لو جئتنى لأكرمتك ، فامتنع الإكرام منى لامتناع المجيء منك ، فهذا يعنى امتناع لامتناع ، ومثلما يقول قائل : لو عندى مال لاشتريت قصراً ، ولأنه لا يملك مالاً ، فهو لم يشتر القصر - إذن هم لم يشاءوا ولم يقولوا؛ لذلك كان كلامهم مجرد « تهويش » وتهديد لا محل له . فلم يحصل منهم هذا ولا ذاك .

إذن ثبت الإعجاز . لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدرون أن يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا ، تحداهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً فى الإعجاز .

لقد تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدى حفز المُتَحدَّى أن يُجند كل ما يقوى عليه ليرد التحدى . فإن لم تتجمع لهم المواهب التى تكفل قبول التحدى انسحبوا ؛ لكن واحداً منهم اسمه « النضر بن الحارث » ذهب لفارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات ، وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن له هدف ولا يحمل منهجاً ولا توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب لمعنى ، ولم يوجد فى قوله أى معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا قولهم ، وسبق أن اعترفوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا تفجير الأرض بينبوع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وطلبوا أن تسقط السماء كما زعم عليهم كسفا ، وطلبوا أن يأتي بالله والملائكة قبيلا ، وطلبوا أن يكون له بيت من زخرف ، وطلبوا أن يرقى في السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبته القرآن الكريم ، فهل ما قالوه يعد قرآنا ؟ لا ، ولنلتفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل هذه الطلبات إنسان واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاغة القرآن الكريم جمعت كل الأساليب فأدتها بتوضيح دقيق وبإعجاز بالغ ، ولذلك لنا أن نلتفت أننا ساعة نسمع نقلا لكلام الغير من القرآن ، فعلينا ألا نأخذه على أن هذا الكلام الذي قيل هو معان قيلت ، وجاء القرآن الكريم بها بأسلوب الله .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إذا جئت لابنك وقلت له : يا بني اذهب إلى عمك فلان وقل له : إن أبي يدعوك غداً مساءً لتناول العشاء معه ؛ لأن عنده ضيوفاً ويحرص على أن تشاهدهم ويشاهدوك وتقوى من مكانته. وحين ذهب الولد لعمه ، هل قال له نفس الكلام ؟ طبعا لا ؛ لأن الأب قد يكون متعلماً ، ولا يستطيع الابن أن يقول ذات الكلمات. أو قد يكون الأب أمياً ، والابن مثقفا ناضجا فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة.

إذن فأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فاعلم أن هذا أداء الله لمطلوبات المتكلم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والأساطير جمع أسطورة ، أي الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

و « إذ » تأتي للظرف أيضاً ، ولم يقل سبحانه وتعالى : واذكر أن قالوا ، بل قال : « إذ قالوا » . وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا إن كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة ، أو ائتنا بعذاب أليم.

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه ؟ بالله لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ، أكانوا يقولون ذلك ؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، أو فاجعلنا نقبله ؟ . وماداموا قد قالوا : « اللهم » فالمنادى هو الله .

﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

إذن هم يعلمون أن لله عز وجل عندية ، وفيها حق ، وهكذا نرى أنهم اعترفوا بوجود الله ، وأنَّ عند الإله حقًا . فكيف إن جاء إنسان وقال لكم : إننى رسول من عند الله ، وهذا هو المنهج ، وهو منهج ومعجزة فى وقت واحد ، ألم يكن من الواجب أن تستشرف آذانكم إلى من يبلغ عن الله هذا الحق وأن تستجيبوا له ؟ . لكن ماداموا قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب ، فهذا دليل كراهيتهم لمحمد ، ومن أجل هذه الكراهية دعوا الله أن ينزل عليهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة - وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم علموا أن من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله . وهكذا يتبين لنا أن ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً ، ويتمثل هذا فى قول الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

(سورة الزخرف)

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر ؛ لآمنوا به . وفى هذا اعتراف بأن القرآن معجزة ، ومنهج . وقوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ورد على لسان

أبي جهل وهذا يدل على كثرة جهله وشدة تكذيبه وعناده وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين . فعن أنس بن مالك : قال أبو جهل بن هشام :

« اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فنزلت : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »[1]

وهؤلاء المعاندون قالوا أيضا :

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾

(من الآية ٩٢ سورة الإسراء)

وهذا دليل على التخبط في الكلام ، وفقدان الوعي العقلي.

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً بعينهم وقادر على نجاة المؤمنين ، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب ؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان عدواً ، فيه إيلام - لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾

لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسل ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج الرسول والمؤمنين به ، مثال ذلك أمره نوحاً عليه السلام بأن يصنع السفينة ؛ لينجو من الطوفان. وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شيء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

من هذا ، وعلى ذلك يخرج الرسول أولا ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول سبحانه وتعالى موضحا فضل اللجوء إلى الله بالاستغفار :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهم إن استغفروا الله فمعنى ذلك أنهم امنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول ليدلهم على المنقذ الذى يخلص الإنسان منهم من جريمة الكفر ، وفى ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحضّهم على أن يستغفروا حتى لا ينزل بهم العذاب. ويرسم لهم وسيلة النجاة.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وتسمى اللام فى « ليعذبهم » بـ« لام الجحود » ، نجحد أن يعذبهم الله وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فوجود الرسول فيما بينهم أمر له تقدير خاص ، أما هم فالحق تبارك وتعالى يقول بشأنهم :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهكذا نرى الحقائق الإيمانية ، فالنفس المؤمنة الصافية حين يكون لها عدو ، ثم تحل بالعدو مصيبة ، لا تأتى أبداً كلمة الشماتة على بال المؤمن ، هذا هو الخلق الإيمانىّ الذى قد يؤلمه مظهر الضعف والمهانة للعدو ، فيضنّ الله على أن يعذب قوماً وفيهم من يستغفر ، وكأنه يوضّح لنا : هب مسيئنا لمحسننا ، أى أن يدارى المحسن على المسىء. ولذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية صُدَّ عن البيت الحرام ، وهذا الصد تسبب فى أنهم يعقدون معه معاهدة هى صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ، ومنهم من قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟. والقائل لذلك هو عمر

ابن الخطاب - رضى الله عنه - ، وفى التفاوض ، جاء على بن أبى طالب ليكتب المعاهدة وفى بدئها « هذا ما صالح عليه رسول الله » فاعترض المفاوض عن معسكر الشرك قائلاً : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حاربناك ، بل اكتب : « هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله » ، فامتنع علىّ عن الكتابة ، وقال : لا أكتبها إلا رسول الله. فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها كما يقولون لينهى الموقف ، وليعطى معجزة ، فينظر لعلى وهو مغتبط به ، فيقول له :

« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » ويتحقق ذلك بعد حياة النبى ، وخلافة أبى بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، ثم تجيء الخلافة لعلى وحدث فيها ما حدث . ويتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد »[1]

أى سيقفون منك موقفاً مثل هذا وسوف تقبله ، ولما جاء الخلاف بين معاويه وجنوده ، وبين على وجنوده ، أرادوا أن يوقعوا معاهدة فيما بينهم ليمنعوا النزاع بين المسلمين ، فقال على - كرم الله وجهه - : هذا ما تعاهد وتعاقد عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فقال المفاوض عن معاوية : لو كنت أميرا للمؤمنين أكنّا نحاربك ؟ ، فتذكّر على كرم الله وجهه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية : « اكتب فإن لك مثلها ..... إلخ » .

ومعنى ذلك أن السياسة تقتضى ألا تتجمد كمن يكون فى قالب حديدى ، بل تفترض السياسة فيمن يعمل بها شيئاً من الليونة وبعد النظر لتنتهى المواقف الصعبة ؛ لأن كل طرف لو أصرّ على موقفه لما وقعت المعاهدة ، وكانت معاهدة صلح الحديبية مطلوبة ومناسبة ليتفرغ المسلمون - بعد الأمن من قريش - للدعوة إلى منهج الله فى الأرض ، وهذا ما حدث خلال السنوات العشر التى تلت هذه المعاهدة ، وانتشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ، ومن بعدها إلى آفاق الأرض كلها.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح .

إذن فولىّ الأمر عليه أن يملك البصيرة التى لا تجعله جامداً ، لأنه لو تجمد لأنهى الخير الموجود فيه وفى قومه، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الجمود بصلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قالوا : لا، علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ وبعضهم قالوا متسائلين، بل وعاتبين : ألم تعدنا يا رسول الله أننا سندخل البيت الحرام؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقلت لكم هذا العام ؟.

ولم يتنبه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن تنضج القرارات السياسية لتأخذ طريقها إلى التنفيذ . وكادت الفُرقة أن تحدث بين المسلمين، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجه أم سلمة مكروباً . وقال لها : يا أم سلمة هلك المسلمون . أمرتهم فلم يمتثلوا.

ونرى موقف أم سلمة رضى الله عنها وهى الزوجة الأمينة المشيرة الناصحة، لقد قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون، لقد جاءوا وفى نيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول فرقة واشتياق، ثم حُرموا من ذلك وهم بمرأى من البيت، ولكن قم يا رسول الله فاعمد إلى ما أمرك الله به، ولا تقل لهم شيئاً، بل اذبح هديك ، وهم إذا رأوك فعلت فَعَلوا.

وبالفعل خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذبح الهدى ، وفعل المسلمون مثله . ونجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول عن الحديبية : هى الفتح فى الإسلام . وما كان فتح أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله. والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها.

وقد كان المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم، على قدر علمهم لا علم الله. وشاء الحق تبارك وتعالى أن يبين لهم السبب

في أنه لم يجعل من الحديبية أرض قتال أو التحام؛ فقال :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾

(سورة الفتح)

نعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يختفون بين الكفار، فلم يكن في مكة قبل الفتح - حيّ للمسلمين الذين يخفون إيمانهم، وحيّ للكفار، بل كان الناس يسكنون معاً، فإذا ما قامت الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى الحديبية، لقتل المسلم أخاه المسلم الذي لم يعلن إسلامه، ولو أمكن التفريق بين المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار، لعذب الله الكفار بأيدي المؤمنين عذاباً أليماً.

وهنا في هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

ويعني بذلك أن بعضهم هو الذي يستغفر فيمنع الله عز وجل العذاب عن الكل، مثلما منع تعذيب الكافرين بصلح الحديبية؛ لأن هناك مؤمنين مستخفين فيما بينهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾

وهنا نتساءل : أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله ؟ . إن تعذيبهم هو عدالة؛ لأنهم فعلوا ما يستحقون عليه التعذيب. لقد صدوا الرسول والمسلمين عن زيارة المسجد الحرام؛ لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه، رغم أن منهم من سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال ليهدم الكعبة. واستولى أبرهة الأشرم على مائة من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : إنك قد أصبت لي مائة بعير فأرجو أن تردها إليّ. فقال أبرهة الأشرم : جئت لأهدم بيتكم، وبيت آبائكم، ثم لا تكلمني فيه وتكلمني في مائة من الإبل أصبتها منك ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل، أما البيت فله رب يحميه .

وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن للبيت الحرام رباً يحميه .

وجاءت طير أبابيل ترمي أبرهة بحجارة من جهنم فجعلته هو وجيشه كعصف مأكول .

إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار سيدهم قديماً يعلمون أنّ للبيت ربّاً يحميه ، فكيف تكون لكم على البيت ولاية؟ وكان عليهم أن يعلموا أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلاّ للمتقين، ولم تكن قريش من المتقين .

و حيثيات التعذيب إذن هى صدهم عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه. لماذا؟

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنفال)

وإذا كان أكثرهم لا يعلم، فأقلهم يعلم علم اليقين حقيقة البيت الحرام، فقداسة هذا البيت التي تعلمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم:

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد جعلهم الله عز وجل فى هذا المكان ليقيموا الصلاة؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب أن يعبد فى الأرض ولو بواحد فى هذا المكان، ولتظل عبادته دائمة. ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهى بصدها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءها، وسبحانه يحقق ما يريد، فهزم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادت للكعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة لله بصفة مستمرة.

وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه فى أوقات الصلاة، فالصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين، والظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين، و العصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين، وهكذا نجد كل أجزاء النهار مشغولة بأوقات الاتجاه إلى الله، وهناك فى كل لحظة من يتجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما فى ميقاتها، ولا تخلو بقعة فى الأرض من قول: « الله أكبر »، وقد تم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة.

لكن قريشاً حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى واستحضار لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

حيث كانت صلاتهم مظهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكاء والتصدية، والمكاء هو الصفير الذى يصفرونه، والتصدية هى التصفيق، وكانت صلواتهم هى صفير يسبب صدى للآذان، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع معين، فكيف تكون الصلاة هكذا ؟ . وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا ولاية لهم عليه؛ لأن الذى يلى أمر البيت الحرام لابد أن يكون متقياً لله، لكن هؤلاء لم يكونوا أهلاً للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام والتى يجب أن يذكر فيها الله ويُعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك بعد أن نزل منهج الله الخاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ويبين المولى فى هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة، وكأن الحق يغرى الكافر بأن يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة، ومصداق الأحداث يؤكد أن كلَّ ما يجيء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك ؟ ولم يدخروا أموالهم ؛ وقد نصر الله دينه ؟.

إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء. وحين يأتي القرآن الكريم بقول الله تعالى : « فسينفقونها » أي أن الإنفاق سيكون في المستقبل، والاستقبال له مرحلتان؛ استقبال قريب ، واستقبال بعيد. فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : « فسينفقونها »، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجهرا من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضا ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذي صار من بعد ذلك خبراً يروي دليل افتقادهم لصفاء الفطرة . ؛ لذلك تجيء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التى تحدث للكفار من عذاب عظيم فى جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا فى جهنم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التى تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هى أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التى تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هى تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث فى الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس فى ليلة ؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبى بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوى إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله فى النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد فى النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوى إيمانهم لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث فى المجال الرياضى ، فحملة الأثقال – على سبيل المثال – يدخلون فى مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذى يكون مؤهلا لأن يدخل المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس فى الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون أخطراً ، ادعوا الشجاعة و الكرم والشهامة ، وادَّعوا الإيمان القوى المستعد لأى تضحية فى سبيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهى الاختبار الحقيقى لما فى القلوب . فقد يقول إنسان لصديقه : أنا ومالى لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذى يحدد – إذن – صدق الحديث عن النفس ؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوى العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى : يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث فى ناحية ، وذلك خبيث فى ناحية أخرى ، وثالث خبيث فى ناحية ثالثة ، وغيرهم فى ناحية رابعة ، وخامسة إلى ماشاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه فى النار جميعاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

و " قل " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومادام قد وجد أمر ، فلابد من وجود المبلغ للأمر ، أى أن هناك مخاطباً ومخاطَباً ، والمخاطب هنا هو الله سبحانه ، والمخاطَب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله تعالى قال له : " قل " ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما يتضمنه قول المولى سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

أى إن انتهوا عن الكفر غفرت لهم ذنوبهم التى ارتكبوها أيام كفرهم ، ونلاحظ هنا اختلافاً فى أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخاطب الكافرين كان الذى يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر لكم ؛ لأن الخطاب لابد أن ينسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب لشخص تكون هناك « لام التوجيه » ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ، وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وكان سياق الكلام يقتضى القول : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى " إن ينتهوا " ، والكلام مخاطب به الكفار ، والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة الغائب ؟

لقد أراد الله تعالى أن يأتى الخطاب ليعم كل متكلم يقال له هذا الكلام من أى مؤمن ، فكأنه قد عمم الخطاب ليقطع المعاذير . ومثل ذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

وإذا أخذنا ذات المقياس لكان الكلام يقتضى أن يقال : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه ، ولأن هذه العبارة قيلت من أكثر من كافر فى أماكن متعددة للمؤمنين ، وأراد الله سبحانه وتعالى : أن يلفتنا لذلك ، فعمم الخطاب حتى يشمل جميع الحالات ولا ينطبق على حالة واحدة فقط ، بل ينطبق على كل حالة مماثلة ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وهذا يدلنا على أنهم إن انتهوا عن مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنادهم معه فهو سبحانه وتعالى يغفر لهم ، لأن العناد والمقاومة ناشئان عن الكفر ، فإن انتهوا عنهما ، صاروا مؤمنين . والإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ولذلك عندما أعلن محارب عن إيمانه واعتنق الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم دخل المعركة فاستشهد صار شهيدا ؛ لأنه قد غُفر له بشهادة الإسلام كل ذنوبه التى حدثت منه أثناء الكفر ، وهى الذنوب التى تتعلق بحقوق الله تعالى ، أما ما يتعلق بحقوق الناس ، فعلى ورثته أن يؤدوها عنه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وقوله هنا : « وإن يعودوا » أراد به الله أن يعلمنا أن تجرى هذه الكلمة على اللسان ، فإن عادوا مرة أخرى إلى الكفر والعناد ، يطردوا من رحمة الله ومغفرته ، إذن فشرط الغفران لهم أن يستمروا فى إيمانهم وألا يعودوا للكفر مرة أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ فقدمضت سنة الأولين ﴾ .

والسنة هى الطريقة أو الكيفية أو الحالة التى يكونون عليها ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأحزاب)

أى الطريقة التى اختارها الله لمعالجة الأمور بالحق والعدل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ مضت سنة الأولين ﴾ :

أى الطريقة التى عرفتموها وعالج بها الله عز وجل أمر من عاند الرسل ووقف منهم موقف المنازعة والمعارضة . ومثل ذلك حدث للكفار فى بدر ، فكأن من يقف أمام دعوة الله ومنهجه لا بد أن يتعرض للهلاك كما حدث مع كل من قاوم الأنبياء ، فأنتم تعرفون ما صنعه الله بقوم هود وقوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون . ومر كل ذلك عليكم ، كسنة عامة تشمل كل من قاوم الأنبياء ووقف فى طريق دعوتهم إلى الله .

والخطاب هنا إما أن يكون خطاباً لهم على حالهم فى وطنهم وما حدث للمخالفين في بدر وقد رأوا مصارعهم ، وإما أن يكون الخطاب مبيناً لسنة الله تعالى وقد شاءت سنته سبحانه إبادة كل مخالف لسنته .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

وهذا أمر من الله عز وجل بالقتال، والقتال مفاعلة تحدث بين اثنين أو أكثر، أى اشتباك بين مقاتل ومقاتل. ولذلك عندما تسمع كلمة "قتال" يتبادر إلى ذهنك وجود طرفين اثنين وليس طرفاً واحدا، أو بين فريق وفريق آخر.

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وقاتلوهم ﴾ نفهم أن هذا أمر للمؤمنين ليقاتلوا الكفار، ولابد أن يكون الكفار قد فعلوا شيئا يستحق أن يُقاتلوا عليه، أو أنهم يبيتون للمؤمنين القتال وعلى المؤمنين أن يواجهوهم ويقاتلوهم. ولم يقل الله سبحانه وتعالى: اقتلوهم بل قال: ﴿ قاتلوهم ﴾؛ أى مواجهة فيها مفاعلة القتال. والتفاعل معناه أن الحدث لا يأتى من طرف واحد بل لابد من مقابل معه. فأنت تقول: "قابلت" أى أنك قابلت شخصاً، وهو قابلك أيضاً، وهذه مفاعلة. أو تقول: "شاركت" أى أنك اشتركت أنت وآخر فى عمل ما. وهنا قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

ومعنى ذلك أن هناك قتالاً يؤدى للقتال. وجاء القتال ليحسم الأمر؛ لأن ترك هؤلاء الكفار يعتدون على المسلمين، ويأخذون أموالهم بالباطل، فيرى الناس المؤمنين أذلة مستضعفين، والكفار عالين أقوياء فتحدث فتنة فى الدين، أى يفتن الناس فى دينهم وهم يرون الذل دون أى محاولة أو تحرك لدفعه.

ويريد الله سبحانه وتعالى أن تنتهي الفتنة . والفتنة هي الاختبار . وكما قلنا : إن الاختبار ليس مذموماً لذاته ، ولكنه يُذم بنتيجته . فإن رسب الطالب في الاختبار تكون نتيجة الاختبار مذمومة . وإن نجح تكون محمودة . ولقد كان كفار قريش يفتنون الناس في دينهم بتعذيبهم تعذيباً شديداً حتى تخور قواهم ويخضعوا لأحكامهم . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يضع نهاية لهذا الظلم . فأذن بقتالهم ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستوجب قتالهم .

ونجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

بينما نجد أنه قد ذكر في سورة البقرة بدون " كله " ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : ﴿ ويكون الدين لله ﴾

دون أن تذكر كلمة "كله" ولكل آية لقطة ومعنى ؛ لأن كل لفظ في القرآن له معنى ، فقوله تعالى : ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾

يعني أنه لا يجب أن يجتمع دينان في جزيرة العرب وقد حدث . وأما قوله تعالى : ﴿ الدين لله ﴾

فقد أعطتنا لقطة أخرى ، فالأولى تخص العرب والجزيرة العربية ، والثانية تعني أن الإسلام للعالم كله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصددها :

﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

وقوله تعالى : « فإن انتهوا » أي استجابوا وأطاعوا ، وقوله تعالى : « فإن الله بما يعملون بصير » أي فليحذروا أن يتم هذا خداعاً لأن الله بصير بهم ،

ومطلع عليهم ، وماداموا قد انتقلوا من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان فالله يمحو سيئاتهم ويبدلها حسنات ؛ لأن قوما عاشوا على الكفر وألفوا خصاله ثم تركوا ذلك إلى الإيمان فهذا أمر صعب يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس ، فيثيبهم الله تعالى بقدر مجاهدتهم لأنفسهم ، ويثيبهم المولى سبحانه وتعالى بسخاء .وهناك معنى ثان فى قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

أى : فيا من وقفتم موقف العداء من الإيمان ، وتعرضتم للكافرين التعرض الذى أعاد لهم التهذيب وحسن التعامل مع المؤمنين ، اعلموا أنه سبحانه وتعالى بصير بما عملتم ليكون الدين كله لله .

وهكذا نرى أن كلا من المعنيين يكمل الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠ ﴾

والله سبحانه وتعالى يرغب الناس حتى يؤمنوا ، ولكنه فى ذات الوقت يبين لهم أن كثرة عدد المؤمنين ليست هى التى تعلى راية الإسلام وتصنع النصر للإيمان ، فيقول سبحانه : ﴿ وإن تولوا ﴾ .

وهنا شبهة فى أن الله تعالى يحنن هؤلاء على أن يؤمنوا ، وأن يسلموا ، وأن يعودوا إلى حظيرة الحق ، وربما ظن ظان أن الإسلام يريد أن يقوى بهم ، ولذلك قال الحق : ﴿ وإن تولوا ﴾ أى إياكم أن يفت ذلك فى عضدكم ، أو أن يقلل هذا الأمر من همتكم وشجاعتكم ؛ لأنكم إنما تنتصرون بمدد من الله

العلى القدير ، فهم إن لم يؤمنوا ، فاعلموا أن الإسلام لا ينتصر بهم ، وانتشاره ليس بكثرة المسلمين أو قلتهم ؛ لأن النصر من عند الله ، وسبحانه ليس محتاجاً لخلقه ، وكثرة جنود الإسلام لا تصنع النصر ؛ لأن نصر الله للمسلمين إن اتبعوا منهجه يتحقق سواء قلوا أم كثروا . ولذلك يلفت نظرهم وينبههم إلى أنه إن تولى هؤلاء ولم يؤمنوا ، فإياكم أن يؤثر ذلك على شجاعتكم ؛ لأنكم لا تنتصرون بمدد من هؤلاء الذين رفضوا الإيمان ، ولكن بمدد من الله سبحانه وتعالى ، فالله هو مولاكم . وإذا كان الله مولى لكم أى ناصراً ومؤيداً فهو سبحانه وتعالى :

﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأنفال)

لماذا ؟ .

لأن المولى إذا كان غير الله فهو من الأغيار ، قد يكون اليوم قوياً قادراً على أن يأخذ بيدنا وينصرنا ، ولكنه قد يموت غداً ؛ لذلك فهو لا يصلح مولى . وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمن ينصره فلا ينفع وليا ولا معيناً لأحد . والمولى الحق الذى يجب أن تتمسك به هو الذى لا تصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهي بالموت وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً ، هذا هو المولى الذى تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أننا يجب ألا نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

أى إذا أردت فعلاً أن تتوكل ، فتوكل على من هو موجود دائما قوى دائماً ،

فتوكل على الله . وقوله تعالى : ﴿ نعم المولى ﴾ يؤكد أن الله قوى قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى : ﴿ ونعم النصير ﴾ .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يغيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يلهمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته ، ويعطيكم مددا من السماء وهذا المدد هو الذى يحقق لكم النصر .

ويتحدث الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن الغنائم فيقول :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

ما سبب ذكر الغنيمة هنا ؟ . وما المناسبة ؟ .ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن القتال . ونهاية كل معركة ينتصر فيها المسلمون يكون فيها غنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن الغنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدده للمؤمنين . وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن الغنائم لا تجيء إلا نتيجة للنصر ، فكأن الله يريد من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم ؛ بدليل أن الحديث انتقل إلى الغنائم . والغنيمة هى كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر ، والثابت أن الغنائم لم تكن تحل لأحد من الأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق :

﴿ وَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

إذن فلله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذى هو لله كيف تقسمه ؟

لقد ذكر القرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء ؛ فالآية تقول :

﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

ثم تزيد :

﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وقد قال بعض العلماء تمسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يوزع على من سماهم الله تعالى فى كتابه العزيز وهم ستة : (الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل) فتكون الأسهم ستة ، وجمهور العلماء على أنّ خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم فيكون لله وللرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة (ذى القربى - اليتامى - المساكين - ابن السبيل) لكل نوع منهم سهم .

واختلفوا أيضاً فى معنى ﴿ ولذى القربى ﴾ هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم ممن ؟

ثم بعد ذلك جاء نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل فلم يحدث خلاف فيه - والخلاصة : أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها الباقية للجيش المقاتل ؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقي فدل ذلك على أنه للغانمين ثم يقول الحق :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهم بطبيعة الحال مؤمنون بالله ، وكأن هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا اعترضوا على هذا التقسيم . فإن طمع أحد منهم في الخمس الذي هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة الأخماس المقسمة - كما قال الله تعالى - يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ، وسبحانه هو الذي أنزل هذا التقسيم . فمن زاغ وتطلعت عينه إلى شيء فليرد هذا الزيغ ؛ لأن الذي قسم هو الله الذي نصر المقاتلين . وإذا كان النصر هو الذي جاء بالغنائم ، فالذي أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمة الله .

ومثال ذلك ما أراده الله للإنسان المسلم من حسن التصرف في ماله ، فهو في حياته حر ويملك حق التصرف في هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية في البيئة التي تحيا فيها ، جعل الله لك الحق في الوصية بأن تخصص ثلث مالك لما تريد ومن تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لن يرثك ، ولكنه خدمك في حياتك أو في مرضك أو في شيخوختك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له ، اعترافاً بجميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أبنائك ، فتخصص لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع للعواطف الإيمانية الإنسانية في الناس مجالاً ،

فترك لك الحرية فى أن تتصرف في ثلث التركة ثم قسم الله سبحانه الثلثين على الورثة.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع الغنائم بالشكل الذى حدده الله عز وجل ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

والفرقان هو الشيء الذى يفرق بين الحق والباطل ؛ فرقاً واضحاً بشدة بحيث يكون ظاهراً للجميع . وقد أطلق الله الفرقان على القرآن الكريم فى سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾

(من الآيتين ٣ ، ٤ سورة آل عمران)

فحينما أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل جاءت التوراة لتفرق بين الحق والباطل ، وأيضاً جاء الإنجيل ليفرق بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تطلق كلمة " الفرقان " إلا على القرآن الكريم ؛ لأن القرآن هو الفارق النهائى الذى لن يأتى فارق من بعده ، فلن ينزل كتاب سماوى آخر .

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

الله سبحانه وتعالى يقصد هنا بيوم الفرقان يوم بدر الذى كان فرقاً بين حق وباطل ؛ فرقاً لافتا للأنظار ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق

بين الحق والباطل، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة، والمسلمون كانوا خارجين للاستيلاء على القافلة والعير ولم يكن لديهم أي عدة أو عتاد للحرب، بينما استعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة قريش لهم، وهي قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال، لا شوكة لهم، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يواجه المسلمون وهم قلة جيشاً له شوكة أي له عدة وعتاد؛ لأن المسلمين ظنوا أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتا طويلا أو جهداً كبيراً، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوي. لكن شاء الله عز وجل أن يخوض المؤمنون المعركة وهم قلة وأن ينتصروا، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انتصرت بلا عدد ولا عُدَّة على من يملكون العدد والعدة، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمانَ والكفر، وبين نصر الله وزيف الشيطان، ولو استولى المسلمون على قافلة قريش لقيل : إن أية مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تنهب هذه القافلة، ولذلك لم يعطهم الله العير، بل ابتلاهم بالنفير وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلفت النظر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد انتصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها. وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفاً، فإذا جاء النصر، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير والمسلح، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهذه المشيئة الإلهية هي التي قلبت الموازين.

وفي أول سورة البقرة يحكي الحق سبحانه وتعالى لنا قصة طالوت وجالوت، ويروي كيف طلب بنو إسرائيل من نبي لهم أن تحدد السماء شخصاً

يكون ملكاً عليهم، ليقودهم في معركة ضد طاغية اسمه جالوت؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم، فلما جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك، جادل بنو إسرائيل في قيادته لهم.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك، فلما جاء طالوت باختيار الله اعترضوا عليه. ثم خرج طالوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بنهر وهم عطاش، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن مروا على نهر وهم عطاش، وطلب منهم ألا يشربوا إلا أن يأخذ كل منهم قليلاً من الماء في كف يده ليرطب به فمه، فلما وصلوا إلى النهر، اندفعت أغلبيتهم ليعبوا ويشربوا ما شاء لهم، والأقلية فقط هي التي امتثلت لأمر الله تعالى ولم تشرب، وهؤلاء هم الذين بقوا مع طالوت وعبروا النهر، لكنهم حين رأوا جيش الأعداء، قالت أغلبيتهم ما جاء في القرآن الكريم وحكاه لنا :

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم خافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال، إلا الأقلية منهم، وهكذا حدثت لهم التصفية مرتين بالاختيار والابتلاء؛ الأولى بالصبر على العطش، والثانية بمواجهة جيش العدو، وهذه هى الأقلية الصافية التى رسخ إيمانها، وقالوا ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن هذه الفئة المؤمنة التى بقيت والتى تخشى حساب الله فى الآخرة لم تخفهم قلتهم ولا كثرة جنود جالوت، بل قالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وانتصروا بالفعل، وكان هذا فرقاناً ظاهراً من الله عز وجل .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى يوم التقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار، وتحقق نصر المؤمنين، رغم قلة العدد والعتاد. ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم :

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أن الله عز وجل قادر على أن ينصر المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

ساعة تسمع « إذ » تعرف أنها ظرف، ومعناها : اذكر هذا الوقت، اذكر إذ أنتم بالعدوة الدنيا، والعدوة شاطىء الوادى وجانبه. وهى جبل مرتفع؛ لأن الجبال إن كان بينها فضاء نسمى هذا الفضاء وادياً، فيكون الوادى هو الفضاء بين جبلين، ويكون المكان العالى الذى على يمين الوادى وعلى شماله عدوة.

وقوله تعالى :

﴿ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

توضيح وبيان لجغرافية المعركة، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة، وقوله تعالى : « دنيا » تأنيث الأدنى أى الأقرب، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة. وكان الكفار قادمين من مكة، ونزلوا فى المكان الأبعد.

فقوله تعالى :

﴿ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى فى مكان قريب، وموقع غزوة بدر – كما نعلم – قريب من المدينة، أما كفار قريش فقد جاءوا من مكة. وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سماه الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى فى المكان البعيد عن مكة، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله : ﴿ والركب أسفل منكم ﴾

والركب هو العير أى الجمال التى تحمل التجارة، وكان المسلمون قد خرجوا ليأخذوها. ولما عرف أبو سفيان بذلك غيّر سير القافلة واتجه إلى ساحل البحر، ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سلوك أبى سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر. وساحل البحر – كما هو معلوم – يكون دائماً أسفل من أى أرض يابسة. ويتّخذ سطح البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية، فيقال :هذا ارتفاعه مائة متر أو مائتا متر أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر. وساحل البحر بالنسبة لسطح البحر متساو، أما الأرض والجبال والوديان فهى تختلف فى العلو والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات، بينما سطح البحر مستطرق استطراقاً سليماً، بحيث لا توجد فى سطح الماء بقعة عالية وأخرى منخفضة.

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما فى الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة فتم اللقاء فى الموعد والمكان المحددين ليتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى، والأمر هو معركة بدر، وليلقى المؤمنون الكافرين، لينتصروا عليهم.

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وهل يعنى قول الحق ﴿ ليهلك من هلك ﴾ أن الهلاك هنا هو الموت ؟ لقد مات أيضاً بعض المؤمنين واستشهدوا. وقول الحق : ﴿ ويحيى من حىّ ﴾ وهل الحياة هنا تعني مجرد البقاء على قيد الدنيا ؟. لقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر. إذن فليس معنى الهلاك هنا الموت، وليس معنى الحياة النجاة، ولكن قول الحق : ﴿ ليهلك من هلك عن بيّنة ﴾ تنطبق على الكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا؛ لأن الهلاك هنا هلاك معنوى، فمن قتل من الكفار هلك. ومن نجا هلك أيضاً ؛ لأنه بقتاله المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة بالعذاب الذى ينتظره فى الآخرة، إلا إذا أدركته رحمة الله وآمن قبل أن يأتى أجله. والذين حيوا هم المؤمنون، والمراد - إذن - ليكفر من كفر، ويؤمن من آمن عن يقين.

ولقد قلنا من قبل : إنّ الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة، فهناك الحياة التى فيها الحركة والحس، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة. وهذه الحياة هى للمؤمن والكافر. ولكن الحياة بهذا الشكل؛ حياة منتهية إلى موت غير موقوت ننتظره فى أى لحظة. ولكن الحياة المطلوبة لله هى الحياة التى لا يأتى فيها موت، ولا يكون فيها تعب وشقاء، تلك هى الحياة الآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذى يؤمن إيماناً حقيقيا يعطيه الله تعالى حياة الخلود فى الجنة. ولذلك نستمع جميعاً إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة لأنفال)

ومنا من يتساءل : كيف يخاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم : إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة خالدة فى الجنة . ثم يختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر، فما بالسمع يسمعه، وما بالعين يراه، وما فى الصدر يعلمه، وما هو فى أى حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به؛ لأنه أحاط بكل شىء علما .

ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم، هذه هى الحواس الخمس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أن هذه الحواس هى التى تعطى الإنسان ما لم يكن قد علمه، وكلما علم شيئاً، فليقل : الحمد لله.

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصلة، يجعل الخواطر فى كل قوم مهيجة على الحرب؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد للفئتين أن يشتبكوا، ويفصل الحق فى المسألة، وهذا الاشتباك لو حدث بالمقاييس العادية ربما جَبُنَتْ الفئة القليلة عن أن تواجه الفئة الكثيرة. ولكى تتم المعركة لابد أن يكون كل من الفريقين المتحاربين واثقا من النصر؛ لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لما دخل إلى المعركة.

والله سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد النفسى للمعركة، فأرى النبى فى الرؤيا أن عدد الكفار قليل حتى يؤمن أن المؤمنين سينتصرون عليهم بسهولة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه رؤيا توضح أن عدد الكفار قليل فى أعين المؤمنين، وأخبر قومه بذلك، ولقد قلل الله عدد الكفار فى أعين المؤمنين، وقلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار، ليتم اللقاء وتحدث المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

إذن رأى المؤمنون الكفار قليلاً، ورأى الكفار المؤمنين قليلاً، ولو كثّر الله الكفار في أعين المؤمنين، أو كثّر المؤمنين في أعين الكفار ما حدثت المعركة. ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق في نظر الآخر ليبدأ القتال، ويحكي سيدنا عبدالله بن مسعود :

لقد قلت لجار لي أظنهم سبعين، فقال : لا بل مائة.

وهكذا كان عدد الكافرين قليلاً في نظر المؤمنين، وكان عدد المؤمنين بالفعل قليلاً في عيون الكافرين.

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل في ذلك بلاغاً من إعلامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رأى النبي عدد الكافرين في المنام وهم قليل، وأخبر صلى الله عليه وسلم قومه بذلك. ودار القتال الذي أراده الله تعالى :

﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنفال)

والأمر الحاسم هو التقاء الفئتين المتقاتلتين في معركة بدر ليفصل الله بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر؛ حتى ترجع الأمور إلى الله، فلكل واحد من جنود المعركة جزاءٌ من عند الله سبحانه وتعالى؛ المؤمنون لهم جزاء على قدر نياتهم وإخلاصهم في الجهاد، والكافرون عليهم غضب من الله تعالى. والغضب منازل، كل منزلة من الغضب حسب أحوال صاحبها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ نجد فيه كلمة «الأمور» وهى جمع أمر، وفى المعارك ألوان مختلفة من الأوامر؛ فلكل جندى أمر، وهناك أمر عام تنتهى إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر. ولكي يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا في المعركة؛ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة «فئة» فاعلم أن معناها جماعة اختصت بخوض المعارك في ميدان القتال، فليست مطلق جماعة، بل هي جماعة مترابطة من المقاتلين؛ لأن كل مقاتل يفىء لغيره من زملائه، أى جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا، أما المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم، ويحاول كل منهم أن يحمى زميله، إذن فكل منهم يفىء إلى الآخرين.

والحق تبارك يقول:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

إذن فالفئة هى جماعة فى الحرب.

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأنفال)

يُقصد به ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال ؛ لأن الحرب تقتضي أولاً إعداداً، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى : ﴿ إذا لقيتم ﴾ أى أن المسألة قد وصلت إلى المواجهة مع الكفار. ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فاثبتوا ﴾ والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة ، لأن الإنسان إذا ما كان ثابتاً في القتال ، فالعدو يخشاه ويهابه ، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص ، وهذا ما يُجرىء الكفار عليكم.

ومادمتم قد جئتم إلى القتال ، فلابد أن يشهد الأعداء شجاعتكم ؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم.

ولذلك لابد من التدريب على الثبات والقتال ، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب ؛ بالتدريب القوى والتخطيط الدقيق ، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكبائر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

﴿ يولهم ﴾ أى يعطيهم ، و ﴿ دبره ﴾ أى ظهره ، وهذا تقبيح لعملية الفرار ؛ لأن الدبر محل الصيانة ومحل المحافظة. ونعلم أن هناك من قال للإمام عليّ - كرم الله وجهه - : إن درعك له صدار وليس له ظهر ، أى أن الدرع يحمى

صدرك إنما وراءك لا يوجد جزء من الدرع ليحمي ظهرك. فقال : ﴿ لا كنت إن مكنت خصمي من ظهري ﴾ ، أي أنه - كرّم الله وجهه - يفضل الاستشهاد على أن يُمَكِّن خصمه من ظهره ، فلو أنَّ درعه من الأمام ومن الخلف ، ففي هذه الحالة يكون في نيته أن يمكِّن خصمه من ظهره ، ولذلك جعل الدرع يحمي الصدر فقط ، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه ، ويسمون تلك الحالة الأخرى « ظاهرة ضبط النفس » أي أنها طريق لمنع الشيء أن يحدث ولو في ساعة الشدة ؛ لأن المقاتل حين يدخل المعركة ، وهو يحمي صدره فقط فهو لا يتولى ليفر ؛ لأنه يعلم أنه لو تولى فسيكشف لهم ظهره وسيتمكن منه عدوه وسوف يُقتل.

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فاثبتوا ﴾ لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه ، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة في القتال. أما إذا كانت الفئة التي يواجهها المؤمنون كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وهنا طلب الحق الثبات ليعلم المؤمنون يقيناً ؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذي يجاهدون من أجله. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ ، أي تذكروا وأنتم تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره ، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتي بالنصر ، فإن خالق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتي بالنصر.

وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع في كونه الأسباب ، فإذا استنفدنا أسبابنا ، اتجهنا إلى خالق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خانته الأسباب ينتحر أو ينهار تماماً أو يصاب بالجنون ، ولكن المؤمن يقول : إذا خانتني الأسباب فمعي رب الأسباب وخالقها ، ويأوي إلى ركن شديد.

إن الطفل الصغير إذا اعتدى عليه أحد يقول : إن لي أباً أو أخاً سيرد عني الإيذاء ؛ لأن الأسباب لا تعطيه قدرة الرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة

الكون كله ، وقوته موجودة دائماً . ولذلك نجد قوم موسى حين وصلوا إلى شاطىء البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا خلفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾

وكانوا منطقيين فيما قالوه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم، وليس لهم من طريق للنجاة باستخدام الأسباب العادية في هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : ﴿ قال كلا ﴾ .

أي إن فرعون وجنوده لن يدركونا، ولم يفهم قوم موسى ؛ لأن البحر أمامهم وجنود فرعون وراءهم ، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بملء فيه قوله :

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

أي أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب ، وإذا بالله يأمره أن يضرب بعصاه البحر؛ فينفلق؛ وتظهر الأرض اليابسة. ويعبر بنو إسرائيل البحر، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطىء البحر بعد أن عبروا ، أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق. فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أي لا تتعجل وتضرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً فما أنجى الله به بني إسرائيل سيغرق به آل فرعون ، وبذلك أنجى وأهلك بالشيء الواحد ، وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها وكيف تعانى النفس من كرب عظيم، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال، ولذلك طلب من المؤمنين أن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم، فليذكروا هذا كثيراً ليوالى نصرهم على عدوهم؛ لأنهم إذا ما داوموا على ذكر الله تعالى فسيقوى هذا الذكر إيمانهم، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر.

وذِكْرُ الحق كلمة ﴿ كثيراً ﴾ هنا يعنى أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد سبحانه وتعالى هنا أن يكون ذكر الله كثيراً، ليوالى الله نصر المؤمن على عدوه. ومثال ذلك : أننا نجده سبحانه وتعالى حينما يستحضر الخلق المؤمنين للصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

يطلب الحق سبحانه وتعالى ذلك من المؤمنين وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات .

ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى، وينبهنا أن نداوم على ذكره فكأنه يقول : إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله، أو تعتقدوا أن ذكر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذكر الله فى كل أحداث الحياة. فإن فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين.

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به. وهكذا تكون الصلة دائمة بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

مثال ذلك ما حدث فى عام ١٩٧٣ فى معركة العاشر من رمضان، كان ذكر الله يملأ القلوب واستمد الجند من قولهم : ﴿ الله أكبر ﴾ طاقة هائلة واجهوا بها العدو، واقتحموا خط « بارليف »، وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده، وأوجد فى نفس كل منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل فى تنفيذ ما أمر به فى المنهج، وطاعة الرسول هى طاعة تطبيقية فى السلوك، وهى طاعة لله أيضاً ؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه، ولابد للطائع أن يبتعد عن التنازع مع إخوته المؤمنين ؛ لأن التنازع هو تعاند القوى، أى توجد قوة تعاند قوة أخرى، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض، فالتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة. فكونوا يداً واحدة؛ لأنكم إن تنازعتم فستضيع قوتكم

وتقابلون الفشل، أى لن تحققوا شيئاً مما تريدون؛ لأنكم أهدرتم قوتكم فى التنازع، ولم تعد لكم قوة تحققون بها ما تريدون وستذهب ريحكم فى هذه الحالة. والفشل هو إخفاق الإنسان دون المهمة التى كان يرجوها من نفسه.

وانظروا إلى عبارة الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذى حيزه الفضاء على سطح الأرض، إذن فمكان الهواء هو أى مكان خال على سطح الأرض. ولذلك نجد العمود المكون من الأسمنت والحديد مثلاً، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فراغ، أما الفواصل التى بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً. ونعلم أن مقومات الحياة طعام وشراب وهواء، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة؛ لأنك لا تستطيع أن تصبر على الهواء مقدار شهيق وزفير.

إذن فالهواء هو المقوم الأول لحياتك وحياة كل من فى هذا الكون، ومادام الهواء محيطاً بالشىء بحيث يتساوى الضغط من جميع نواحيه يكون الشىء ثابتاً، فإذا فرّغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتحطيم هذا الشىء. وفى التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلى على النار، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود فى الجزء الفارغ من الصفيحة ليملأ البخار هذا الفراغ، ثم يغلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً؛ فيتكثف البخار، ويقل حجمه، ويصبح جزء من الصفيحة خالياً من الهواء، فتنهار جدران الصفيحة إلى الداخل بسبب ضغط الهواء خارج الجدران، وتفريغ الهواء داخل الصفيحة. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعذب قوماً أو ينزل بهم عقاباً، فهو يرسل عليهم ريحاً. ويقول جل وعلا :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ ﴾

(الآيتان سورة الحاقة)

وكذلك نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾

(من الآيتين ٢٤ ، ٢٥ سورة الأحقاف)

وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التى تغرق بأمواجها العالية :

﴿ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

إذن فكلمة ريح تعبر عن القوة المدمرة للهواء؛ لأن الريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة، ولكن إن قابلتها ريح ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين، ولذلك حين يستخدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير. أما إن تكلم عنها للخير فسبحانه يأتى بكلمة « رياح »؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة. فإذا أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الفرقان)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

أى أن الريح تنقل اللقاح بين النبات، فيتم التلقيح وتنبت الثمار ويأتى الخير. ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة «ريح» وكانت تحمل الخير فى قوله تعالى :

﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة ﴿ ريح ﴾ فى هذه الآية وصفها بأنها ﴿ طيبة ﴾ . وهنا فى الآية يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

و «ريحكم» أى قوتكم؛ لأن الريح هنا معناها القوة التى تدمر عدوكم. ونعلم أن السفن فى الماضى كانت تُبحر بقوة الريح. وعندما تقدَّم العلم وجاء البخار والكهرباء أُلغى شراع المراكب واستخدم بدلاً منه ماكينات تدفع حركة السفينة.

وتطلق كلمة ﴿ الريح ﴾ على الرائحة، فيقال : ﴿ ريح عطرة ﴾، وهذه الرائحة تبقى فى المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة، ولكل إنسان منا رائحة خاصة، تماماً كما أنّ لكل إنسان بصمة خاصة، ولكننا لا نستطيع أن نميزها، ولكن الكلاب المدربة تميز الرائحة الخاصة بالإنسان، فيأتى الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتتبعه إلى المكان الذى ذهب إليه. أو يستطيع أن

يخرجه من بين عشرات الأشخاص. ولا تختلط رائحة أحد بأحد رغم وجودهم فى مكان واحد، وإلا لما استطاع الكلب المدرب أن يميز رائحة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعنى بأن تنتهوا ولا يكون لكم أثر ؛ لأنه مادام لكم أثر فى الأرض فلكم ريح تميزكم. وتلك التى - كما قلنا - أن الكلاب المدربة تميزها، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فلا رائحة له. ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلم عن قصة يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته فى الجب. وعثرت عليه قافلة، ثم اشتراه ملك مصر، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عزيز مصر. وجاءه إخوته وأعطاهم يوسف عليه السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب؛ ليرتد بصيراً، بعد أن أذهب الحزن بصره، يقول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كان يعيش سيدنا يعقوب :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

أى أن القافلة حين خرجت من بين المبانى التى يمكن أن تكتم الريح بقوة كتلتها ؛ لأن المبانى لها إشعاعات قد تكتم الريح وتحجبه ، وبعد أن صارت القافلة فى الخلاء عرف يعقوب عليه السلام ريح ابنه يوسف من القميص الذى يحملونه : ﴿ قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

وهذه تتمة الصورة التي يريدنا الله أن نلتفت إليها، فقد أمرهم الله أن يثبتوا في القتال، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد؛ خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديد البأس.

إذن ففي المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات في القتال وعدم الفرار، وذكر الله كثيراً، وعدم التنازع حتى لا تضيع قوة المؤمنين، ويوصيهم سبحانه بالصبر؛ لأن عدوهم قد يكون عنده صبر وجلد، فلابد أن يمتلك المؤمن رصيداً من الجلد والصبر؛ يُمكّنه من هزيمة عدوه، وصفة الصبر تدل على المنافسة. وهي مأخوذة عندما كانوا يغطسون في الماء، فالذي يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول. ولذلك فسيدنا عباس وسيدنا عمر - رضي الله عنهما - دخلا في منافسة في الغطس، وقال له: نافسني، أي لنرى من الذي سيمكث تحت الماء أكثر - ويكون ﴿ صابرا ﴾ أي يتحمل أكثر في المواقف الصعبة ويصبر صبراً فوق صبر الخصوم. وقوله الحق عز وجل هنا:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

يثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذي انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه، فلا تخور نفسه؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوى؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال، تماماً كالولد الصغير، إذا مشى في الشارع وحده قد يعتدى عليه الأولاد الآخرون، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد، فما بالك بالإنسان الذي هو مع ربه؟ لذلك يوصى الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه في معية ربه وأن أي حدث ضار في الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه.

ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة:

(يابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه.. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ؟ قال يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى)[1]

فإذا مرض إنسان فقد سُلبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ، بل يرقد فى فراشه ليتألم ، ويوضح لنا الحق سبحانه وتعالى : أنا إن سلبت منه العافية ، وهى نعمة فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة مادام المنعم معك. والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه.

وحين يكون المسلم فى معيّة الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجىء أبداً ، والمثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. هذا كلام منطقى مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطمئن أبا بكر وينفى عنه ما جاء فى باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المفروض أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر اطمئن ، إنهم لن ينظروا داخل الغار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفى ذلك قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن

(١) رواه الإمام مسلم (الترغيب والترهيب جـ ٤ صـ ٣١٧) .

فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما [1]

ومادام الله ثالثهما تكون المعيّة موجودة ، وإذا كنت فى معيّة من لا تدركه الأبصار ، أتدركك الأبصار ؟. طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم. اللهم اجعلنا فى معيّتك دائماً.

ثم يكمل الحق سبحانه وتعالى ما يريد ألا يكون عليه المؤمنون فى ساعات الشدة فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة ولم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها ، وهم قد خرجوا من مكة ليخلصوا القافلة من أيدى المسلمين ، فلما قيل لهم إنّ القافلة نجت بقيادة أبى سفيان فارجعوا. قالوا : لا يكفينا هذا ، بل لابد أن نخرج ونقاتل محمداً ومن معه ، وننتصر عليهم وندق الطبول ونذبح الذبائح ليعلم أهل الجزيرة بخبر هزيمة محمد ومن معه فلا يجرؤ أحد أن يتعرض لقافلة من قوافلنا.

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم ، بل أرادوا أكثر مما يقتضى الموقف ، أرادوا أن يخرجوا فى مظاهرة ضلالية للمفاخرة والتكبر تُثبت أن لهم قوة.

---

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهي الأمر. وكان عليهم أن يرجعوا، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها.

إذن فالمسألة شماتة، وهذا لون من البطر؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها، وتحب أن تعلو عليها. ويقال فلان بطران إذا أحضروا له الإفطار من الفول مثلاً ويقول: إنه يريد المربى والزبد وعسل النحل. وهكذا فعل كفار قريش، فلم يكتفوا بنجاة القافلة، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ورئاء الناس﴾

أي يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا؛ السمعة بين الناس، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس في الجزيرة العربية.

وقوله تعالى:

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا، وهم يرقصون ويغنون لانتصارهم، ويرون المسلمين وهم مختفون خائفون من مواجهة الكفار، فسوف يغري ذلك الناس باتباع منهج الكفر، فكأن الكفار برغبتهم في قتال رسول الله وصحبه إنما يصدون عن سبيل الله. ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليوضح: لا تحسبوا أنهم بعيدون عن علمي.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

أي أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يغيب عنه عمل واحد مما يفعلونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفلتوا منه .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى دور الشيطان وأعوانه وما يفعله بالكافرين ؛ فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه الكفار وهم قليل وذلك من صنع الله تعالى لتتم المعركة ، ويدأ الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ويمتدحها ، ويغريهم : أنتم كثيرون ولا أحد مثلكم في فنون القتال وستحصلون على النصر في لمح البصر. لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يثبت المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار وهم قليل. والواقع أنهم قليل ؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل. ويحاول الشيطان أن يزين للكفار قتال المؤمنين ، أي يجعله محبباً إلى نفوسهم وأنهم سيحققون النصر ، ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة. وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال المسلمين في صورة محببة إلى قلوبهم. وهنا نرى بوضوح غباء الشيطان وعجزه

عن أن يعلم قضاء الله ، فلو علم ما ستنتهي إليه معركة بدر ما زين للكفار دخول المعركة ؛ لأن المعركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش ، وعلت صورة المؤمنين في الجزيرة العربية كلها. ولم يكن النصر هو ما يريده الشيطان ، ولكنه لجهله زين للكافرين المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أن وسوسة الشيطان للكفار كانت فى صورة تضخيم قوتهم وأن أحداً لن يغلبهم فى قتالهم ببدر ، وأنه - أى الشيطان - سيناصرهم فى المعركة ويجيرهم إن حدث لهم سوء ، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار ؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس له سلطان إلا التزيين فقط ، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل ؟. إن الشيطان يأتى فى الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجيرهم من عذاب الله تعالى ؛ لأنه هو الذى أغواهم وزين لهم سوء أعمالهم وجرهم إلى طريق النار ، فيتبرأ منهم ويقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أنه يقول للكافرين : أنا لم أجبركم على المعاصى ، فلم يكن لى عليكم سلطان القهر ؛ لأقهركم على أن تفعلوا شيئاً ولا سلطان الحجة لأقنعكم بأن

تفعلوا المعاصى، ولكنى بمجرد أن دعوتكم استجبتم لى ؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم . وقوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

وأصرخ فلاناً أى سمع صراخه فذهب إليه لينقذه، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتى لنجدته. والذى يسمع الصراخ إما أن يكون ضعيفاً فلا يستجيب؛ لأنه لا يستطيع أن ينقذ ذلك الذى يواجه الخطر، وإما أن يكون قوياً فيذهب لنجدته، فيقال: ﴿ أصرخه ﴾ أى أنقذه وأزال سبب صراخه، وقوله تعالى حاكيا ما يقوله الشيطان ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

أى أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب وينقذهم منه، فيزيل سبب صراخهم : ﴿وما أنتم بمصرخى ﴾

أى أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عنى.

وقد أخذ الشيطان يزين لهم أعمالهم ويعدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويؤازرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العين.

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أنه بمجرد التراءى بين المؤمنين والكفار، وقبل أن يلتحموا فى المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرأ من الكفار وجرى بعيداً، وهذا ما يشرحه الله تعالى فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهذا كلام منطقي مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم؛ فقال له الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ ﴾ (سورة ص)

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ ﴾ (سورة الأعراف)

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء أمام قوة الله، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض، هرب الشيطان وفزع ونكص على عقبيه، وأعلن خوفه من الله؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب.

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذي سيصيبه حتماً، ولم يفزع الشيطان - إذن - حباً لله تعالى .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٩ ﴾

« المنافق » كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش فى الجبال فى سراديب ، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه ، فهو يسرع إلى جحره الذى يشبه السرداب ، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له ، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية ، فينجو من الافتراس ، فكأنه فتح لنفسه نفقاً ، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به. ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه ؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به ، وبينما المؤمن منسجم النفس ؛ ينطق لسانه بما فى قلبه ، والكافر أيضا كذلك منسجم ينطق لسانه بما فى قلبه من الكفر ، ولكن المنافق متخبط مع نفسه ، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر ، وهكذا تتعاند ملكات المنافق ، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية ، وحسبك من المنافق أنه متعاند فى الملكات.

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالذاتية ضائعة ؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً ، ولكن الذى تتعاند ملكاته يعيش دائما فى قلق نفسى وحيرة. ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه ، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها ، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث ، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها ، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار ، ويقول الله تعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة فى أنفسهم ، وتملؤهم عزة الإيمان ، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد ؛ لأنهم يكرهون المؤمنين ؛ ولا يتمنون لهم خيراً ، فهم فى نفاقهم كفار ، فى قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون : أصاب هؤلاء الغرور بدينهم. ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً ؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك ؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوى العزيز ، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر ، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه. والمؤمنون ينسبون كل شىء لله تبارك وتعالى ؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التى لاتعد ولا تحصى ، ومادامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله ، فإن الله يزيده منها ؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها ، والمغرور يستعلى بأى خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذى لا يستعلى أبداً بها ؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له ، وأن الفضل لله تعالى ، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والشدة هنا ليست غروراً ، ولكنها طبع وملكة ، ولو كانت غروراً لبقيت كما هى ؛ ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً ، ولا يمكن أن يجعله إيمانه فى قالب جامد ؛ لأن الإيمان يعطى المؤمنين مرونة أمام الأحداث ، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه ، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة فى التعامل مع المؤمنين ، ولا هو رحيم على إطلاقه ؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة فى مواجهة الكفار.

وكان سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله ؛ وقلبه ملىء بالرحمة على المؤمنين. ولكن عندما جاءت

حرب الردة لما نعى الزكاة ماذا حدث ؟. جلس هو وعمر بن الخطاب ، والمعروف عن عمر أنه كان شديدا ، وجلسا يتشاوران ، وكان رأى عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة ؛ لأنهم قالوا : لا إله إلا الله ، فقال له أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ».

هذا هو أبو بكر الذى عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن فى قوة وشدة فى الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة. ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها ، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين ؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن فى مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة ، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين ، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين ، وعزيز حين تكون العزة للدين ، وذليل حين تكون الذلة للدين. إذن فقول المنافقين : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ لا يستند إلى حكم صحيح ، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم ، لماذا ؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائما وينسبون كل الفضل لله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

ومادام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

ومادام الله حكيماً فهو يعطى الحكمة للمؤمنين ، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى ، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب ، فلا تترك الأسباب أبداً ، بل خذ بها دائما مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب . فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين :

﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وأمرنا سبحانه وتعالى : بالسعى فقال عز وجل :

﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب ؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدى المؤمنين ، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا فى سبيل الرزق.

وأنت حين تتواكل تنقل صفة إلى صفة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ، والعمل تقوم به الجوارح ، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح ؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله ، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقى للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلابد من العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل ، ولابد لنا أن ننتبه إلى المنافقين هم هؤلاء الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم ، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما فى صدورهم ، أما الذين فى قلوبهم مرض فهم ضعيفو الإيمان ؛ مسلمون ساعة الرخاء ؛ فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك

فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى ؛ المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكتهم متضاربة ؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة على المدينة، وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك ، وبمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تنتهي منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة ، وقد أوجد ذلك في نفسه حقداً وغيظاً . ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان والدخول في الإسلام ؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة ؛ لذلك نطقوا الشهادتين بألسنتهم وبقى في قلوبهم حقد وضغينة على الإسلام ، فالواحد منهم تتجاذبه ناحيتان متعارضتان.

والذين في قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام ، وقد دخلوا إلى الدين ليأخذوا وهم لا يعطون ، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها ، وإذا أصابتهم شدة هربوا. ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا في مكة. ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أن يهاجروا إلى المدينة ؛ خوفاً من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا في مكة ، ومرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة ؛ لأن المرض لا يعدم الحياة ، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان ، ولما جاءت عملية القتال في غزوة بدر تشاوروا : أيذهبون مع الكفار أو لا يذهبون؟ ومع أي من الفريقين يقاتلون ؟. وقالوا : نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى كنا معهم ، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضممنا إليهم.

ومن هؤلاء قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصي ابن منبه بن الحجاج والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة . وتجمع هؤلاء مع بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر ، مؤمنا كان أو كافرا. وهم أخذوا هذا الموقف ؛ لأن صحة الإيمان في قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا.

وما قاله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يدل على الرغبة فى انتفاء الضرر، مع أن هؤلاء فى المدينة وهؤلاء فى مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً. ولذلك اتحدت العبارة. وقال هؤلاء وهؤلاء : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين فى قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان، فبعضهم - كما علمنا - من مكة وبعضهم من المدينة. إذن فلابد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً، أى أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة. ولذلك كان الواجب أن ينتبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم.

وما معنى : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

غررت فلاناً أى زينت له الأمر تزييناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له، وقوبت استعداده لكى يقوم به، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة. فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقى بالتقسيط، كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذى كان ينوى القيام به.

ولكن ما وجه الغرور فى الدين ؟ .

إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل. فأقبلوا على الحرب بالرؤيا التى أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل، وبوعد الله لهم بالنصر، أو غرهم بأن أوضح لهم أنّ الذى يموت مقتولاً فى هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة، وقد جعل ذلك القوى منهم والضعيف يقاتلان بقوة ؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة. وهكذا - فى رأى المنافقين - اغتر المؤمنون بدينهم.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

هذا هو الرد عليهم في أن المؤمنين لم يغرهم دينهم، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه، وسبحانه عزيز لا يغلب، وحكيم يضع الهزيمة في موضعها والنصر في موضعه.

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم.

ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً ؟ . لا، إنهم لم يجرءوا أن يعلنوها بل قالوها سرّاً في أنفسهم، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث في نفوسهم، وكانت هذه لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور في نفوسهم؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح، خصوصاً إذا انتبهوا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ففي هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين في كل معركة يخوضونها، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة، وكلٌ من الأمرين خير. وكشف الحق ما يدور في صدور المنافقين، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين بألا يؤثر فيهم كلام المنافقين؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ﴾

والذي يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر والملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث في أبشع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا منا يتخيل أمراً عجيباً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفظيعاً لما سوف يحدث.

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت.

و ﴿يتوفى﴾ أي لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفي وهو قبض الأرواح يجيء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :
﴿ وهو الذي يتوفاكم ﴾ ومرة يأتي منسوباً لرسل من الله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ ومرة يأتي منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾

وبذلك يكون التوفي قد أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ونقول : لا تعارض في هذه الأقوال ؛ لأن الأمر في كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جنوده وهم كثيرون.

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقي المباشر من الله وهو عزرائيل ، ويُنسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات.

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهى اللحظة التى لا يكذب الإنسان فيها على نفسه؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه فى الدنيا، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول : سأشفى غداً، ويعطى لنفسه الأمل فى الحياة، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول : سوف أغتنى؛ لأن الإنسان دائما يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفرَّ له من لقاء الله، ولذلك تجد أن الذى ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده : أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوى وما ظلمته فيه، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله. فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن. وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره.

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر، وقال : إننى سأجيركم إذا دارت عليكم الدائرة، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار، وهذا هو موقف الشيطان دائماً، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذى فى قلبه؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم، وهو الذى أوجب عليه العذاب الذى سيلاقيه. ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أى أنه أقسم بجلال الله وعزته . ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقه جميعاً لايحتاج لأحد منهم، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد، ولو آمن به الناس جميعاً

ما زاد ذلك في ملكه شيئاً. ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً. وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها. وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى مادام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه ؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار ،ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان ، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟ . لا ، ولذلك فهناك استثناء :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الشيطان الذي جاء على لسانه في الآية الكريمة :

﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

إذن فمادام إبليس يخاف الله ، ومادام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذي أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى ؟. خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب ، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية. ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى.

ونقول : إنه في ساعة الكبر نسي إبليس كل شيء !!

فأنت في حين يأخذك الكبر تتعالى ولو في مواقع الشدة ، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد ، ولكن يختفي كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر.

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر فى نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ. ونجد إنساناً قد يتخذ فى لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله. وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الإسراء)

إذن ففى لحظة الكبر نسى إبليس كل شىء، واندفع فى معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

وفى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

نجد أنه قد حذف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيعا، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار فى المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟. كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه، فإذا أدار وجهه ليتقى الضرب، يضربونه على ظهره، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة؛ فالمقبل عليهم

من المؤمنين يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه.

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين. ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة. أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة. ويقال : إن الملائكة معهم مقامع من حديد. أي قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم. ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جدا ولكن هذا الضرب رغم قسوته، والشرر الذى يخرج منه لا ينجيهم فى الآخرة من عذاب الحريق.

ولذلك أقبل صحابى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله.. لقد رأيت فى ظهر أبى جهل مثل شراك النعل. أى علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك ضرب الملائكة، وجاء صحابى آخر وقال: يا رسول الله.. لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفى، وقبل أن يصل سيفى إلى رقبته رأيت رأسه قد طار من فوق جسده. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبقك إليه الملك. وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

أى أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخذَ وعُذِّب ربما تحمل العذاب بجلد ، ولكنّه إذا ضُرِب أمام الناس كان ذلك أشدّ إهانة له ، فإذا كان الضرب من الذى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر.

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد فى الأرض.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاولها بيده ، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه ؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد ؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل. فسبحانه لم يفتئت عليهم.

و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذى ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

أى أن العذاب الذى يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين : ما قدمت أيديهم أى بما كسبت من الآثام والمعاصى ، وعدل الله سبحانه وتعالى .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات فى القرآن الكريم ، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون : إنَّه جاء فى القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد . فهل هذا يعنى أن الله - معاذ الله - ظالم ؟. ونقول : لا ، فسبحانه ينفى الظلم عن نفسه على إطلاقه. والإنسان حين يظلم فهو ظالم ، فإذا اشتد ظلمه وتعدد ، يقال : « ظلاَّم ». إذن فهذه صيغة مبالغة فى الظلم ، مثلما تقول : فلان « آكل » وفلان « أكَّل » أى كثير الأكل مبالغة فى تناول الطعام. وتقول : فلان « ناجر » أى أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً. ولكنك إذا قلت : « نجَّار » كانت هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه فى صنعته ، كذلك « خائط » و « خيَّاط » ، ونقول : فلان « جازر » أى يستطيع أن يذبح ، فإذا قلت : « جزَّار » أى عمله هو أن يذبح بإتقان.

إذن « فعَّال » صيغة مبالغة فى الفعل. وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفى. فأنت حين تقول : فلان « أكّال » أثبت له صفة المبالغة فى الأكل - أى كثرة الأكل ، ومن باب أولى صفة الأكل مطلقاً ، ومادمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، فإذا قلت : إن فلاناً « خياط » أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه « تجَّار » أثبت له أنه تاجر متقن للتجارة ، أما من ناحية النفى فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكّالاً تنفى المبالغة ولكنها لا تنفى أنه يأكل ، فإذا قلت : إن فلاناً ليس تجاراً نفيت عنه إتقانه للتجارة ولكنك لا تنفى عنه أنه قد يكون تاجراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علاّمة فقد يكون عالماً. وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفى الأعلى لا تنفى الأدنى . وعندما تقول: إن فلاناً ليس ظلاَّماً ، تكون قد نفيت الأعلى. ولكن لا يلزم نفى الأدنى فقد يكون ظالماً فقط وليس ظلاَّما. إذن فكلمة « ليس ظلّاماً » نفت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم. وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففى آية مثلاً يقول : ﴿ ليس بظلاَّم ﴾ فنفى الأعلى ولا يلزم من نفى الأعلى نفى الأدنى. ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النساء)

فنفى الأدنى والأعلى. وهذا فى رأيهم تضارب. نقول: هل إذا نفى الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى ؟ طبعاً لا ، إن نفى الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

نفى مبدأ الظلم، وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

نفى مبدأ المبالغة ، والقرآن يكمل بعضه بعضاً ، فإذا قيل : إن الله نفى الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول : إن نفى الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى ، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى ، إذن فلا هو بظلاَّم ولا هو بظالم. ولابد أن نلتفت إلى الإعجاز القرآنى فى الأسلوب ، فالمتكلم هو الله. نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس بظلاَّم للعبد أم ليس بظلاَّم للعبيد؟ لقد قال الحق : ﴿ليس بظلاَّم للعبيد﴾ وهى هنا صيغة مبالغة ، والمبالغة مرة تكون فى قوة الحدث وإن لم يتكرر ، ومرة تكون فى المبالغة فى تكرار الحدث ، والإنسان حين يظلم ظلماً بيّناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظلاَّم ؛ لأنه بالغ فى الظلم ، فإذا لم يبالغ فى الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاَّماً نظراً لتعدد المظلومين.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ ؛ ولم يقل : ليس بظلاَّم للعبد ، وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة. نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادى ، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقيل : ظلاَّم. وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة ، إذن فهو ليس بظلاَّم للعبيد ؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد. ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه ؛ لأن الله ليس بظلاَّم للعبيد.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر في الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

و ﴿ الدأب ﴾ هو العادة التي تتكرر مع الإنسان ويقال: دؤوب على كذا؛ أي يفعله باستمرار. ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم: دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد، أي عادتهم معك، كدأب آل فرعون مع رسولهم، أي أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ والذين من قبلهم ﴾

أي قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم، ما الذي حدث لهؤلاء ؟ ؛ هلاك أو استئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف. إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه، ويقفون موقف الأذى منه، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام، وقوم لوط مع لوط عليه السلام، وكذلك الذين من قبلهم، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

فهل تركهم الله ؟ . لا . ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

فمنهم من أغرقوا، ومنهم من أصابتهم الصاعقة ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومادام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت. فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل ، وقد حدثت سوابق مشابهة في الكون وقضايا واقعية. فآل فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة في عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح في السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم في صخور الجبال ، ويقول الحق عن حضارة ثمود :

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وكل الحضارات القديمة قد زالت في غالبيتها ولا أثر لها ، وإن وجد أثر ، فهو أثر قليل وبسيط لا يحمل كل سمات الحضارة ، إلا آثار الفراعنة ؛ حيث تحوي مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهي باقية ، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شيء حتى الآن. لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التي يأتي إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم في التصميم الهندسي ، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات ، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار ،

بل تم ذلك بتفريغ الهواء. فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين ضخمين؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولايستطيع أحد أن يزحزحه، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسي باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهي حضارة راقية جداً. هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التي لا يعرف أحد سرها حتى الآن، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل. وكذلك إن نظرت إلى الألوان التي طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هي رغم كل ذلك الزمن الطويل، وإلى الحبوب التي حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أي تلف، بل وصالحة للطعام، هذه الحضارة التي احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن، لابد أن تكون حضارة قوية وعالية، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثارا.

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيرا وملكوا زمام الدنيا في عصرهم ؟ لابد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم، قد دكتهم. ولماذا أتى الله بآل فرعون في هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحضارات التي كانت قبلهم إجمالاً؟ ، فقال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورَغَّبَ فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التي لم تستطع أن تحمي نفسها، وذلك الفرعون الذي ادعى أنه إله ولم يستطع أن يضمن لنفسه البقاء. وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً، ثم يروا أن الله عز وجل قد

أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً، وأن الألوهية لله وحده، وأن كل شيء هالك إلا الله؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخبر الحضارات الأخرى إجمالاً؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود. وكلهم: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات: الآيات الكونية التي تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وكذلك المعجزات التي يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، ثم آيات القرآن الكريم التي هي محكم منهج الله في الأرض.

وقول الحق: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق، والأصل في الكفر هو الستر، وكفر يعني ستر. ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوي: كافر؛ لأنه يحضر الحب ويستره بالتراب، ويسمون الليل لغويا: كافر؛ لأنه يستر الأشياء. والشاعر يقول:

لي فيك أجـــر مجـــاهد

إن صـــح أن اللـــيل كافر

ومعنى « كفروا » أي ستروا وجود الله تعالى، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل أن يستروه بالكفر؛ لأن الإيمان أصل في وجود الخلق، والخلق قد وجدوا على الإيمان، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان. إذن فكلمة

الكفر التى معناها الستر دليل من أدلة الإيمان ، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟ ، فإذا قال لك أحد : إنه كفر - والعياذ بالله - تقول : الكفر هو الستر ؛ فماذا سترت ؟ لابد أنك سترت ما هو موجود ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

أى كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون ، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة ، ولم يصدقوا آيات الكتاب التى أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى :

وقوله تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم :

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

والأخذ فى قوله تعالى : ﴿ فأخذهم ﴾ كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد فى الأرض. والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفرّ منه ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة القمر)

أى أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فرارا أو هروبا.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى أن الله أقوى من كل ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم. ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكنْ لكلٍ جزاؤه على قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله ، فمهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

هذا القول لا يدخل فى الجبرية التى يقول عنها الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له

إيــاك إيــاك أن تبتل بالمــاء

ويخطىء من يظن أن الله قد كتب جبراً على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به فى نار جهنم ، لا ؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر. وعلى هذا تفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى بسبب ذنوبهم ، ومادام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحيثية لذلك فيقول تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة في الأرض، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنساني. وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما، ولو ساروا على المنهج الذى علمه آدم لهذه الذرية، لصارت البشرية إلى سعادة. ولكن الذرية تغيرت، وجحدوا النعمة وأنكروا أنَّ للنعمة خالقاً، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ماداموا قد تغيروا؟ لا . بل لابد - إذن - أن يغير الله نعمه عليهم، وإلا لما أصبح هناك أى منطق للدين؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم. بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة. وظل الإنسان فترة طويلة فى طفولة الحياة يرتع فى نعم الله، فقبل أن يعرف الزراعة؛ وجد الثمار التى يأكلها. وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذى يشربه، وعلمه الله كيف يعيش. وذلل له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم، وكل هذه النعم وغيرها كان لابد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم.

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة فى الأرض ؟ طبعاً لا ، ومادام الإنسان قد غير، لابد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر، ومن شكر النعمة إلى جحودها، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته؛ لأعاد لهم الله نعم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة.

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها، فيقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وطبقاً لهذا القانون الإلهي نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لابد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى. ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذي يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هي قيمة المنهج ؟.

إذن لابد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً في أعماقك وليس أمراً ظاهريا فقط، فلا تدَّع الإصلاح وأنت تفسد، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابي الغني؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي نعمه الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمَّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون

باتباع المنهج الإلهى.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضى الله عز وجل فيغير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أى أن حالتهم الأولى أنهم كانوا فى نعمة ومتسجمين مع منهج الله، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة، أى أن هناك تغييرين أساسيين، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجهرهم، ولذلك إذا غيروا، سمع الله سبحانه وعلم؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر فى النفوس، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان فى أقصى الأرض.

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤ ﴾

يتساءل البعض: لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها

مع الآية الأولى ؟. نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله﴾ وفي الآية الثانية يقول فيها :

﴿ كَذَّبُوا بِئَايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التي أنزلت إليهم ، وفي هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أي لم يصونوا النعم التي أعطاها الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكاليفه ومنهجه عطاء ألوهية ، وهم في الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أي كفروا بالله . وفي الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أي بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عَدم وأمَدّ من عُدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته . والله يساوي في عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصي والطائع ، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر .

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

أي لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجي المؤمنين ويغرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التي بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذي لم نصل إلى كل أسراره حتى الآن . ولا يمكن أن تنتهي مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها . فكأن الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر

للبشرية أن تكتشف آثار آل فرعون، وآثارهم لافتة للعالم أجمع، ووضع فى قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهى الله سبحانه وتعالى، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالألوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله، وكفروا بنعمة الربوبية التى أعطاها الله لهم، والتى يذكر الله جزءا منها فى قوله الكريم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقتير، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : ﴿جنات وعيون﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التى تحفظ لهم كرامتهم؛ وتجعلهم أسياد الأرض فى عصرهم، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم، ولا أن يعتدى عليهم، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التى تحفظ لهم الكرامة فى قوله تعالى :

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ ﴾

(سورة الدخان)

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة فى كل شىء، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ نجد فيها الذهب والكنوز، وقد دفنت مع موتاهم، ونجد فيها الحضارة والقوة فى المعارك التى صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان. وترى فيها النعمة الهائلة التى كان يعيش فيها فرعون

وقومه، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخالق واهب النعم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ الدواب ﴾ جمع دابة، والدابة هي كل ما يدب على وجه الأرض، فإذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلاً في هذا التعريف، ولكن العرف اللغوى حدد الدابة بذوات الأربع، أى الحيوانات. وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشى على أربع، فلا يدخل في هذا التعريف.
وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأنفال)

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه خلق الدواب وباقى أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها فى الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛ والشىء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبداً، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

نجد أن الغراب الذى لا اختيار له، ولا عقل؛ علم الإنسان الذى له عقل

واختيار. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة. إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحيوان مقهور على التكاليف. ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة؛ تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل، ولكن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل يكفر ويعصى. رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار.

ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجبول عليه ويؤدى مهمته كما رسمت له تماماً، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليذبحوه فلا تنفعل؛ لأن هذه مهمتها فى الحياة أن تعطى للإنسان اللحم. والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرخ الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه؛ ليؤدى مهمته؛ لأنه محكوم بالغريزة. والغرائز لا تخطىء. ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له.

فإذا جئنا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشعر بالجوع، فهذه غريزة. وإذا عطش طلب الماء دون أن يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب. وكل واحد منا فى الغرائز متساو مع الآخر. ونجد الغنى والفقير والحاكم والغفير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء. فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير.

ومن العجيب - مثلاً - أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائيا ينظر إليه، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر. ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائيا لا يقدر على عبوره، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر. أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه :

سأجمع كل قوتي وأقفز قفزة هائلة، وإن لم يكن قياسه صحيحاً، يسقط في الماء، ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه. إذن فالمحكوم بالغريزة هو الأوعى.

وعندما نأتي إلى الأكل، تجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً؛ لأنه يأكل فإذا شبع لا يذوق شيئاً. ولو جئت له بأشهى الأطعمة. فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحداً، أو حفنة تبن، أو حبة فول بعد أن يشبع، وتجده يدوس على ما زاد عن حاجته بقدميه. وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه، ثم قالوا له مثلا: أنت نسيت الفاكهة، أو نسيت الحلوى، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان؛ فيتلف معدته ويتلف جسده. ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان؛ لأنه يسرف في أشياء كثيرة، بل تجد أن الأمراض التي تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر؛ لأن الدابة تؤدي مهمتها في الحياة تماماً. بينما لا يؤدي الكافر مهمته في الأرض، بل يفسد فيها ويسفك الدماء، وبذلك يكون شرا من الدابة. ولقد قلنا: إن الدابة تحملك من مكان إلى مكان ولا تشكو، وتحمل أثقالك ولا تتبرم، وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض، لقد خُلقت لهذه المهمة وهي تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر؛ لأنها محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه. ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع في حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً.

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان في حياته منهج ربه الذي أنزله إليه، لكن من البشر من كفر وأخذ يعربد في الكون، وبذلك يكون شراً من الدابة؛

لأن الكافر لا يستخدم عقله فى أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كون قد أعد إعداداً دقيقاً ؛ شمس تضىء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليطل قمر يضىء بالليل يؤنسه فى الظلام ؛ ونجوم تهديه الطريق فى البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الزرع. وحيوان مسخر له يعطيه اللبن واللحم ويحمل أثقاله. كان لابد - إذن - للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذى خلق له كل هذه النعم ؟ لأن هذه هى من أولى مهمات العقل الذى يفكر ، ويدلنا على الخالق. وكان لابد فى هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذى صنع له كل هذه النعم وسخرها له لابد أنه يريد به خيراً. ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه ؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له ؛ لأنه جاء من خالقه.

وفى هذه الحالة كان لابد لأمور الكون أن تستقيم. ولكن بعضاً من بنى الإنسان ستروا وجود الله وكفروا به ولذلك يوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شرّ من الدواب ، لأنهم لا يؤمنون.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ ﴾

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينتقل هنا للكلام عن الجماعة التى عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم ، وألا يتعرض لهم الرسول ، وهم اليهود ، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد ؟ لا . بل نقضوا العهد.

بنو قريظة - مثلا - عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحدا، ولما جاءت موقعة بدر مدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً، وعندما جاءت غزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التى يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف فى ظهره، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنفال)

وهم قد فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا منهج الله وخافوا من رسول الله فحاولوا أن يخدعوه بنقض المعاهدات. وقوله تعالى : ﴿وهم لا يتقون﴾

إنهم لا يتقون الله - عز وجل - الذى يؤمنون به إلها ؛ لأنهم أهل كتاب؛ جاءتهم التوراة، وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام، وهم ليسوا جماعة لم يأتها كتاب بل نزل عليهم كتاب سماوى هو التوراة، ومع ذلك لا يتبعون ما فى كتابهم ولا يتقون الله تعالى، فهم أولاً ينقضون العهد، والنقض ضد الإبرام، والإبرام هو أن تقوى الشيء تماماً كما تبرم الخيط أى تقويه، وعندما تقوى الخيط فأنت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً. فالخيط الذى طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا، فإذا فككته أي نقضته أصبح ضعيفاً، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة النحل)

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى الحكم فى هؤلاء؛ أولئك الذين لا يؤمنون،

ولا يتقون وينقضون عهدهم؛ فيأتي فيهم القول الحق :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى إن وجدتهم فى أى حرب فشرد بهم من خلفهم .

ولنا أن نلحظ أن كلمة « إما » هي إن الشرطية المدغمة في « ما » إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول: « إنْ مَا » ، وأدغمت نون « إن » في «ما»، مثلها مثل أن نقول: إن جاءك زيد فأكرمه؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى. ولكن «ما» مع إن الشرطية تدلنا على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به، كما نقول: كلما جاءك زيد فأكرمه؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية، مثل « كلما » فكلما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة، ولو لم تجيء « ما » لكان يكفي أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى: « تثقفنهم في الحرب »، ثقف بمعنى وجد، أى كلما وجدتهم في الحرب: فشرد بهم من خلفهم، أى اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم. وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم، ويبتعدون عنكم، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع، وكما يقول المثل العامي: «اضرب المربوط يخاف السايب». أى أن المطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة، حتى لا يفكر في مساندتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم في القتال، ولا تحدثهم أنفسهم في أن يستمروا في المعركة، فشرد بهم، والتشريد هو التشتيت والتفريق والإبعاد ولكن بقسوة. فحيثما يريدوا أن يذهبوا؛ امنعهم وشتتهم على غير مرادهم. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لعلهم يذكرون﴾

أى لكى تكون هذه التجربة درساً لهم؛ كيلا يفكروا مرة أخرى في حرب

معك؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم فيبتعدون عن مواجهتك.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝٥٨ ﴾

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله : « وإما » ومثلها مثل « فإما » في الآية السابقة وقد تم التوضيح فيها، وهنا يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب، بل يدبرون لخيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونقول: هل هذه الخيانة مقطوع بها ؟ أو أنت أخذت بالشبهات ؟. الله سبحانه وتعالى هنا يفرق بعدالته في خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة غير المقطوع بها، فالخيانة المقطوع بها لها حكم، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أي بلغك أنهم سيخونونك، ماذا تفعل فيهم ؟ .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أي أنه مادام هناك عهد والعهد ملك لطرفين، هذا عاهد وذاك عاهد، فإياك أن تأخذهم على غرة، بل انبذ إليهم، والنبذ هو الطرح والإبعاد، أي عليك أن تلغي العهد الذي بينك وبينهم، وتنهيه، وتبعده بكراهية. فساعة تخاف الخيانة

أبعدهم ، ولكن لا تحاربهم قبل أن تعلِمَهُم أنك قد ألغيت العهد بسبب واضح معلوم.

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة - كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية - وكان الصلح يقضي ألا تهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش ، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وضربوهم ، أي أن قريشاً خانت العهد ، ونقضت الميثاق الذي كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بمعاونتها بني بكر في الاعتداء على خزاعة حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فماذا فعل الناجون من خزاعة ؟. أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعي يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وقال : إن قريشاً أخلفتك الوعد ونقضت ميثاقك ، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سراً ، بل أبلغ قريشاً بما حدث. وأنه طرح العهد الذي تم في صلح الحديبية بينه وبين قريش.

وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث. رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله.

إذن فإن وجدت من القوم الذين عاهدتهم بوادر خيانة فانبذ العهد ، أما إن تأكدت أنهم خانوك فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب ، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه في غزوة الخندق ونقضوا العهد والميثاق.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

فكأن الله تعالى برىء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم برىء، والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام جاء ليعدل الموازين فى الأرض؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة للناس جميعاً. ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

تلاحظ أن الآية لم تقل : بين المؤمنين . ، ولكن قالت: ﴿ بين الناس ﴾؛ حتى لا تكون هناك تفرقة فى العدل بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوق لله، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعد له مكانه فى هذا العالم؛ لذلك لابد أن تراعى العدل معه فى كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله. وقد كان هذا السلوك العادل الذى أمر به الله سبباً فى دخول عدد كبير فى الإسلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

أى لا تناصر - يامحمد - الخائنين حتى وإن كانوا من أتباعك. وقد نزلت هذه الآية عندما سُرق درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار، وحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من بيت يقال لهم: بنو أبيرق. فجاء صاحب الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعى، فلما علم السارق بما حدث، وضع الدرع فى جوال دقيق وأسرع وألقاه فى بيت رجل يهودى اسمه زيد بن السمين. وقال لعشيرته: إنى وضعت الدرع فى منزل اليهودى زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله إن صاحبنا برىء . والذى سرق الدرع هو فلان

اليهودي. وذهب الصحابة فوجدوا الدرع في جوال دقيق في بيت اليهودي. ولكن اليهودي أنكر أنه سرق الدرع وقال: لقد أتى به طعمة بن أبيرق ولم يلحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن بالجوال ثقباً صغيراً ، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض، وذلك من غفلته؛ لأن الله لابد أن يترك دليلاً للحق يهتدي به القاضي حتى لا يضيع الحق؛ فتتبع المسلمون علامة الدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أبيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم. ولكنه اتهم اليهودي كذباً بالسرقة. وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن حكمت لليهودي على المسلم يكون المسلمون في خسة ودناءة وحرج، وإذا بالوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه من تعدى خواطره في هذه المسألة:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أي لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعا عن أي واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً. وهكذا كان عدل الإسلام في أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهوديا، ألا يرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين الإسلامي دين العدالة والإنصاف ليكونوا في أحضانه؟!

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى قل لهم إنى ألغيت هذا العهد الذى بينى وبينكم وأصبحت فى حل منه .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾

يبين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسوبين للإسلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار فى حرب ، قُتل فريق من الكفار ، وأسر فريق آخر منهم ، وفر فريق ثالث ، وأما الذين قتلوا والذين أسروا فقد أخذوا جزاءهم ، والذين فروا نجوا من القتل ومن الأسر ، فكأنهم سبقوا فلم يلحق بهم المسلمون الذين أرادوا أن يقتلوهم أو يأسروهم . والسبق أن يوجد شيء يريد أن يلحق بشيء أمامه فيسبقه ؛ ولا يستطيع اللحاق به . فكأن الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا بهم لقتلوهم أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التى يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هى أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبقوا ، ولم تلحقهم أيدى المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوف يأتيهم العذاب فى وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما فى معركة ثانية .

وعادة نجد أن كلاً من السابق والمسبوق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثانى ليلحق به. ولذلك عندما تراهما فقد تتعجب من القوة التى يجرى كل

متهما بها، وهذه هى الطبيعة الإنسانية، فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة وقدرة. وساعة الأحداث المفاجئة تكون له أى للإنسان ملكات أخرى. فإذا غرقت سفينة فى البحر مثلاً وتعلق واحد من ركابها بقطعة خشب من حطام السفينة، تجده يسبح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب. فإذا وصل إلى الشاطىء خارت قواه.

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلى هى الغدة الكظرية، إذا وقع فى مأزق مفاجىء تفرز مادة «الادرينالين» وهذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التى يحتاجها الجسم، ولذلك تجد الإنسان الذى يصارع الموج فى البحر تمده هذه الغدة بالوقود، فإذا وصل إلى الشاطىء توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب.

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجرى وراء غزال ليأتيه به، والكلب يجرى يريد اللحاق بالغزال، والغزال يجرى طلباً للنجاة، وفجأة التفت الغزال إلى الكلب وقال له : لن تلحقنى؛ لأنى أجرى لحساب نفسى وأنت تجرى لحساب صاحبك.

فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قوياً. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنفال)

أى إنهم فى قبضة المشيئة لايخرجون عن قدرة الله الذى سيحضرهم ويحاسبهم.

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عمن حارب، ومن عاهد وغدر، ومن

فر وسبق، ومن يريد أن يلحق به، أراد أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى ألا نقصر فى إعدادنا للقوة التى تعيننا على ملاقاة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب؛ لأننا قد نفاجأ بها فلا نستطيع أن نستعد، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتى ساعة القتال ذاتها، لا، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ﴾ يعنى أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم ، والذين أسروا ، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً ، كل هؤلاء لابد أن تعد لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة.

ولماذا قدر استطاعتهم ؟

لأن الإنسان محدود بطاقة، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه. ولذلك

أنت تعد قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك. وإذا ما صنعت قدر استطاعتك، إياك أن تقول: إن هذه الاستطاعة لن توصلنى إلى مواجهة ما يملكه خصمى من معدات يمكن أن يهاجمنى بها، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوى، ومادام لك هذا المدد فقوتك عند الله تجعلك الأقوى مهما كان عدوك، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح لهم: إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنكم أنى معكم، تذكروا آية واحدة أنزلتها، وهى:

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

وساعة يلقى الله عز وجل فى قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوى الأسلحة، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأية قوة أعدوها. وقوله تعالى:

﴿ ما استطعتم من قوة ﴾

هذه القوة قد تكون ذاتية فى النفس بحيث لا تخاف شيئاً، فجسم كل مقاتل قوى ممتلىء بالصحة وله عقل يعمل باقتدار وإقبال على القتال فى شجاعة، بالإضافة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شىء موصول بالقوة. وكان الهدف قديماً وحديثاً أن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه. وفى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمى السهام هو رمز القوة. فأول ماتبدأ الحرب يضربون العدو بالنبال، فإذا زحف العدو وتقدم يستخدمون له الرماح، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف. وكانت أحسن قوة فى الحرب هى

السهام التى ترمى بها خصمك فتناله وهو بعيد عنك، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك. ولذلك عندما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال فيما يرويه عنه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ، ثم قال : «ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى».[1]

لأنك بالرمى تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك، فإذا تفوقت فى الرمى كنت أنت المنتصر عليه.

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب فى العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة ؟ لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هى السلاح ؛ لأنها المحقق للنصر لبعد مداها، ثم جاءت الطائرات لتصبح هى السلاح الأقوى؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقى بقنابلها وتعود. وصارت قوة الطيران هى التى تحدد المنتصر فى الحرب؛ لأنها تلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عليها مادام غير متفوق فى الطيران، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات، إلى آخر الأسلحة المتطورة التى تتسابق على اختراعها الدول الآن، وكلها أسلحة بعيدة المدى، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال أرضها. ويضيف الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ورباط الخيل هو القوة التى تحتل الأرض، فمهما بلغت قدرتك فى الرمى فأنت لا تستطيع أن تستولى على أرض عدوك، ولكنَّ راكبى الخيل كانوا

(١) رواه الإمام مسلم وغيره.

يدخلون المعركة في الماضي بعد الرمي ليحتلوا الأرض. وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن. فالمعركة تبدأ أولاً رمياً بالصواريخ والطائرات حتى إذا حطمت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطمه ولكنها لا تأخذ الأرض. ولكن الذي يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات، ورباط الخيل هو عقده للحرب، أي أن الخيل تُعد وتُعلف وتدرب وتكون مستعدة للحرب في أية لحظة، تماماً كما تأتي للمدرعات وتعدها إعدادا جيداً بالذخيرة ، وتصلح ماكيناتها وتتدرب عليها لتكون مستعداً للقتال في أي لحظة. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعةً أو فَزْعةً طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانَّه ، ورجل في غنيمة في شَعَفَة من هذه الشعفاء وبطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير (١) .

أي أنه لا ينتظر بل ينطلق لأي صيحة. ومن الإعجاز في الأداء القرآني أنه أعطانا ترتيباً للحرب، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمي، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البري ، ولا يحدث العكس أبداً. ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال، فهي أولاً الرمي، وبه نهلك مكيناً ثم نستولي على المكان، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذي تقوم مقامه المدرعات الآن. ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء في القرآن الكريم بالأداء الذي يعلم ما تأتي به الأيام من اختراعات الخلق، ونجد في زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة

---

(١) رواه مسلم والنسائي ، وورد في الترغيب والترهيب جـ ٢ صـ ٢٤٧ .

إنما تقاس منسوبة إلى الخيل، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان.

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالقصد - إذن - من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم؛ لأن مجرد الإعداد للقوة، هو أمر يسبب رهباً للعدو. ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة، وحين تبين لخصمك القوة التي تملكها لا يجترىء عليك، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر « التوازن السلمي ». والذي يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو التوازن السلمي بين مجموعات من الدول، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي المكلف للحرب، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما. وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب. وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى.

وهكذا صار الإعداد للحرب ينفي قيام الحرب.

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين. وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين. وأن ينكل بهم، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يغريهم على ذلك. فالحق سبحانه وتعالى لا يغضب؛ لأنهم لم يؤمنوا به، بل لأنهم لا يطبقون المنهج

الذى يسعد الإنسان على الأرض، فسبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد فى الأرض وبغيهم وطغيانهم.

﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم، ولكنّ هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ولكنّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون فى ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين، ولكنّ هناك كثيراً ممن لا يظهرون فى ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين. وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة، ولايزال يظهر للمسلمين، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم. ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن. وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم.

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالى هواجس النفس البشرية، وهى تنصت لهذه الآيات من الإعداد العسكرى، فالذى يخطر على البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالاً، ويتطلب جهداً، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج. فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد؛ لأن كل ما تنفقونه فى سبيل الله محسوب عند الله. وإياكم أن تقولوا: إنّ الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالاً ويقتر على الأبناء؛ لأن الله يرزقكم. ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

أي أن ما تنفقونه مما يقال له : شيء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم، ولقد جاء التعبير بـ ﴿ من شيء ﴾ في قوله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ أي مما يقال له شيء. ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة ، ولكن قوله تعالى : ﴿ من شيء ﴾ أي من بداية ما يقال له شيء ، حتى قالوا : إن الخيط الذي يوجد عند العدو لابد أن يذهب للغنائم ، وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

. يعني أي شيء تنفقونه في سبيل الله تعالى مدخر لكم ما دمتم أنفقتموه وليس في بالكم إلا الله عز وجل . أما الإنفاق الذي ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو الحصول على الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح. فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق في سبيل الله، لكن الإنفاق في سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

أي أن ما تنفقونه في سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً.

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء ؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فمادام لدينا استطاعة وأعددنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالغرور ونجترىء على خلق الله ؛ ولهذا فإن الله عز وجل ينبهنا إلى ذلك بقوله :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

أي أن الله لم يطالبنا بأن نكون أقوياء لنفترى على غيرنا، فهو لا يريد منا إعداد القوة للاعتداء والعدوان، وإنما يريد القوة لمنع الحرب ليسود السلام ويعم الكون؛ لذلك ينهانا سبحانه وتعالى أن يكون استعدادنا للقتال وسيلة للاعتداء على الناس والافتراء عليهم. ولهذا فإن طلب الخصم السلم والسلام صار لزاماً علينا أن نسالمهم. وإياك أن تقول : إن هذه خديعة وإنهم يريدون أن يخدعونا؛ لأنك لا تحقق شيئاً بقوتك، ولكن بالتوكل على الله عز وجل والتأكد أنه معك، والله عز وجل يريد الكون متساندا لا متعانداً. وهو سبحانه وتعالى يطلب منك القوة لترهب الخصوم، لا لتظلمهم بها فتقاتلهم دون سبب. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أي إن مالوا إلى السلم ودعوك إليه فاتجه أنت أيضاً إلى السلم، فلا داعي أن تتهمهم بالخداع أو تخشى أن ينقلبوا عليك فجأة؛ لأن الله تعالى معك بالرعاية والنصر، وأنت من بعد ذلك تأخذ استعدادك دائماً بما أعددته من قوتك.

وقول الحق :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أي إياك أن تتوكل أو تعتمد على شيء مما أعددت من قوة؛ لأن قصارى الأمر أن تنتهي فيه إلى التوكل على الله فهو يحميك. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك فيقول :

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى أنه لا شيء يغيب عن سمعه إن كان كلاماً يقال، أو عن علمه إن كان فعلاً يتم. وإياك أن تخلط بين التوكل والتواكل، فالتوكل محله القلب والجوارح تعمل؛ فلا تترك عمل الجوارح وتدعى أنك تتوكل على الله، وليعلم المسلم أن الانتباه واجب، وإن رأيت من يفقد يقظته لابد أن تنبهه إلى ضرورة اليقظة والعمل، فالكلام له دور هنا، وكذلك الفعل له دور؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

ولنلحظ أن قول الحق تبارك وتعالى : -

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا القول إنما جاء بعد قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهى آية تحض على الاستعداد للقتال بإعداد العدة له.

ويريد الحق تبارك وتعالى أن ينبهنا إلى أن قوة المؤمنين واستعدادهم الحربى يجب ألا يكونا أداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال، ولذلك ينبهنا سبحانه وتعالى إلى أنهم لو مالوا إلى السلم فلا تخالفهم وتصر على الحرب؛ لأن الدين يريد سلام المجتمع، والإسلام لا ينتشر بالقوة وإنما ينتشر بالإقناع والحكمة. فلا ضرورة للحرب فى نشر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذى يقنع الناس بقوة

حجته ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان، لنكون على أهبة الاستعداد لملاقاة الكافرين، ولكن دو ن أن تبطرنا القوة أو تدعونا إلى مجاوزة الحد، فإن مالوا إلى السلم، علينا أن نميل إلى السلم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع الإنساني. وإن كنتم تخافون أن يكون جنوحهم إلى السلم خديعة منهم حتى نستنيم لهم، ثم يفاجئونا بغدر، فاعلم أن مكرهم سوف يبور؛ لأنهم يمكرون بفكر البشر، والمؤمنون يمكرون بفكر من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فإذا أحسست أن مبادرة السلم التى يعرضونها عليك هى مجرد خديعة حتى يستعدوا لك ويفاجئوك بغدر ومكر، فاعلم أن الله تعالى عليم بمكرهم، وأنه سيكشفه لك، ومادام الله معك فلن يستطيعوا خداعك، وإذا أردت أن يطمئن قلبك فاذكر معركة بدر التى جاءك النصر فيها من الله تعالى وتمثلت أسبابه المرئية فى استعداد المؤمنين للقتال ودخولهم المعركة. وتمثلت أسبابه غير المرئية فى جنود لم يرها أحد، وفى إلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وكان النصر حليفك بمشيئة الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾

والخداع هو إظهار الشيء المحبوب وإبطان الشيء المكروه، وتقول : « فلان يخادعنى » أى يأتى لى بشيء أحبه، ويبطن لى ما أكرهه، ولأن الخداع فى إخفاء ما هو مكروه، وإعلان ما هو محبوب، فهل أنت يا محمد متروك لهم، أم أن لك ربا هو سندك، وهو الركن الركين الذى تأوى إليه ؟. وتأتى الإجابة

من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالله سبحانه وتعالى حسبك وسندك وهو يكفيك ؛ لأنه نصرك وآزرك. وأنت ترى أن هذه قضية دليلها معها ، فقد نصرك ببدر رغم قلة العدد والعُدد.

والتأييد تمكين بقوة من الفعل ليؤدى على أكمل وجه وأحسن حال ، ومادام الله عز وجل هو الذى يؤيد فلابد أن يأتى الفعل على أقوى توكيد ليؤدى المراد والغاية منه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

والتأييد هنا عناصره ثلاثة : الله يؤيد بنصره ، والله يؤيد بالمؤمنين ، والله يؤلف بين قلوب المؤمنين . والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل لقوم لهم عصبية وحمية ، وهم قبائل متفرقة تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب ؛ لأن عناصر التنافر موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف.

إن القبيلة مجتمعة تهب للدفاع عن أى فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف ، حتى إنه ليكفى أن يسب واحد من الأوس مثلاً واحداً من الخزرج لتقوم الحرب بين القبيلتين ، ولو أن القلوب ظلت على تنافرها لما استطاعت هذه

القبائل أن تواجه أعداء الإسلام، ولشغلتها حروبها الداخلية عن نصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار. ولكن الله ألف بينهم، وبعد أن كانوا أعداءً أصبحوا أحباباً. وبعد أن كانوا متنافرين أصبحوا متوادين.

وهكذا ألف الله بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم. فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب. وحين تتآلف القلوب؛ فهذا أقوى رباط؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة فى القلب.

إن القلب هو مصدر النية التى يتبعها السلوك، فالذى يحرك إنساناً مَوْتوراً منك ويثير جوارحه ضدك، إنما هو القلب، فإن وجدت إنساناً يعبس فى وجهك فافهم أن فى قلبه شيئاً، وإن لقيته وحاول أن يضربك فافهم أن فى قلبه شيئاً أكبر، وإن حاول أن يقتلك، يكون فى قلبه شعورٌ أعمق بالبغض والكراهية.

إذن فالينبوع لكل المشاعر هو القلب. ولذلك نرى الإنسان يُضَحِّى بكل شىء وربما ضحَّى بحريته وبماله فى سبيل ما آمن به واستقر فى قلبه، ونحن نرى العلماء فى معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من متع الحياة الدنيا لأن العلم قد تحول إلى عقيدة فى قلوبهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، فكأنما نية القلب وما يستقر فيها هى أقوى ما فى الحياة.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا فضل عظيم منه أن ألف بين قلوب المؤمنين؛ فيقول:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنهما : (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله).

والحديث بتمامه : « انّ الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[1]

ولم تكن المسألة في تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لايمكن أن يعطي الحب الحقيقي، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح وارتباط قلوب، وارتباط المصالح ينتهي بمجرد أن تهتز أو تنتهي هذه المصالح، لكن ارتباط القلوب يتحدى كل الأزمات، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك حقيقة مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب الحقيقي لا يشترى ولا يباع، إنما يشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية. والعرب الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما تهمهم الحمية والعصبية، فغالبيتهم يملكون الثروات، ولكن الفُرقة فيما بينهم نابعة من الحمية والعصبية التي تجعل في القلوب غلاً وحسداً وحقداً؛ لذلك تفعل جوارحهم. يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنفال)

ومادام الله سبحانه وتعالى له عزة فهو لا يغلب، ومادام حكيماً فهو يضع الأمور في مكانها السليم، والله سبحانه وحده هو القادر على أن يجعل

(١) رواه الشيخان : البخاري ومسلم.

القلوب تتآلف؛ لأن القلوب في يد الرحمن يقلبها كما يشاء، لذلك ندعو بدعاء رسول الله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة رضي الله عنها يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)].

وسبحانه وتعالى يقول:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى قضية إيمانية فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)﴾

وإياك أن تظن أن الله عز وجل يعاقب الكفار لأنهم لم يؤمنوا برسل الله فقط، ولكن لأن الكون يفسد بسلوكهم، وهو سبحانه غير محتاج لأن يؤمن به أحد، ثم إن دين الحق سينتصر سواء آمن الناس به أم لم يؤمنوا، وسبحانه يريد بالمنهج الذي أنزله كل الخير والسعادة لعباده؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

فإذا دخل أحد في الإسلام فلا يمن على الله أنه أسلم؛ لأن إسلامه لن يزيد في ملك الله شيئاً، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليه بهدايته للإسلام وهي لصالحه. ويريد الله من رسوله ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم؛ لأن

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

معه الأقوى، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك يقول :

﴿ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

أى يكفيك الله.

وقوله تعالى :

﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

هى داخلة فى ﴿ حسبك الله ﴾ . لأن الله هو الذى هدى هؤلاء المؤمنين للإيمان فآمنوا .

ويكون المعنى : حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، أى يكفيكم الله، وعلى ذلك فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب. ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

وهذا النداء إنما يأتى فى الأحداث ؛ أما البلاغ فيقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى ينادى الرسول بـ ﴿ يأيها النبى ﴾ حين يكون الأمر متعلقا بالأسوة السلوكية، أما إذا كان الأمر متعلقا بتنزيل تشريع، فالحق سبحانه يخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ يأيها الرسول ﴾ ذلك أن الرسل جاءوا مبلغين للمنهج عن الله، ويسيرون وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية. على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كل رسول باسمه فى القرآن الكريم

فقال: « يا موسى »، وقال: « يا عيسى بن مريم »، وقال: « يا إبراهيم »، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد خاطبه بـ: « يأيها النبى »، وبـ« يأيها الرسول »، وهذه لفتة انتبه إليها أهل المعرفة، وهذا النداء فيه خصوصية لخطاب الحضرة المحمدية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وينادى سيدنا نوحاً قائلاً سبحانه:

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وينادى سيدنا موسى فيقول:

﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وينادى سيدنا عيسى فيقول:

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

فكل نبى ناداه الحق تبارك وتعالى ناداه باسمه مجرداً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل له قط: يا محمد، وإنما قال: « يأيها النبى »، و« يأيها الرسول» . والحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها أراد أن يلفت نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يعلم أنه يكفيه الله والمؤمنين مهما قل عددهم لينتصروا على الكفار.

ثم يأتى النداء الثانى من المولى تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وساعة تسمع أن فلانا يحرض فلاناً، فهذا يعني أنه يحثه، ويثير حماسه ويغريه على أن يفعل، وأنواع الطلب كثيرة، فهناك طلب نسميه نداء، أي تناديه، وطلب نسميه أمراً أي تفعله، وطلب نسميه نهياً، أي لا تفعله. هذه كلها أفعال طلب يسبقها النداء. هناك مثلاً طلب أن يُقبل عليه، وطلب آخر أن يبتعد عنه، وطلب ثالث أن يقضي له حاجة، كل هذا يعني أن المتكلم يعرض على السامع أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا. وهناك لون من الطلب لا يحمل الإلزام، بل هو عَرْض فقط (وهو الطلب برفق ولين) كقولك لمن تعلوه: أنا لا آمرك، بل أعرض عليك فقط. وهناك لون ثالث من الطلب تحمله كلمة «حض» وهو الطلب بشدة؛ لأن المعروض معه دليل الإقبال عليه. فأنت حين تحض ابنك على المذاكرة مثلاً فهناك مبرر الإقبال على المذاكرة وهو النجاح. وأنت حين تحض الإنسان على فعل، فأنت لا تنهاه أو تأمره لأنك تريد أن يقبل على الشيء بحب، ولكن حين تأمره بقسوة قد يكره هذا الشيء. وقد تعرض على إنسان شيئاً فتجده يحب أن يفعله ولو بدون أمر منك.

إذن فقول الله تعالى:

﴿ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى حثهم وحضهم وحمسهم، والفعل يتكون من الحاء والراء والضاد، ومنها « حرض » و « يحرض » ومادة هذه الكلمة معناها القرب من الهلاك، ونجد قول الحق تبارك وتعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أنك ستستمر فى ذكر يوسف حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل.

ولكن هل معنى « حرِّض » هنا يعنى: قرب المؤمنين من الهلاك ؟ نقول: لا؛ لأن ما يسمونه الإزالة، وهى أن يأتى الفعل على صورة يزيل أصل اشتقاقه، عندما تقول: « قشرت البرتقالة » أى أزلت قشرتها. وكذلك قولنا: « مرّض » الطبيب فلانا وليس المعنى أن الطبيب قد أحضر له المرض، ولكن معناها أزال المرض، إذن فهناك أفعال تأتى وفيها معنى الإزالة. ويأتى معنى الإزالة مرة بتضعيف الحرف الأوسط مثل « حرّض » و « قشّر » ومرة تأتى بهمزة، فتعطى معنى الإزالة، فإذا قلت: « أعجم الكتاب ». فمعناها أنه أزال عجمته، ولذلك تسمى كتب اللغة « المعاجم »، أى التى تزيل خفاء اللغة وتعطينا معانى الكلمات. ومن قبل شرحنا معنى « قسط » و « أقسط »؛ وقسط تعنى « الجور » أى الظلم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

وأقسط أى أزال الظلم. إذن فهناك حروف حين تزاد على الكلمة؛ تزيل المعنى الأصلى لمادتها. وهناك تشديد يزيل أصل الاشتقاق مثل « قشّر » أى أزال القشر، و « مرّض » أى أزال المرض، و « حرّض » أى أزال الحرض.

ومعنى الآية الكريمة : اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال. وهذه القاعدة اللغوية تفسر لنا كثيراً من آيات القرآن الكريم. ففى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة طه)

الذين يأخذون بالمعنى السطحى يقولون : « أكاد أخفيها » أى أقرب من أن أسترها ولا أجعلها تظهر ، ونقول : الهمزة فى قوله : « أكاد » هى همزة الإزالة ، فيكون معنى « أكاد » أى أننى أكاد أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى والعلامات الكبرى التى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. وبعضهم قد أرهق نفسه فى شرح « أكاد أخفيها » ولم يتنبهوا إلى أن إزالة الاشتقاق تأتى إما بتضعيف الحرف الأوسط ، وإما بوجود الهمزة. وقول الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تحريض المؤمنين على الجهاد وكأنه يقول له : ادع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم ؛ لأنهم إن لم يجاهدوا لتغلب عليهم أهل الكفر ، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغلبة والجبروت ، وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

فكأنهم إن لم يحاربوا أهل الكفر سوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة. والله سبحانه وتعالى يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا والجنة فى

الآخرة. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وضع معياراً إيمانيا في القتال بين المؤمن والكافر، والمعيار هنا وضعه خالقهم، وخالق قواهم وملكاتهم وعواطفهم. والمعيار الإيماني هو في قوله تعالى :

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالمعيار الإيماني باختصار يساوي واحداً إلى عشرة، أي أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار، هذا هو المقياس. وهنا يأتي بعض الناس ليقول: أساليب القرآن مبنية على الإيجاز وعلى الإعجاز، فلماذا يقول الحق سبحانه وتعالى: « عشرون يغلبوا مائتين » . ثم يقول «مائة يغلبوا ألفا» ؛ ألم يكن من الممكن أن يقال: إن الواحد يغلب عشرة وينتهي القول ؟.

نقول: إنك لم تلاحظ واقع الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب مع المؤمنين في قتالهم ويحضر معهم بعضاً من أحداث القتال التي نسميها « غزوات » . أما البعثات القتالية التي لم يخرج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكتفي فيها بإرسال عدد من المؤمنين، فقد كانت تسمى سرايا، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين مقاتلاً ولا تزيد على مائة، فذكرها الله تعالى مرة بالعشرين ومرة بالمائة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾

(من الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

ونحن نرى أن المقياس هنا ليس بعدد المقاتلين فقط، ولكن لابد أن يكونوا موصوفين بالصبر، وفي آية أخرى بالصبر والمثابرة، فمن الجائز أن يصبر عدوك فعليك حينئذ أن تصابره، أي إن صبر قليلاً، تصبر أنت كثيراً، وإن تحمل مشقة القتال، تتحمل أنت أكثر. إذن فالقوة القتالية لكي يتحقق بها ولها النصر لابد أن تكون قوة صابرة قوية في إيمانها قادرة على تحمل شدة القتال وعنفه.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى تعليل هذا الحكم الإيماني الذي أبلغنا به فيقول عز من قائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالسبب في أن المؤمن يغلب عشرة من الكفار، هو أن الكفار قوم لا يفقهون، وماداموا لا يفقهون، يكون المقابل لهم من المؤمنين قوما يفقهون. وهنا نقارن بين المؤمنين الذين يفقهون، والكفار الذين لا يفقهون ونقول: إن الكافر حين يقاتل لا يعتقد في الآخرة، وليس له إلا الدنيا ويخاف أن يفقدها، ولذلك حين يوجد الكافر في ساحة الحرب فهو يريد أن يحافظ على حياته ولو بالفرار، ولكن الدنيا بالنسبة للمؤمن رحلة قصيرة والشهادة هي الفوز برضوان الله ودخول الجنة بلا حساب، ولذلك فإنه يقبل على القتال بشجاعة من يريد الاستشهاد. ونجد خالد بن الوليد يقول للفرس: أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

فلو أن الكفار فقهوا أي فهموا أن الدنيا دار ممر ومعبر للآخرة، وأن الآخرة هي المستقر لأنها الدار الباقية، لا متلكوا قوة دافعة للقتال، ولكنهم يريدون هذه الحياة لأنها بالنسبة لهم هي كل شيء. ولذلك يعلمنا القرآن الكريم فيقول:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى لن يحدث لنا فى هذه الحرب إلا ما هو حسن ، فإما أن ننتصر ونقهركم ونغنم أموالكم ، وإما أن نُستَشهَدَ فندخل الجنة وكلاهما حسن. ويكمل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى أنكم أيها الكفار لن يصيبكم إلا السوء والخزى. إما عذاب شديد من عند الله بغير أسباب ، وإما عذاب بأيدينا أى بالأسباب. إذنْ فالكافر حين يدخل المعركة لا ينتظر إلا السوء ، إما أن يقتل ويذهب إلى جهنم - والعياذ بالله - ، وإما أن يصيبه الله بعذاب يدفع الخوف فى قلبه أثناء المعركة. والكفار فى القتال لا يعتمدون إلا على قوتهم وعددهم وعُدتهم ؛ أما المؤمنون فيعتمدون أولاً على الله القوى العزيز ويثقون فى نصره. ولذلك يقبلون على القتال ومعهم رصيد كبير من طاقة الإيمان وهى طاقة تفوق العدد والعدة ، ويكون المقاتل منهم قويا فى قتاله متحمساً له ؛ لأنه يشعر أنه مؤيد بنصر الله. ونعلم أن كل إنسان يحرص على الغاية من وجوده ؛ وغاية الكفار متاع الحياة الدنيا المحدود ، أما غاية المؤمنين فممتدة إلى الآخرة. ولذلك فالكافر يحارب بقوته فقط وهو مجرد من الإيمان.

ونلاحظ أن النصوص خبرية فى قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والنصوص الخبرية ليس فيها طلب ، وإن كان الطلب يخرج مخرج الخبر ليوهمك أن هذا أمر ثابت. وعندما قام بعض المتمردين من سنوات ودخلوا الحرم بأسلحتهم وحاصروا الناس فيه قال بعض السطحيين : إنَّ القرآن يقول :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وأن هذا خبر كوني معناه أن كل من دخل الحرم كان آمناً، وقلنا : إن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ هذا كلام الله ؛ فمن أطاع الله فليؤمِّن من يدخل الحرم. وقد تطيعون فتؤمِّنون من يدخل الحرم وقد تعصون فلا تؤمِّنوتهم. إذن فالمسألة هي حكم تطيعونه أو لا تطيعونه ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢٨ سورة البقرة)

هذا كلام خبري، فإن أطاعت المطلقة الله ؛ انتظرت هذه الفترة، وإن عصت لم تنتظر ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وقد نرى في الكون زيجات عكس ذلك ؛ تجد رجلاً لئيماً يتزوج بامرأة طيبة ؛ وامرأة لئيمة تتزوج رجلاً طيباً، وقد تتساءل : لماذا لم يتزوج الطيب طيبة مصداقاً لقول الحق ، ولماذا لم يتزوج الخبيث خبيثة ؟

ونقول : لقد أخطأت الفهم لقول الله تعالى ، فما قاله الله ليس خبراً كونيا، ولكنه خبر تشريعي ومعناه : زوجوا الطيبات للطيبين ، وزوجوا الخبيثات

للخبيثين، فإن فعلتم استقامت الحياة، وإن عصيتم لا تستقيم الحياة؛ لأن الرجل الخبيث إن عاير امرأته وأهانها فهي ترد عليه الإهانة بالمثل ويكون التكافؤ موجوداً حتى في القبح. ولكن الشقاء في الكون إنما يأتي من زواج الطيب بالخبيثة، والخبيث بالطيبة، وليس معنى الآية - إذن - أنك لا تجد طيباً إلا متزوجاً من طيبة، ولا خبيثاً إلا متزوجاً من خبيثة؛ لأن هذا أمر تكليفي تشريعي، فإن فعلت تكون قد أطعت، وإن لم تفعل تكون قد عصيت.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وفي هذا الحكم تخفيف عن الحكم السابق، الذي جاء فيه أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، ونعلم أن هناك شروطاً للقتال، أولها أن يكون المقاتل قوي البدن وقوي الإيمان وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها بحيث يستطيع أن يناور ويغير مكانه في المعركة ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة، بل لابد من كرّ وفرّ وإقبال وإدبار وخداع للقتال ومناورات مثلما فعل خالد بن الوليد في كثير من المعارك.

إذن فلكي تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين لابد أن يتحقق في هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجلد، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجلد ضعيفاً. وقد تأتي للإنسان فترات ضعف، وتأتيه أيضاً فترات قوة. ومن رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين أنه خفف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات

ضعف تصيب الإنسان ؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين. وقال سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهل معنى ذلك أن الآية الأولى قد نسخت ؟ نقول : لا ، ولكن الآية الثانية أعطت حالات الأغيار والضعف البشرى وحسبت لها حساباً. ولذلك تجد الحكم الأول قائما وهو الحد الأعلى ، كما أن الحكم الثانى - أيضاً - قائم وهو الحد الأدنى ، فإذا لقى مؤمن ثلاثة كفار وفر منهم لا يعدُّ فاراً يوم الزحف ، ولا يؤاخذه الله على ذلك. لكن إن واجهه اثنان فانسحب وتركهما يعتبر فاراً ؛ لأن الحد الأدنى هو واحد لاثنين. وتكون هذه أقل نسبة موجودة. والنسب تتفاوت بين واحد إلى اثنين حتى واحد إلى عشرة ، حسب قوة الصبر وقوة الجسم وعدم التحيز إلى فئة. وبطبيعة الحال نعلم أن القوى قد يصير ضعيفاً. وكذلك فإن بعضاً من النفوس قد تضيق بالصبر ، وأيضاً حين زاد عدد المؤمنين ، فمن المحتمل أن يتكل بعضهم على بعض. ولكنهم عندما كانوا قلة ، كان كل واحد منهم يبذل أقصى قوته فى القتال للدفاع عن عقيدته.

والمشرع لا يشرع للمؤمنين بما يحملهم ما لا يطيقون ، ولكنه يشرع لهم ليخفف عنهم ، والمثال على ذلك تجد أن الله قد أباح الإفطار فى رمضان إذا كان الإنسان مريضاً أو على سفر ، وكذلك شرع الحق تبارك وتعالى قصر الصلاة أثناء السفر ، إذن فالمشرع قد عرف مواطن الضعف فى النفس البشرية التى تجعلها لا تقوى على التكليف. وفى هذه الحالة يقوم المشرع ذاته بالتخفيف ، ولا يتركنا نحن لنخفف كما نشاء.

وبعض الناس يقول: إن الحياة العصرية لم تعد تتحمل تنفيذ هذه التشريعات، وأنه ليس في وسعنا في هذا العصر أن نلتزم، وأن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ (سورة البقرة)

ونقول لكل من يقول ذلك: لقد فهمت وسع النفس خطأ، وكان عليك أن تقيس وسعك بالتكليف، ولا تقيس التكليف بوسعك. والسؤال: هل كلَّف الله سبحانه وتعالى أو لم يكلف؟ فإن كان قد كلف فذلك تأكيد على أنه في استطاعتك، ولا تقل: أنا سأقيس استطاعتي. ثم ابحث هل التكليف في نطاق هذه الاستطاعة أو لا؟ وعليك أن تبحث أولاً: هل كلفت بهذا الأمر أو لم تكلف؟ فإذا كنت قد كلفت به يكون في استطاعتك أداء ما كلفت به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها؛ لا تفرض أنت استطاعة ثم تُخْضع التكليف لها، ولكن اخضع استطاعتك للتكليف.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا .. (٦٦)﴾ (سورة الأنفال)

و «الآن» تعني الزمن، وقد خفف الله أي هو سبحانه وتعالى الذي رفع المشقة، وأنت تقول هذا الشيء خفيف وهذا الشيء ثقيل. لكن أتعرف بأي شيء حكمت بمقدار المشقة التي تتحملها في أدائه؟. فإن رفعت قلماً تقول: هذا خفيف، وإذا رفعت قطعة حجر كبيرة تقول: هذه ثقيلة، بأي شيء حكمت؟ هل بمجرد النظر؟ لا. فأنت لا تستطيع أن تفرق بالنظر بين حقيبتين متماثلتين لتقول هذه ثقيلة وهذه خفيفة؛ لأن إحداهما قد تكون مملوءة بالحديد، والثانية فيها أشياء خفيفة؛ ولا تستطيع أن تحكم باستخدام حاسة السمع ولا

حاسة اللمس؛ لأنك باللمس لا تستطيع أن تحكم على حقيبة بأنها خفيفة والأخرى ثقيلة، ولا بحاسة الشم أيضاً.

إذن فكل وسائل الإدراك عاجزة عن أن تدرك خفة الشيء أو ثقله، فبأى شيء ندرك ؟. ونقول: قد اهتدى علماء وظائف الأعضاء أخيراً إلى أن الثقل والخفة لهما حاسة هي حاسة العضل، فحين يجهد ثقل ما عضلات الإنسان ويحملك مشقة أنه ثقيل، فهو يختلف عن ثقل لا يؤثر على العضل ولا تحس فيه بأى إجهاد؛ لأن هذا الثقل يكون خفيفاً .

إذن فهناك وسائل للإدراك لم نكن نعرفها فى الماضى واكتشفها العلم الحديث. أنت مثلاً حين تمسك قماشاً بين أصابعك تقول: هذا قماش كثيف أو سميك وهذا خفيف أو رقيق، ما هي الحاسة التى عرفت بها ذلك ؟ نقول: إنها حاسة « البين » فقد ابتعدت أصابعك قليلاً فى القماش الثقيل، وقربت من بعضها فى القماش الرقيق، وقد يصل الفرق إلى ملليمتر واحد أو أقل لا تدركه بالنظر؛ ولكن تدركه بحاسة البين.

وإياكم أن تحسبوها رياضيا وعدديا وتقولوا إن النصر بالعدد؛ لأنكم بذلك تعزلون أنفسكم عن الله، أو إنّما تفتنون بالأسباب، فكل نصر هو بإذن الله ومن عند الله تبارك وتعالى.

ولماذا لم يقل الحق سبحانه: علم فيكم ضعفاً وخفف عنكم ؟ لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون الترخيص فى الحكم أثبت من الحكم، على أن هذا التخفيف قد يعود إلى عدة أسباب؛ منها أن حكم الله أزلى. ولذلك وضع الله سبحانه وتعالى حدا أعلى يتناسب مع قوة الإيمان فى المسلمين الأوائل، وحدا أدنى يتناسب مع ضعف الإيمان الذى سيأتى مع مرور الزمن، أو يتناسب مع العزوف عن الدنيا بالنسبة للمسلمين الأوائل، وعلى الإقبال على الدنيا بالنسبة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم، أو مع قلة الفتن التى كانت فى عصر النبوة وكثرة الفتن فى عصر كالذى نعيش فيه.

ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وأنت قد تقول : فلان سافر إلى الخليج ومعه عشرون جنيهاً. فإذا اندهش من يسمعك وتساءل : « ماذا يفعل بهذا المبلغ الصغير » ؟ تقول له : إن معه فلاناً « المليونير » فيطمئن السائل . فإن قلت : إن فلاناً وهو رجل كبير السن ذهب إلى الجبل ليحضر صخرة.. تتساءل : كيف ؟. يقال لك : إن معه فلاناً القوى فتطمئن.

إذن فمعية الضعيف للقوى أو الأدنى للأعلى تصنع نوعاً من الاستطراق، وتعطى من القوى للضعيف، ومن الغنى للفقير، ومن العالم للجاهل، إذن فالمعية تعطى من قوة التفوق قدرة للضعيف.

وهنا يوضح المولى سبحانه وتعالى للمؤمنين : إن قوتكم وقدرتكم على الصبر محدودة لأنكم بشر، فلا تعزلوا هذه القوة المحدودة عن قدرة الله غير المحدودة، واصبروا لأن الله مع الصابرين. ولأنه سبحانه معكم فهو يعطيكم من قوته فلا تستطيع أى قوة أن تتغلب عليكم وتقهركم.

ولقد تعرضنا لهذا وقت أن تكلمنا عن الغار، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه الغار فى طريق الهجرة إلى المدينة وجاء الكفار ووقفوا على باب الغار فماذا قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. وهذا كلام منطقى مع الأسباب. فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليطمئنه ؟. قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ولكن ما وجه الحجة فى ذلك ؟. لقد قال : مادام الله ثالثهما، والله لا تدركه الأبصار، فالذين فى معيته لاتدركهم الأبصار.

وفي هذه الآية مثل سابقتها؛ يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن المعارك والنصر.

ومن الطبيعي أن يكون من معايير النصر كسب الغنائم. والغنائم التي تمت في بدر قسمان؛ منقولات، وقد نزل حكم الله فيها بأن لله ولرسوله الخمس، بقي جزء آخر من الغنائم لم ينزل حكم الله فيه وهم الأسرى، ففي معركة بدر قتل من قريش سبعون وأسر سبعون، فاستشار [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس. فقال: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ إنَّ الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس.

فقال أبو بكر: يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان استبقهم، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضداً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقول يابن الخطاب؟

قال: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون.

وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً. فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك. قال أبو أيوب: فقلنا - يعني الأنصار - إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا.

---

(١) مسند أحمد الأحاديث ٣٦٣٢ - ٣٦٣٤، مع اختلاف في بعض العبارات.

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناس : يأخذ بقول عمر، وقال أناس : يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، ثم خرج فقال : إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللين [١]، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾[٢] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [٣]، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [٤] ومثلك في الأنبياء مثل موسى، إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [٥] لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة [٦] فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق، ومن بين الأسرى كان عدد من أغنياء قريش.

وسبق له صلى الله عليه وسلم أن استشار الصحابة في معركة بدر. وحدث أن اختار رسول الله عليه الصلاة والسلام أماكن جيش المسلمين، فتقدم أحد الصحابة وهو الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فأشار الحباب بن المنذر بتغيير موقع المسلمين ليكون الماء وراءهم فيشربوا هم ولا يشرب الكفار.

(١) الواقدي ١/ ١١٠ : « ألين من الزبد ».
(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .
(٣) سورة المائدة : الآية ١١٨ .
(٤) سورة نوح : الآية ٢٦ .
(٥) سورة يونس : الآية ٨٨ .
(٦) الواقدي ١/ ١٠٩ : « وإن بكم عيلة ».

إذن فلو أنه منزل أنزله الله لرسوله لما جرؤ أحد على الكلام؛ لأن لله علماً آخر لا نعلمه، فنحن ببشريتنا لنا علم محدود؛ والله له علم بلا نهاية. وكذلك في مسألة الأسرى؛ لم يكن فيها حكم قد نزل من الله. ولذلك استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته، وكان أمامه رأى فيه شدة لعمر بن الخطاب ومعه عبدالله بن رواحه، ورأى لين يخالف الرأى السابق وكان لسيدنا أبي بكر الصديق.

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز ما قاله الفريقان؛ فريق اللين بقيادة أبي بكر رضي الله عنه وفريق الشدة بقيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ثم مال النبي صلى الله عليه وسلم إلى رأى الفداء. وجعل فدية الواحد من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، وكان في الأسر العباس وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم، فسمع النبي أنينه من قيده فقال: فكوا عنه قيده. وفسر بعض الناس هذا على أنه ميل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه، ولكنه كان ردا على جميل فعله العباس في بيعة العقبة؛ حينما حضر وفد من أهل المدينة إلى مكة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقد حضر العباس هذه البيعة، وكان أول من تكلم فيها رغم أنه كان مازال على دين قومه. فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج،،خزرجها وأوسها . قال العباس : إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة من بلده، أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده[1]

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٤ طبعة الأنوار المحمدية .

إذن فالعباس قد وقف موقفاً لابد أن يجازى بمثله ، ورغم أنه كان كافراً وقتئذ ، إلا أن الكفر لم يمنع عاطفة العباس أن ينجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف بمثله ؛ لأن المبدأ الإسلامي واضح في قول الحق :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾

(من الآية ٨٦ سورة النساء)

فلا يؤخذ هذا التصرف - إذن - على أنه مجاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه ، ولكنها حق على رسول الله من موقف العباس في بيعة العقبة. وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : يا عباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عقبة بن عمرو بن جحدم أخا بنى الحارث بن فهر ؛ فإنك ذو مال. فقال : يا رسول الله إنى كنت مسلماً ولكن القوم استكرهونى. فقال رسول الله : الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به. أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك. وكان المسلمون قد أخذوا من العباس عشرين أوقية من ذهب كغنيمة ، فقال العباس : يا رسول الله احسبها لى في فدائى ، فقال الرسول : لا ، ذلك شيء أعطاناه الله عز وجل منك. قال العباس : فإنه ليس لى مال. لقد جعلتنى يا محمد أتكفف قريشاً ، فضحك النبى وقال : فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت في سفرى هذا ؛ فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا . قال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله. ففدى العباس نفسه بأربعة آلاف درهم ، وفدى كلا من ابنى أخيه وحليفه بألف لكل منهم. [1]

إذن ففى التقييم المادى دفع العباس أربعة أمثال ما دفعه الأسير العادى كفدية.

---

(١) القرطبي وابن كثير مع اختلاف في بعض العبارات .

ثم ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوج ابنته زينب وكان [١] فى الأسارى أبو العاص [٢] بن الربيع ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زينب، أسره خراش بن الصمة، فلما بعثت قريش فى فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص وأخيه عمرو ابن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخلى سبيل زينب إليه، وكان فيما شرط عليه فى إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم. ما هو، إلا أنه لما خرج بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار، مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها [٣]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة [٤]، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز.

ومن بعد ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) سنن أبى داود ١/ ٢٦٧ وابن جرير ٢/ ٢٩٠، ٢٩١ وابن هشام: ٣٠٦ - ٣٠٨
(٢) ط: «أبو العاصى».
(٣) سنن أبى داود: «حتى تأتيها بها».
(٤) شيعة: قريب منه.

و « أسرى » جمع كلمة « أسير » ، وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق ممن أخذه بحيث يكون فى قبضة يده ، والأسير فى الإسلام هو نبع العبودية والرق ؛ لأن الأسير يقع فى قبضة عدوه الأقوى منه ويمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً.

إذن ففى هذه الحالة لا تقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر ، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة . وأيهما أنفع للأسير أن يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يقتل ؟.

إن بقاءه على قيد الحياة أمر مطلوب منه ومرغوب فيه . وبذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى فى تملك الأسرى إنما أراد الله به أن يحقن دماءهم ويبقى حياتهم ؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل ، وكان من الممكن أن يترك الأسرى ليقتلوا وتنتهى المشكلة . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر ؛ لأن الله هو الذى استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة ، ولذلك يحفظه . ولعله من بعد ذلك أن يهتدى ويؤمن . ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لعن من يهدم بنيان الله إلا بحقه .

على أن الإسلام قد اتهم زوراً بأنه هو الذى شرع الرق ، ولكن الحقيقة أنه لم يبتدع أو ينشىء الأسر والرق ، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام ، وكانت منابع الرق متعددة بحق أو بباطل ، بحرب أو بغير حرب ، فقد يرتكب أحد جناية فى حق الآخر ولا يقدر أن يعوضه فيقول : « خذنى عبداً لك » ، أو « خذ ابنتى جارية » ، وآخر قد يكون مَديناً فيقول : « خذ ابنى عبداً لك أو ابنتى جارية لك » . وكانت مصادر الرق - إذن - متعددة ، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد ، وهو إرادة السيد أن يعتق عبده أو يحرره .

ومعنى ذلك أن عدد الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص ؛ لأن مصادره

متعددة وليس هناك إلا باب واحد للخروج منه، وعندما جاء الإسلام ووجد الحال هكذا أراد أن يعالج مشكلة الرق ويعمل على تصفيته. ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثل هذه الأمور بالتدريج وليس بالطفرة؛ فألغى الإسلام كل مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التي يعلنها الإمام أو الحاكم. وكل رق من غير الحرب المشروعة حرام ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقها، وفي ذات الوقت، عدد الإسلام أبواب عتق العبيد، وجعله كفارة لذنوب كثيرة لا يكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة، بل إنه زاد على ذلك في الثواب الكبير الذي يناله من يعتق رقبة حبا في الله وإيماناً به فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

فإذا لم يرتكب الإنسان ذنباً يرجب عتق رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية، فإنه في هذه الحالة عليه أن يعامل الأسير معاملة الأخ له في الإسلام. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سيدنا أبو ذر رضي الله عنه:

(إخوانكم خولكم جعلهم الله فتنة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه) [1]

إذن فقد ساوى هذا الحديث الشريف بين العبد والسيد، وألغى التمييز بينهما؛ فجعل العبد يلبس مما يلبس سيده ويأكل مما يأكل أو يأكل معه؛ وفي العمل يعينه ويجعل يده بيده، ولا يناديه إلا بـ «يا فتاي» أو «يا فتاتي».

إذن فالإسلام قد جاء والرق موجود وأبوابه كثيرة متعددة ومصرفه واحد؛

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والبيهقي وابن ماجه.

فأقفل الأبواب كلها إلا باباً واحداً، وفتح مصارف الرق حتى تتم تصفيته تماماً بالتدريج. وبالنسبة للنساء جاء التشريع السماوي في قول الله تعالى :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وكان ذلك باباً جديداً من ابواب تصفية الرق ؛ لأن الأمة إن تزوجت عبداً مثلها تظل على عبوديتها وأولادها عبيد، فإن أخذها الرجل إلى متاعه وأصبحت أم ولده يكون أولادها أحراراً، وبذلك واصل الإسلام تصفية الرق، وفي ذات الوقت أزاح عن الأنثى الكبت الجنسي الذي يمكن أن يجعلها تنحرف وهي بعيدة عن أهلها مقطوعة عن بيئتها، وترى حولها زوجات يتمتعن برعاية وحنان ومحبة الأزواج وهذه مسألة تحرك فيها العواطف، فأباح للرجل إن راقت عواطفهما لبعضهما أن يعاشرها كامرأته الحرة وأن ينجب منها وهي أمة، وفي ذلك رفع لشأنها لأنها بالإنجاب تصبح زوجة، وفي ذات الوقت تصفية للرق.

إن هذه المسألة أثارت جدلاً كثيراً حول الإسلام، وقيل فيها كلام كله كذب وافتراء. والآن بعد أن ألغي الرق سياسيا بمعاهدات دولية انتهت إلى ذات المبادىء التي جاء بها الإسلام وهي تبادل الأسرى والمعاملة بالمثل. وهو مبدأ أول ما جاء، إنما جاء به الإسلام، فليس من المعقول أن يأخذ عدو لي أولادي يسخرهم عنده لما يريد، وأنا أطلق أولاده الأسرى عندي، ولكن المعاملة بالمثل فإن منّوا نمُنّ، وإن فدوا نفد. ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الرق الناشىء عن الأسر مقيداً في قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ونقول: إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكم يجيء مع الحدث، ولابد أن نفرق بين الحكمين؛ حكم يسبق الحدث إن خولف تكون هناك مخالفة ولكنَّ حكماً يأتي مع الحدث، فهذا أمر مختلف، لنفرض أنك جالس وجاء لك من يقول إن قريبك فلان ذهب إلى المكان الفلانى، وأنه ينفق على كذا، وأعطى كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا. اذهب إليه لتمنحه، فتذهب إليه وتمنعه، هنا جاء الحكم مع الحدث، فلا تكون هناك مخالفة.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

قد جاء هذا الحكم بعد أن تم أسر كفار قريش وأخذوا إلى المدينة، وتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة بشأنهم ووصلوا إلى رأى. إذن فالحكم جاء بعد أن انتهت العملية، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يغير الحكم، فظل الأسر والفداء. إذن: ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ﴾ أى ما ينبغى لنبى أن يكون له أسرى حتى يقسو على الكفار فى القتال.

ويريد الحق سبحانه وتعالى هنا أن ينبه المؤمنين إلى أنهم لو كانوا يريدون الأسرى لعرض الدنيا، كأن يطمع أى واحد فى من يخدمه، أو يطمع فى امرأة يقضى حاجته منها، أو فى مال يبغى به رغد العيش، كل ذلك مرفوض؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يجعل الدنيا أكبر همه، بل يريد الحق من المؤمنين أن يعملوا ويحسنوا الاستخلاف فى الأرض؛ ليقيموا العدل على قدر الاستطاعة؛ وليجزيهم الله من بعد ذلك بالحياة الدائمة المنعمة فى الجنة.

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

وسبحانه العزيز الذى لا يغلب، والحكيم الذى يضع كل شىء فى موضعه.

ويجىء من بعد ذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة تشرح وتبيِّن أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذى يرتب المقدمات والنتائج، ويحدد الجرائم والعقوبات، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى، من قبل أن تستقر الدعوة، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا بمخالفة يسبقها التشريع الذى يحددها، لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين، ولكن بما أن هذا الفعل لم يجرَّم من قبل فلا عقاب عليه.

وينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى الغنائم التى حصل عليها المؤمنون فى غزوة بدر فيقول تبارك وتعالى:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى إياكم أن تنفقوا ما غنمتموه بسفاهة فى أى شىء لا لزوم له، بل اتقوا الله فيما أعطاكم ومنحكم من غنائم. سواء كانت منقولات أم مالا أم أسرى تجعلونهم يقومون بأعمال يعود نفعها وعائدها إليكم. اتقوا الله فى كل هذا ولا تنفقوه بحماقة، وقوله تعالى: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى أن الله تعالى قد غفر لكم ما فعلتم قبل أن تنزل هذه الآية الكريمة:

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الأسرى بعد ذلك فيقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

أى إن صح كلام العباس فى إسلامه وأنه كتم الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلبه وسوف يعطيه الله خيراً مما أخذ منه. وبالفعل فاء الله على العباس بالخير. فقد أسند الطبرى إلى العباس أنه قال: فىّ نزلت - أى هذه الآية - حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقية التى أخذت منى قبل المفاداة فأبى وقال: « ذلك فَىْءٌ » فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالى.

وفى الرواية التى ذكرها ابن كثير (قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجوه من مغفرة الله عز وجل)[1]، وهكذا تحقق قول الله عز وجل

﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

(١) الطبرى وابن كثير.

وبعد أن نزلت هذه الآية الكريمة، وكانت موافقة لما اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرارات، وأبلغ صلى الله عليه وسلم الأسرى بالحكم النهائي من الله: لا تفكون إلا بالفداء أو بضرب الرقاب. وهنا قال سيدنا عبدالله بن مسعود: يا رسول الله إلا سَهْل بن بيضاء فإنني عرفته يذكر الإسلام ويصنع كذا وكذا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سَهْل بن بيضاء، وقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

أي مادام في قلوبكم الخير وقد آمنتم أو ستدخلون في الإسلام؛ فالله يعلم ما في قلوبكم وسيغفر لكم لأنه غفور رحيم. وعندما استقر الأمر قال بعض من الأسرى: يا رسول الله: إن عندنا مالاً في مكة، فاسمح لنا نذهب إلى هناك ونحضر لك الفداء، وخشي صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال، فماذا يفعل؟ أيطلق سراحهم ويصدقهم فيحضروا الفدية؟ أم هذه حيلة وقد أضمروا الخيانة والغدر؟.

فنزل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

ويوضح الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: لا توافقهم على ما يريدون، فهم إن أضمروا لك الخيانة فقد خانوا الله من قبل فمكنك منهم فلا تأمن لهم، وسبحانه يعلم ما في صدورهم.

وبعد أن تكلم سبحانه عن قصة بدر وأسرى بدر، والمواقف التي وقفها

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته في هذه القصة، أراد سبحانه وتعالى أن يصنف الأمة الإسلامية المعاصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عناصرها، وتعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح بالدعوة الإسلامية في مكة، ومكة هي مركز سيادة العرب، وكانت قبيلة قريش هي سيدة جميع قبائل العرب وسيدة الجزيرة كلها، لأن قريشاً سيدة مكة، ومكة فيها بيت الله الحرام، وكانت كل قبيلة من قبائل العرب يكون بعض من أبنائها في بطن سيادة قريش خلال الحج، ومادامت كل قبيلة تذهب إلى مكة فهي تطلب حماية قريش، ولم توجد قبيلة تعادي قريشاً أو تجرؤ على مهاجمتها؛ لأنها تعلم أنه سيجيء يوم تكون فيه تحت حماية قريش وتحت رحمتها حين الحج إلى بيت الله الحرام.

إذن فسيادة قريش نشأت من وجود البيت. ولو أن هذا البيت لم يكن موجوداً لكان مركز قريش كمركز أي قبيلة من العرب، ولو أن البيت قد هدم من أبرهة، لكانت سيادة قريش قد انتهت. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الفيل:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ثم تأتي بعدها مباشرة السورة الكريمة التي توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى حين حفظ بيته وفتك بجيوش المعتدين فجعلهم كعصف مأكول، قد أكد هذه السيادة لقريش فيقول تبارك وتعالى في السورة التي سميت باسمها:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

إذن فالذى أعطى السيادة لقريش هو بيت الله الحرام. ولذلك تذهب قوافلهم بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحد من القبائل أن يتعرض لها. ولو لم يكن بيت الله الحرام فى مكة وقريش سادة مكة؛ لما كان لهم هذا الوضع المتميز والمكانة العالية، إذن فعز قريش فى بيت الله الحرام، وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن. ثم تعود محملة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون. وحين أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته كان ذلك الإعلان فى مكة، وقد أعلنها صلى الله عليه وسلم فى وجه الجبابرة وأقوياء الجزيرة العربية كلها. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته فى قبيلة ضعيفة خارج مكة لقالوا: استضعفهم وغرر بهم، أو لقالوا يريدون به السيادة، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا، ولكنهم أخذوها سلماً ليسودوا بها الجزيرة العربية. ولكن شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ميلاد الرسالة فى مكة وأول من سمعها هم سادة قريش؛ لتأتى فى مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق، وإعلاءه فى وجه سادة الجزيرة العربية.

ثم كانت المعركة بين سادة قريش والإسلام وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه وحاولوا إيقاف الدعوة بكل الطرق وشتى الحيل. لكن هل انتصروا؟ ثم هل امتد الإسلام وانتشر من مكة؟. لا، بل كانت الهجرة إلى المدينة، ومن هناك امتد الإسلام.

إذن فقد بدأ الإسلام من مكان السيادة فى الجزيرة العربية، ولكنه انتشر من مكان لا سيادة فيه، لماذا؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة لقالوا: قوم ألفوا السيادة على الناس، وتعصبوا لواحد منهم؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى فى العالم. ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها: أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد، وهو الذى حقق النصر لمحمد،

ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية.

ويصنف الحق سبحانه وتعالى لنا المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهؤلاء منهم المهاجرون. ومنهم الأنصار، ومنهم جماعة مؤمنة لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم هاجروا بعد ذلك. ومنهم جماعة آمنوا ولم يهاجروا من مكة وبقوا فيها حتى الفتح.

إذن: هناك أربع طوائف: الذين هاجروا مع الرسول إلى المدينة، والأنصار الذين استقبلوهم وآووهم. وطائفة لم يهاجروا مع رسول الله ولكنهم هاجروا بعد ذلك، وطائفة بقيت في مكة حتى الفتح.

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

الفئة الأولى في هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

والفئة الثانية هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وبعض من العلماء فسر قول الحق : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ على أنها تشمل الالتحام الكامل ، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضا أولاً - حسب قول العلماء - إلى أن نزلت آيات الإرث فألغت ذلك التوارث الذى كان بينهم.

وقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

أبعدت هذا المعنى ، وبعض العلماء قال : إن الولاية هى النصر ، وهى المودة ، وهى التمجيد ، وهى الإكبار ، فقالوا : هذه صفات الولاية ، وهناك آية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذى قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان ، ذلك أن الرجل الذى يعيش فى نعمة وله صديق

أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته في نعمته، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها له ليستخدمها، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها، إلا المرأة فهي النعمة التي يأنف الرجل أن يشاركه فيها أحد.

ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم في مكة، كان الأنصاري يجيء للمهاجر ويقول له: انظر إلى نسائي والتي تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل، وحين يصنعها الإيمان، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم: فالطائفة الأولى المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذي ألفوه، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم، ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقون منه أيضاً على الجهاد؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون في مكة، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس. ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت فلن تزيد عن ثلاثمائة ودخلوا في معركة مع الكثرة المشركة، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن فهم آمنوا، هذه واحدة، وهاجروا، وهذه الثانية، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة، ولهم أجر من عمل بها، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل.

والطائفة الثانية الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة، ونصروا هذه الثانية،

وأحبوا من هاجر إليهم، هذه الثالثة. وهؤلاء جمعهم الله فى الولاية أى النصرة والمودة والتعظيم والإكبار. ثم يأتى القول من الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وهؤلاء هم الطائفة الثالثة الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه. ولكنهم لم يهاجروا ولم يتركوا أوطانهم ولا أولادهم ولا أزواجهم ولا أموالهم، إذن فيهم خصلة تمدح وخصلة ثانية ليست فى صالحهم؛ فموقفهم بين بين، ولكن لأنهم لم يهاجروا لذلك يأتى الحكم من الله :

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

إذن فهذه الطائفة آمنت ولم تهاجر، ولكن عدم هجرتهم لا يجعل لهم عليكم ولاية، إلا أن قوله تبارك وتعالى :

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ :

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وفى هذا تشجيع لهم حتى يهاجروا، كأن تقول لابنك : ليس لك عندى مكافأة حتى تذاكر. وفى هذا تشجيع له على المذاكرة. ولم يقطع الله سبحانه وتعالى أمامهم الطريق إلى الهجرة لأنهم ربما فهموا أن الهجرة لم تكن إلا فى الأفواج الأولى لأنه قال : « والذين آمنوا وهاجروا » أى أن الباب مفتوح.

وكلمة «هاجروا» مأخوذة من الفعل الرباعى « هاجر »، والاسم « هجرة» والفعل «هاجر». وهجر غير هاجر. فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا

معناه «هجر» أى ترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب، إنما هاجر لابد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألجأه إلى أن يهاجر، إذن فهناك عمليتان، اضطهاد الكفار للمسلمين؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم، ما حدثت الهجرة. ولكن الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم، والمتنبى يقول:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون همو

أى أنك إذا تركت قوماً دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك، إذن هجر تكون من جهة واحدة، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: إن الدار التى اضطهدتم فيها كان يصح أن تهجروها. ويوضح الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى لابد أن يكون هناك التضامن الإيمانى دون الولاية الكاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا. فالإيمان له حقه فى قوله تعالى:

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ولكن النصر هنا مشروط بشرط آخر هو:

﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾

«من الآية ٧٢ من سورة الأنفال»

فاحفظوا هذا الميثاق لأن نقض العهود الميثاقية ليس من تعاليم الدين الإسلامى. ولكن مادام بينكم وبينهم ميثاق فيجب أن تتم التسوية عن طريق التفاهم. فعليكم احترام ما اتفقتم وتعاهدتم عليه. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى يعلم ويرى كل ما تصنعون وقد جمعهم الله سبحانه وتعالى كمؤمنين فى آية واحدة وكلهم فى مراتب الإيمان وهم قسم واحد.

ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن القسم الثانى المقابل فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

فالكفار - كما نعلم - وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض.

فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام. وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط نجد قول الحق تحذيراً لهم من هذا :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فسبحانه يريد لنا أن نعلم أننا إن لم نعش كمسلمين متحدين تنحاز لبعضنا البعض فى جماعة متضامنة ، وتآلف وإيمان ، إن لم تفعل ذلك فسوف تكون هناك فتنة شديدة وفساد كبير. لماذا ؟. لأن المؤمنين إن لم يتجمعوا ذابوا مع الكافرين ، وستوجد ذبذبة واختلال فى التوازن الإيمانى جيلاً بعد جيل. ولو حدث مثل هذا الذوبان ، سيتربى الأولاد والأطفال فى مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان ، فيأخذوا من هذا ، ويأخذوا من ذاك ، فلا يتعرفون على قيم دينهم الأصيلة ، وقد يضعف المسلمون أمام إغراء الدنيا فيتبعون الكافرين. ولكن إن عاش المسلمو ن متضامنين متعاونين تكون هناك وقاية من أمراض الكفر ، وكذلك لا يجترىء عليهم خصومهم.

أما إذا لم يتجمعوا ولم يتحدوا فقد يتجرأ عليهم الخصوم ويصبحون قلة هنا ، وقلة هناك وتضيع هيبتهم ، ولكن إذا اتحدوا كانوا أقوياء ، ليس فقط بإيمانهم ، ولكن بقدرتهم الإيمانية التى تجذب غير المسلمين لهذا الدين. وينشأ الفساد الكبير حين لا يتضامن المسلمون مع بعضهم البعض فيجترىء عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلةً وهم أغلبيةٌ ، ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم ، ولا يكونون أسوة سلوكية. بل يكونون أسوة سيئة للإسلام. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فهل هذا توجيه من الله جل جلاله لهم ، أو إخبار بواقع حالهم ؟

لقد طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض ، ولكن هل قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ هو طلب للكافرين ، كما هو طلب من الله للمؤمنين ؟ نقول : لا ؛ لأن الذين كفروا لا يقرأون كلام

الله عز وجل، وإذا قرأوه لا يعملون به.

إذن فهذا إخبار بواقع كونى للكافرين. فعندما يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، فهذا تشريع يطلب الله أن يحرص عليه المؤمنون، أما إذا قال إن الكفار بعضهم أولياء بعض. فهذا إخبار بواقع كونى لهم.

إن الإسلام جاء على أهل أصنام من قريش، ويهود فى المدينة هم أهل كتاب، وكذلك كان الأوس والخزرج كفاراً مثل قريش؛ ولكن الإسلام جمعهم وجعل بعضهم أولياء بعض، وكان بين الأوس والخزرج وبين اليهود قبل الإسلام عداء، وإن لم يصل إلى الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون لمال اليهود وعلمهم وأشياء أخرى، وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج بمجئ النبى محمد المذكور عندهم فى التوراة ويقولون لهم: أظل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.

إذن كان اليهود يتوعدون الكفار، لما بينهم من عداء عقدى ودينى، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر اليهود برسالته والتحموا مع كفار قريش وقالوا:

﴿هَـٰؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾

(من الآية ٥١ سورة النساء)

أى أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا بمحمد، فالولاء بين الكافرين واليهود جاء لهم بعد أن كانوا أعداء، لكنهم اتحدوا بعد ذلك ضد المؤمنين، فإذا كان هذا قد حدث بين الكفار واليهود؛ فيجب على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم اجتمعوا على شىء يعاديه الجميع. وهذا ينفى مسألة الإرث التى قال بها بعض العلماء من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض أى يرث بعضهم

بعضاً؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً فكأن الله يشرع للكافرين - أيضا - أن يرث بعضهم بعضاً؛ لأنه استخدم كلمة أولياء بالنسبة لهم أيضاً. والحق سبحانه وتعالى لم يشرع للكافرين.

وبعد أن بينا أقسام المؤمنين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا أنهم أربعة، ذكرنا ثلاثة منهم هم المهاجرون والأنصار والذين آمنوا ولم يهاجروا، وبقي من هذه الأقسام الذين آمنوا وهاجروا بعد ذلك، ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

أي إياكم أن تقولوا بأنهم لم يهاجروا معكم، وتنكروا أنهم منكم، بل هم منكم وأولياؤكم فهم قد اتبعوكم بإحسان.

وما الذي جعل الحق سبحانه وتعالى يذكر هذا مرة أخرى ؟. لقد تكلم سبحانه وتعالى عن الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله والذين نصروا، ولننتبه إلى أن هذا ليس تكراراً لأنه سبحانه وتعالى يذكر لنا هنا أنهم جاهدوا بالمال والنفس، وقد جاءت هذه الآية لتثبيت الحكم الشرعي، وانظر إلى عجز كل آية لتعرف. ففي عجز هذه الآية:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

والحكم الشرعى بالنسبة لهم هو أن يكونوا أولياء بعض، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة حيث يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى أعطانا الحكم الشرعى فى ولاية بعضهم لبعض. وأوضح أن هؤلاء لابد أن يكونوا أولياء، وهذا هو الحكم المطلوب منهم، ولكنه سبحانه فى هذه الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هم المؤمنون حقا ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً، أى أن غيرهم لا يكون مؤمنا حقا، مثلما تقول: فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها. وهذه مبالغة إيمانية.

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله الكريم:

﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

وهنا يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجزاء. والجزاء إما أن يكون فى الدنيا،

ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقا، وإما أن يكون الجزاء فى الآخرة. وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله: ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى تمحى سيئاتهم. وقوله تعالى: ﴿ ورزق كريم ﴾ أى تضاعف لهم الحسنات فى الجنة. فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية، وهو حكم مطلوب منهم. والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم فى الدنيا والآخرة. والجزاء فى الدنيا أنهم هم المؤمنون حقا، أمّا الجزاء فى الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا، ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب؛ وهو رزق كريم.

والمغفرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة فى شيء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع فى المعاصى، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم فى هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً. والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس، ولكنّ الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادى وما هو معنوى.

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، والعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل. وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التى فيها محاسن. وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق فى قمة الكرم، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطى إنساناً

أجره ليس هذا مناً أو كرماً منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك.

إذن فهو رزق في قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه لأنك قد تبذل جهداً كبيراً في زراعة أرضك ثم تأتي آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً. وقد تذهب إلى مكان وأنت خالي الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير.

إذن فالرزق يعرف مكانك ويأتي إليك ولكنك لا تعرف أين هو. وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعاماً تلتذ به ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتي طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت. وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات في دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن فهذا الطعام الذي أكلته وتحول إلى دم في جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم. ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

والرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط في الدنيا بأسباب العمل، فالرزق في الآخرة يأتيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم.

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوليا إلى الله، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً في أشياء ومختاراً في أشياء يفعلها أو لا يفعلها، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له؛ فيفعل ما قال له: « افعل »، ولم يفعل ما قال له: « لا تفعل »، فكأنه اختار مرادات الله في التشريع.

إن معنى الإيمان أن يستقر في قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون وخلقنا، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعداداً جيداً، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار في أشياء، وجعلنا من رحمته مقهورين في أشياء.

مثلا دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك، ولكن الأفعال التي تصدر منك بعد فكر، تلك هي الأفعال التي جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق أن تكون مقهورا لفعل، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ليعرف مَنْ من عباده أحب الله فأطاعه في التكليف، ومَنْ من الخلق قد عصاه.

إذن فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان، وللإنسان انتماءات أخرى؛ ينتمى لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله، ولكن الانتماء الأول يجب أن يكون لله تعالى، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضى ذلك. والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل، ويجعل كل ما يملكه فى خدمة ذلك؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك. إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله. فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حبا فى الله وطاعة له.

فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم فى إيواء المهاجرين حبا لله؛ فتنازلوا عن مساكن لهم وأموال لهم، وتنازلوا عن زوجاتهم فى سبيل الله كل منهم مؤمن حقّا، أما الفئة الثانية فهناك نقص فى إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى ليس مطلوباً أن توالوهم، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر، لماذا؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل ومكان الإقامة. والفئة الثالثة هم الذين جاءوا بعد ذلك، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاما يكون كالمؤمنين الأوائل؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى. ثم يختتم الحق سبحانه سورة الأنفال بهذه الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾

(سورة الأنفال)


(٩)
سورة التوبة
مدنية

وتنتهى خواطرنا عن سورة الأنفال لتبدأ خواطرنا عن سورة أخرى هى سورة التوبة، ومن عادتنا عند انتهاء سورة وابتداء سورة، أن تبدأ السورة الجديدة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم». ولكن سورة التوبة هى السورة الوحيدة التى بدأت بدون البسملة، ووقف العلماء ليحاولوا العلم بسر عدم البدء بالبسملة، وقد اختلفت آراؤهم، ولحظ كل عالم ملحظاً، فمن قائل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد بداية السور ولم يحدد بداية هذه السورة.

ونقول: لا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد مكان الآية فى كل سورة، وقيل إن باقى سور القرآن الكريم وعددها مائة وثلاث عشرة بدأت بالبسملة.

ولم تبدأ سورة التوبة بالبسملة حتى نعرف أن الأمر ليس رتابة انتهاء سورة وابتداء أخرى، بحيث تجىء «بسم الله الرحمن الرحيم» مع بداية كل سورة، ولكن أسماء السور توقيفية، أى أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذى يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما فى القرآن الكريم، ونعلم أن رسول الله كان يراجع القرآن كله مع جبريل فى كل رمضان، وراجعه فى عامه الأخير مرتين مع جبريل، وكل ما جاء بالقرآن الكريم توقيفى كما أبلغه الوحى للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن عظمة الشرع أن ينتقل بالمؤمن من شىء إلى شىء، ليجد فجوة يتوقف العقل عندها، وهنا يأتى دور الإيمان ليمنع العقل من التوقف عند أى فجوة؛ لأن المشرع وهو الله سبحانه وتعالى يريد ذلك، ولو جاءت الآيات على رتابة واحدة لما انتبه الإنسان إلى قيم الإيمان.

على سبيل المثال نحن في الحج نُقبِّل حجرا ونرجم حجراً ، وجاء هذا كأمر من الله سبحانه وتعالى بأن هذا حجر يُقدس وذاك حجر يُرجم ويداس ؛ لنعلم أنه لاشيء في هذا الكون مقدس لذاته ، ولكن التقديس لأمر الله وبتوجيه منه سبحانه وتعالى ؛ إن قال : قَبِّلوا ، قبلنا ، وإن قال : ارجموا ، رجمناه .

وفي الجيش مثلاً عندما يأتي الضابط ويقول للجنود : قف ، فيقف الجنود ، حتى الذي وضع لقمة في فمه يتوقف عن مضغها . والحكمة من ذلك هي الانضباط ، والانضباط الإيماني أكبر ؛ لذلك إذا صادف المؤمن أشياء في منهج الله يقف فيها العقل يقول : هذه إرادة الله وسأنفذها لأن الحق تبارك وتعالى أمر بها .

والمثال لنا هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ حينما أُخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أُسْرِي به إلى بيت المقدس ، وعُرج به إلى السماء: لم يقس المسألة بعقله ولكنه قال : أَوَ قال ذلك ؟ قالوا نعم ، قال : فأنا أشهد إن قال ذلك لقد صدق. قالوا فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه ، بخبر السماء ؛ قال أبو سلمة : فبها سُمِّي أبو بكر الصدِّيق .

ومن العلماء من قال: إن سورة الأنفال كانت عهوداً ، وسورة براءة هي نقض لهذه العهود ، ونقض العهد يأتي بعد العهد ذاته . فجاءت سورة التوبة مكملة لسورة الأنفال ، ولذلك نجد في سورة الأنفال أن الحق سبحانه وتعالى قال مشرعا لتوزيع أموال الغنائم : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ٤١]

وجاءت سورة التوبة لتفصل كيف يتم التوزيع لأموال الصدقات فقال الله جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : ٦٠]

إذن فكان من الطبيعى أن تأتى سورة التوبة بعد سورة الأنفال ؛ لأن سورة التوبة متممة لسورة الأنفال . وسورة التوبة تتعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ۝١ ﴾ [التوبة]

وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ ﴾

لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة ، وقيل فى عدم تسميتها سورة براءة وتسميتها سورة التوبة لأن القطعية هنا بين الله وبعض عباده الذين ضلوا واختاروا الكفر والنفاق ؛ ولأنه رب رحيم أراد أن يفتح لعباده الذين أبقوا باب الرجوع إليه بالتوبة ؛ فسميت السورة سورة « التوبة » وقد بدأت السورة بقوله تعالى : « براءة » واسمها التوبة حتى تسبق التوبة البراءة . ولذلك نجد فيها آيات التوبة فى قول الله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ .. ۝١١٧ ﴾ [التوبة]

وفى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ۝١١٨ ﴾ [التوبة]

وفى آية ثالثة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. ۝١٥ ﴾ [التوبة]

إذن فعلى الرغم من أن السورة بدأت بالبراءة إلا أنها جاءت بالتوبة رحمة منه ، وقبولها منه تعالى رحمة بالناس .

فالله يَشْرع التوبة ويفتح بابها فضلاً منه ورحمة ، فلو لم يشرعها الله ما قبلت توبة أبداً ، ولو عن معصية واحدة . والذى ييأس من التوبة وغفران الذنوب يشتد فى المعاصى وينغمس فيها ويحدث نفسه بأنه ما دامت معصية واحدة سوف تدخله النار ، فلا فرق بين معصية وألف . ولا بد - إذن - أن يرتكب كل يوم جريمة ؛ لأن ذنباً واحداً أخرجه من الرحمة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يفتح باب التوبة ليمنع شراسة الإجرام فى المجتمع ، فكل عاص يمكنه أن يعود بالتوبة إلى الإيمان ، ويعيش المجتمع فى أمان وسلام . وهكذا كان تشريع التوبة رحمة ، وقبولها من الله رحمة . ولذلك بعض

الناس يقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونتساءل كيف تاب الله عليهم ليتوبوا؟ نقول : تاب عليهم أى شرع لهم التوبة، فإن تابوا قبل الله توبتهم.

إذن فالمسألة تشريع وقبول. ومادام الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة فهو تواب. إذن فقد قدم الحق هنا للإنسان أسلوبين يصحح بهما مساره، قد شرع التوبة، وأذن بقبولها. ومن عظمته لم يقل عن نفسه إنه تائب ولكنه تواب. فإذا فعل الإنسان معصية وتاب، قبل الله توبته، وإن غلبه الشيطان أو غلبته نفسه وارتكب معصية أخرى وتاب قبل الله توبته أيضا لأنه تواب رحيم.

وأخذت سورة التوبة حيزا مع المشركين وحيزاً مع اليهود والنصارى، وحيزا مع المنافقين، وكما حددت المؤمنين فى آخر السورة، حددت أيضا مواقف كل من هؤلاء، وقد كان بيان موقف هؤلاء ضروريا؛ لأن المنافق مثلا متعارض الملكات، والكافر منسجم الملكات، فالمنافق ينطق لسانه عكس ما فى قلبه، والكافر إنما ينطق بما فى قلبه، ولكن المنافق والكافر يتفقان فى عداوة المؤمن. ولذلك فضح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعداء وأظهر ما فى أعماق الكافرين والمنافقين وخصومتهم للإسلام، وحاز المنافقون قسطاً وافراً من السورة لأنهم ادعوا الإيمان واقتربوا من المسلمين، وخصومة القريب أشد على النفس، فما بالنا بخصومة الإنسان مع نفسه ؟!

هكذا كان حال المنافقين الذين عاشوا بين المسلمين وملكاتهم متعارضة وخصومتهم للمؤمنين أشد؛ لأنهم يتظاهرون بالإيمان، ويضمرون الكفر. ولذلك كانت معظم آيات هذه السورة تفضح حال المنافقين وتظهر ما أضمروه من بغض وعداوة لأنهم أشد خطراً على الدين من الكفار.

والله سبحانه وتعالى يعطينا فى هذه السورة صورة لتمرد نوع من خلق الله من بنى الإنسان.

وهم هؤلاء الذين يكذبون بالله ونعمته ويضمرون الكفر والحقد ويتظاهرون بأنهم مع المسلمين علما بأنهم لم يتساووا مع الجمادات وسائر خلق الله من غير بنى الإنسان حتى الحيوان ، فإن هؤلاء جميعا يسبحون الله الخالق ويسجدون له؛ سجود إقرار بالربوبية ، أما المنافقون فهم من بنى الإنسان الذين تمردوا على الله خالقهم، ولذلك اقرأ إن شئت فى تصنيف الأجناس فى الكون : الجماد ، النبات ، الحيوان ، الإنسان ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ ﴾ [الحج : ١٨]

وهذه هى الجمادات ، ثم يأتى الخبر بالنسبة للنبات والحيوان فيقول الحق جلّ وعلا: ﴿ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ [الحج : ١٨]

ثم جاء الخبر فى الإنسان فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨]

أى أن الأمر فى التسبيح والطاعة والسجود لله انقسم عند الإنسان لأن له أغياراً .

ونجد رحمة الربوبية فى أنه ، كما جعل للمؤمن رزقه ، فقد جعل للكافر رزقه أيضا، وبيّن الله عز وجل أنه يرزق الكافر رغم أنه أراد بالسورة القطع بينه سبحانه وتعالى وبين الذين نقضوا العهود ، فإنه شاء أن يسمى السورة «سورة التوبة» ؛ ليفتح لهم باب التوبة فقد يتوبون ويرجعون إلى الإيمان .

وقبل أن نصنف ما جاء فى سورة التوبة لبيان الموقف من المشركين ، والموقف من أهل الكتاب ، والموقف من المنافقين ، يحسن بنا أن نفصل الكلام فى مسألة التسمية ـ البسملة ـ لأنها شغلت بال العلماء كثيراً .

ونعلم أن «بسم الله الرحمن الرحيم» وردت فى القرآن الكريم مائة وأربع عشرة مرة ؛ منها مائة وثلاث عشرة مرة فى بداية السور، ومرة فى سياق آيات سورة النمل ؛ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) ﴾ [النمل]

وهى آية مجمع عليها، أنها آية من سورة فى القرآن الكريم، ولكن ماذا عن

البسملة فى أوائل سور القرآن الكريم ؟

اتفق العلماء على أنها آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن كان الخلاف بينهم حول: هل هى آية من كل سورة ؟ واتفق الجمهور على أنها آية قد نزلت للفصل والابتداء ، ولا يصح أن نقول : إنها للفصل فقط ، بل نقول : هى للفصل والابتداء، وهناك من يقول : إنها فى الفاتحة للابتداء ، أما الفصل فلا يوجد قبل الفاتحة سورة أخرى فى المصحف ، وعلى ذلك فهى للفصل بين الفاتحة وسورة البقرة . ولمثل هذا القائل نرد قائلين : إن المدقق فى علوم القرآن الكريم يعلم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول ، فالمصحف له ترتيب ، والقرآن نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفاتحة ـ على سبيل المثال ـ نزلت بعد سورة المدثر ، فهى فاصلة بين المدثر والفاتحة .

وحين تتصفح المصحف الشريف نجد أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة، ولكنها ليست آية من كل سورة . ففى ترقيم آيات الفاتحة نجد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الآية الأولى . ونجد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾هى الآية الثانية ، بينما فى باقى السور، تجد أن الآية الأولى تبدأ بعد قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك لأن جمهور العلماء عدّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية فى سورة الفاتحة .

وجزى الله خيراً صاحب المعجم المفهرس الذى وضع معجماً لآيات القرآن الكريم بحيث إذا أحببت أن تعرف موقع آية فى المصحف تستطيع أن تحصل على موقعها بين الكلمات فى هذا المعجم ، إلا أنه من عجيب الأمر واستيلاء النقص على البشر، شاء الحق تبارك وتعالى لهذا الرجل الطيب الباحث ، أن ينسى وضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فى الإحصاء ، وجاء بكلمة الله فى ٩٨٠ آية بالرفع ، ٩٢ آية بالنصب ، ١١٥٢ آية جاءت فيها كلمة الله بالجر، وتنقص آيات الجر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تقول من بعد ذلك : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لأن القرآن قد بدأ مقروءا باسم الله ، وكذلك يبدأ

متلوا باسم الله ، وها نحن أولاء مع رسول الله حينما كان فى غار حراء يتعبد ، وجاء له الوحى فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ [العلق]

واقرأ تتطلب أحد أمرين ؛ الأمر الأول هو أن يكون المتلقى لها قد حفظ شيئا فيقرأه .

والأمر الثانى أن يكون أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيقرأه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده محفوظ ، ولم يكن أمامه مكتوب . فضلاً عن أنه صلى الله عليه وسلم كان لايعرف القراءة والكتابة . ولهذا تساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء . وكان صلى الله عليه وسلم منطقيا مع نفسه فى هذا الرد . وقال الملك جبريل ثانيا: اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

أتعرفون لماذا كان هذا التكرار ؟ كان ذلك فى فحواه ردا على شعوذة أثارها خصوم الإسلام وأعداؤه بعد مجىء رسالة الإسلام بأربعة عشر قرنا ؛ حينما قالوا : إن القرآن هو بعض من وساوس وأحاديث فى نفس محمد . لكن ها نحن أولاء أمام الرد . لقد جاء الملك جبريل ليقول لمحمد : «اقرأ» وها هو ذا رد محمد «ما أنا بقارىء» .

إننا إذن أمام شخصيتين متميزتين ، شخصية آمرة جازمة ، وشخصية متمنعة ، فلو كانت المسألة مسألة حديث نفس أو وسوسة ، لما كان هناك سبب لوجود الشخصية الآمرة ، ووجود الشخصية الثانية الممتنعة ، وكل شخصية منسجمة مع صفاتها وقدراتها ، فالشخصية التى تقول: «اقرأ» هى الآمرة بالقراءة . والشخصية التى تقول «ما أنا بقارىء» هى شخصية تعرف الأسباب وقدر الأسباب وتعرف مواقعها من الأمية . إذن فهنا شخصيتان متميزتان لا شخصية واحدة .

وحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنا بقارىء» فهو منطقى مع نفسه ومع الواقع . وحين يقول الملك جبريل مبلغا عن ربه : ﴿اقرأ﴾ فهو يُقْرِئُه باسم ربه ، لا لأنه قارىء ولا لأنه كاتب . كأنه يقول له : إنك يا محمد ستقرأ باسم ربك لا باسم تعليمك . ويتابع الوحى : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق﴾ فكما خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان بقدرته من علق ؛ هو قادر على

أن يجعلك يا محمد تقرأ ، وإن لم تتعلم القراءة . وهـذا ليس بالأمر العـزيز أو الصعب على الخالق ، اقـرأ بـاسم ربك ؛ لا بـاسم أنك قـد تعلمت ، فـربك هـو الـذى خلق الإنسان من علق ، وربـك هو الأكرم ، الـذى علم بالقلم وعلم الإنسـان ما لم يعلم ، فأنت لن تقرأ مما تعلمته من البشر، ولكنك تقرأ مما تعلمته من خالق البشر.

ونحن فى موقف مع رب الأسباب : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ٣]

والإنسان منا حين يتعلم القراءة والكتابة فهو يتعلمها من إنسان مثله ، وهى دليل على كـرم الله تعالى لأنـه نقلها مـن إنسان إلى إنسان ، ولكن حين تتعلم من غير ذلك فهذا هو الموقف الأكـرم . إذن فهناك «كريم» وهناك «أكرم» كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد : أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمـت ولا باسم أنك حافظ ، وإنما تقرأ باسـم ربك ، وإن لربك مطلق القدرة إذا أراد شيئا فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إذن فقد قرأ الـرسول صلى الله عليه وسلم القرآن أولا باسم الله ، ونحن نتلوه أيضا باسم الله . ولابـد أن نأخذ «بسم الله» من زاويتين : الزاويـة الأولى هى فيها نلحظه من لغة البشر، فإذا ما تكلم إنسان فى أمر من الأمور ويريد إقناعك بـه وتأييدك له فأنت تقول له : باسم من تتكلم ؟ ..

فيقول لك : أنا أتكلم يا سيدى باسم السلطة . وقد تكون هذه السلطة هى النيابة أو الشرطة أو الضرائب . إذن جاء لك بالصفة التى يتكلم باسمها .

ونحن فى هذه الحياة المعاصرة تجد الحاكم مثلاً يفتتح خُطَبَه قائلا «باسم الشعب» ويكون ذلك هو مدخل الحاكم للحديث فى أى أمر.

والزاوية الثـانية هى أنك حين تتكلم باسم الله فأنت تعـرف أى قدرة مطلقة تقبل على العمل بها . فأنت تذهب إلى الأرض لتحرثهـا ، فتعطيك الزرع ، وأنت تعلم أنك لم تخلق الأرض ، ولا تعرف عـدد العناصر التى فيها ، وأنت كـذلك لم تخلق البـذور التى تبـذرهـا فى الأرض ، ولا أنت الذى ستنـزل الماء من السماء لتروى الأرض . كل مـا فى

الأمر أنك حرثت الأرض ، أى أنك أعملت فكرك المخلوق لله فى المادة المخلوقة لله بالطاقة المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

إذن فأنت حين تقبل على الزراعة تعرف حدود قدرتك وتعرف مطلق قدرة الله سبحانه وتعالى فتقول: «باسم الله» وهذا يعنى ضِمْناً أنك تقول : أنا لا أقدر على أن أزرع باسمى لأنى لم أخلق الأرض ، ولا أنزل المطر ، ولا أنا خالق البذور ، ولا قدرة لى لأرغم الأرض على أن تنبت الزرع بأنواعه المختلفة .

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه عندما يقبل على أى عمل من الأعمال : ما هى قدرتى التى ترغم العمل على أن ينفعل ؟ لا توجد للإنسان أى قدرة ولكن هى قدرة التسخير التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل الكائنات التى تنتفع بها أيها الإنسان . لذلك فمن حسن الأدب مع الله أن تدخل على كل عمل قائلا : أنا لا قدرة لى عليك إلا باسم الله الذى سخرك لى وأمرك ألا تخرج عن طاعتى.

وعلى سبيل المثال : هل يمكننا أن نؤثر فى حركة الشمس ويكون فى استطاعتنا أن نقول لها : أشرقى ؟ . نحن لا نتحكم فى الشمس ولا فى القمر ولا فى الهواء ولا فى النجوم . إذن . فمن حسن الأدب مع الله تعالى أن تدخل على كل ذلك باسم الذى سخر هذه الكائنات لخدمتك . وانظر دائما إلى من سخر لك جميع الكائنات لتكون فى طاعتك .

عليك أن تعرف أنك بلا قدرة على شىء ، وأنك لن تقدر على أى شىء إلا بقدرة الله تعالى وأنت إن أقدمت على أى عمل ، وليس فى بالك الله المسخِّر له ، واحتفظت فى بالك فقط بالنتيجة التى يحققها لك هذا العمل ، فاعلم أن هذا هو أول فارق بين المؤمن والكافر . فالكافر هو الذى يدخل على أى عمل وهو ناظر فقط إلى فائدته المجردة سواء أكانت زراعة أم صناعة أم طعاما أم شرابا . أما المؤمن فهو يعلن دائما الولاء لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقوم إلا بالعمل الذى أباحه الله له . إنه يضع الله دائما فى قلبه وفى باله وذلك يكسبه فائدتين ، الأولى : هى الوصول والحصول على نتيجة هذا العمل ، مثله فى ذلك مثل الكافر ، والفائدة الثانية هى الثواب الذى يناله

المؤمن فى الآخرة . إنـه يستفيد من عطاءين لا من عطاء واحد . ولـذلك يقول الحق سبحانـه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ (١) ﴾ [سبأ]

والمؤمن ساعة يرى نتيجة عمله فى الدنيا لصالح نفسه فهو يقول : الحمد لله. وساعة يرى عطاء الله له فى اليوم الآخر من حسن الثواب فهو يقول أيضا : الحمد لله. الحمد لله أولا والحمد لله آخرا .

اذن فساعة تقول : ﴿ بِاسم الله ﴾ وأنت مقبل على أى عمل . فأنت تعترف أنك تدخل على العمل بلا حول منك ولا قوة ولا طول ، وإنما بيقين أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسخر لك هذا العمل . ولو لم يسخر الله لك ما أمامك من كائنات لما انفعلت لك ، أو أعطت ثمرة .

وأنا لا أمل من ضرب هذا المثل من الأنعام ، تلك الأنعام التى يستأنسها الإنسان بإرادة التسخير التى خلقها الله تعالى ، فهناك بعض من الحيوانات التى لا نستطيع أن نستأنسها : نحن نستأنس الجمل ، وقد نستأنس الفيل ، ولكن لا يستطيع أحد منا أن يستأنس ثعبانا صغيرا أو ذئب لأن الحق ترك هذه الكائنات منطلقة ولا يستطيع الإنسان أن يستأنسها ، حتى يعلم الإنسان أنه لا حول له ولا قوة ، وأنه لو لم يذلل الله له بعضا من الحيوانات ، لما استطاع أن يذلل أى شىء منها ، والدليل على هذا هو وجود حيوانات لا نستطيع أن نذللها ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

إذن فلو لم يذللها الله تبارك وتعالى لما استطعنا نحن تذليلها ، وترك الله بعضا من الوحوش غير مستأنسة ليخبرنا أننا لا نملك مطلق طاقة التذليل والتسخير ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق طاقة التسخير والتذليل فيما يشاء لمن يشاء . وهذا تنبيه واضح للإنسان حتى لا يضل وحتى لا يأخذه الغرور . فإذا أقبلت على أى عمل

باسم الله، فكأنك دخلت على العمل باسم من سخر لك الكائنات لتنفعل معك .

وقد يقول قائل : ولكن الكائنات أيضا تنفعل للكافر الذى لا يقول : ﴿ باسم الله ﴾ . ونقول : إن الكافر لا يأخذ إلا نتيجة العمل فقط . أما المؤمن فهو يثاب على عملية استحضار الله فى باله مع الجزاء بنتيجة العمل ذاته .

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء فى الكون ويفلتها من قانونها الذى وضعه لها ، فالسنن فى الكون موجودة ولكن الله يأمر هذه السنن أن تخرج على قوانينها . لماذا؟ . ليعلمنا سبحانه الفرق بينه - وهو الحق - وبين الخلق . إن الحق يطلق القانون ويقيده ويفلته كما يشاء ، والخلق يصممون القانون لعمل ما ، ولا يستطيع الشخص أن يتجاوز به حدود ما صنع له .

فسبحانه وتعالى قد وضع نواميس للكون ، ويخرق سبحانه هذه النواميس فى بعض الأحيان حتى يلفت نظر الناس إلى أنه القائم على هذا الكون . مثال ذلك أننا نجد المطر ينزل دائما فى مكان ما من الأرض ، وبعد ذلك يصيب هذا المكان الجفاف ، وهذا خروج عن الناموس . هو بذلك يلفتنا إلى أن الكون لا يخضع للناموس ، ولكنه خاضع لإرادة خالق الناموس . والحق سبحانه وتعالى يخرق الناموس ليلفتنا إلى مطلق قدرته . انه يلفتنا لنعرف أن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لها مدلول فى الكون .

ومثال نراه فى حياتنا على خرق الناموس ، نحن نعلم أن التكاثر يحدث فى الإنسان من زواج رجل بامرأة ، ويريدان الإنجاب . لكن الحق سبحانه هو الذى يحدد عطاء النوع ذكرا أو أنثى أو لا يعطى حسب مشيئته : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إن الرجل والمرأة موجودان ، ولكن الناموس لا يتصرف بمشيئته ، ولكنها إرادة خالق الناموس .

والحق سبحانه وتعالى يضرب أكثر من مثل على ذلك . ونعرف حكاية سيدنا زكريا

وكان يكفل مريم عليه وعليها السلام ، ويأتى لها بالطعام والشراب فدخل عليها مرة فوجد عندها لونا من الطعـام لم يكن قد أتى به ، فقال لها تلك المقـولة المشهورة التى تعلمنا كيف ندير أمور حياتنا بلا فساد أو سماح بفساد لأبنائنا وبناتنا ، قال لها :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إنـه يعلمنا الـرقابـة على من نكفلهم ، ففساد البيـوت ينشأ من عدم الـرقابـة على الأولاد ، فالأم إن رأت قلم حبر فاخراً ـ على سبيل المثـال ـ مع الابن ولم يحضره له أبوه ولم تسأله «من أين لك هـذا ؟ » فهذا تستر على فساد فى الابن وقـد يكبر فى الفساد من بعد ذلك . والأم إن رأت بعضا من الملابس التى لم تحضرها لابنتهـا ، والابنة ترتديها ؛ عليهـا أن تسأل وتـدقق بأسلـوب «أنَّى لكِ هـذا ؟» حتى لا تنحـرف الابنـة، ولـو أن الزوجـة تنتبه إلى اسلـوب تصرف زوجها وإنفـاقه الـذى قد يفوق مرتبه كثيرا وتسـأله بحسم : «أنى لك هذا ؟» فهى تحمى زوجها وبيتها من المال الحرام .

إن مبدأ «أنى لك هـذا ؟» لو سيطر على المناخ العـام للمجتمع لامتنع الفساد من جذوره . وقد أطلق الحق هـذا التساؤل على لسان سيدنا زكريا عليـه السلام لمريم بعد أن كفلها : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

هنا قالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : ٣٧]

إذن واجه سيدنا زكريا خرقا سماويا للناموس.

وكان زكـريا عليـه الـسلام يـريد لنفسـه أن يدخل ضـمن دائرة: ﴿إن الله يـرزق من يشاء بغير حسـاب﴾ فدعـا ربه أن يـرزقه غـلاما رغم أنـه قد بلغ مـن الكبر عتيا، وأن زوجه عاقر ، ما دام الحق يرزق من يشاء بغير حساب فليدع الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٨]

وجاءت البشارة من الله تعالى بيحيى ، وتحقق لزكـريا ما آمن به من أن الله سبحانه وتعالى يـرزق من يشاء بغير حساب . ولنا أن ننتبـه إلى أن هذه المسألة جـرت بين يدى

سيدتنا مريم ، ذلك أن مريم ستتعرض لمحنة لم تتعرض لها امرأة فى العالم ، فأراد الله عز وجل أن يؤنس بشريتها حتى لا تتزلزل أفكارها ويعلمها أن تقول : ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ وفى ذلك إيناس لمريم لما سيجرى عليها من خروج على الناموس فتلد من غير ذكر . لقد عرفت أن الحق يرزق من يشاء بغير قانون ، ورأت أمامها تجربة زكريا عليه السلام عندما أعطاه الله الولد بعد أن جاء على لسان زكريا :

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨]

ورأت مريم أن ذلك على الله هين :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : ٩]

وعندما يأتى لها الملك متمثلا فى هيئة البشر ليبشرها بغلام ، تقول :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠]

يقول الملك : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم : ٢١]

وتلد مريم الولد ، وهكذا خرق الله بقدرته الناموس .

ونتذكر أن الحق سبحانه وتعالى حين كرر الاصطفاء لمريم فى القرآن الكريم كرره لحكمة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فالاصطفاء الأول هو اصطفاء قيمى تدخل به فى دائرة المُصْطَفَيْن الأخيار ، والاصطفاء الثانى لمريم عندما ولدت دون أن يمسها بشر؛ لذلك كان اصطفاؤها على نساء العالمين ، فكل امرأة تلد بوساطة رجل ، أما مريم فقد اصطفاها الله عز وجل لتلد دون رجل . ولهذا حدد الله أشخاص هذه القصة؛ لأن امرأة أخرى لن يحدث لها مثل ذلك ، ولكن بعض قصص القرآن الكريم لا يأتى فيها تحديد لأشخاص مثال ذلك قصة أهل الكهف . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣]

لم يحدد الحق سبحانه وتعالى أسماءهم أو عددهم، وذلك لأن عدد أهل الكهف ليس له قيمة في مغزى القصة، وكذلك لم يحدد البلد الذي كانوا فيه أو العصر الذي عاشوا فيه. ولم يأت الحق عز وجل هنا بتخصيص وتحديد أسماء أهل الكهف؛ لأنه لو فعل لقال قائل: هذه خصوصية هذه الأسماء فلا تتكرر في الدنيا، لكن عندما تركها الحق هنا دون تشخيص ولا تحديد للعدد ولا لزمان هؤلاء الفتية، فهذا معناه أن هؤلاء الفتية أرادهم الله مثلا في الكون، يتأتى من أي فتية بأي أسماء في أي زمان وفي أي مكان، فالإبهام هنا فيه مزية لفائدة القصة. لكن حين يريد الله عز وجل تحديد أشخاص تجده على سبيل المثال يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾ [التحريم]

لقد حدد الله تعالى زوجتين لاثنين من أنبيائه، وكل منهما استقلت بعقيدتها وما استطاع نبي أن يهديها، وأيضا امرأة فرعون آمنت رغم أن فرعون ادعى الألوهية ولكنه لم يستطع أن يقنع امرأته بالإيمان به. يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

إذن هي امرأة مؤمنة لها عقيدتها المستقلة، لكن حينما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم جاء بالتحديد والتشخيص، فلم يذكر اسمها فقط، بل ذكر اسم أبيها أيضا فقال: مريم ابنة عمران. ويأتي القرآن الكريم لقصة ذي القرنين، وعندما سألوا عن اسمه لم يذكر اسمه، بل قال في بيان أوصافه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)﴾ [الكهف]

لقد أراد الله سبحانه وتعالى هذا الإبهام، وإن سألك أحد: من هو ذو القرنين؟ فلك أن تجيب أتريد أن تفسد على القرآن مراده؟ إن المراد من القصة القرآنية هو ما جاء في القرآن، وأراد الحق أن يظل اسمه مبهما، إنه رجل ممكن له في الأرض، آتاه الله تمكينه

وأحاط نفسه بالطيبين ، وأبعد عنه أهل السوء ووفقه لإعانة الضعفاء ، وهذا المثل لابد أن يظل مع الناس طوال الزمن ، ونقول : الحق سبحانه وتعالى حين يبدأ قرآنه بقوله :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

فعليك أن تبدأ قراءة القرآن الكريم بها وأن تتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]

لأن كل عمل يبدأ بغير اسم الله هو عمل ناقص ، حتى لا يصادفك الغرور والطغيان وتتخيل أنك أنت الذى تسخر المسائل لتنفعل لك ، وهكذا تفتقد التصور الحق لقدراتك ، وأنت ساعة لاتذكر اسم الله تعالى فى بدء العمل فمعنى هذا أن الله ليس فى بالك ، ولايكون لك على هذا العمل جزاء فى الآخرة ، وقد تأخذ عطاء العمل فى الدنيا ، ولكنه حجب عنك ومنعك عطاء الآخرة . أما الذى يريد عطاء الآخرة فعليه أن يقول دائما : «بسم الله الرحمن الرحيم» فى بدء كل عمل ذى بال يقوم به . وذلك يبقى كل عمل بعطائه فى الدنيا وحسن الجزاء عنه فى الآخرة.

يتزوج المرء باسم الله وينكح باسم الله ، وما دمت تدخل عليها باسم الله فأنت إذن تستطيع أن تميز الحلال عن الحرام ، ولن تبدأ أى عمل باسم الله إلا فيما أباحه الله عز وجل ، فالإنسان لايمكن أن يسرق أو يقبل الرشوة باسم الله .

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله فأنت تعرف أن الحق معبود ، وله أوامر بـ «افعل» وله نواه بـ «لاتفعل» وإياك أن تستحى إن كنت عاصيا أن تستفتح أعمالك باسم الله ، لأن الله لا يحقد على خلقه ولايتغير على خلقه ولاينفض يده من أمور خلقه ، فإن كنت قد عصيت الله فى شيء فأقبل على عملك باسم الله لأنه رحمن ولأنه رحيم . فهو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصى ، فمعنى ذلك أنه أذن بأن تقع تلك المعصية . فإن كنت قد عصيت الله وتخجل من أن تبدأ عملك «بسم الله الرحمن الرحيم» فتذكر أن الحق تبارك وتعالى «رحمن» و«رحيم» ونعرف أن الاشتقاق

(١) السيوطى فى الجامع الصغير، وابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو أجذم» .

فى «رحمن» و«رحيم» من الرحم ،والرحم هو مكان الجنين فى بطن أمه ، وهو منتهى الحنان. ولذلك جاء فى الحديث القدسى عن صلة الرحم : وفيه يقول الله عز وجل :

(أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى
فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1]

(حديث قدسى)

إذن فكلمة «الرحمن» وكلمة «الرحيم» مأخوذتان من الرحم، والحق حنّان على عباده، وعطوف عليهم ، ولذلك فالعاصى لا يصح أن يستحى أن يهتف ﴿باسم الله﴾ وأن يقول فى بداية أى عمل يشرع فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إنه بذلك يمنع عن نفسه الغرور بأنه قدر بذاته ، بل إنه قدر على الأمر بالتسخير منه سبحانه وتعالى ولا يحرم نفسه الثواب عليه فى الآخرة ، وحين يقول المؤمن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو يدخل فى حماية الله ، وإذا قيل «رحمن» فهى مبالغة ، وإذا قيل «رحيم» فهى مبالغة .

لكن إياكم أن تفهموا أن صفات الله عز وجل تتأرجح بين القوة والضعف ، فمرة يكون راحما ومرة يكون رحمانا ومرة يكون رحيما، لا، لأن صيغ المبالغة إنما تأتى فى الأغيار، ويقال : فلان عالم وفلان علاَّم أى أكثر علماً من العالم ، وفلان علاَّمة أى أكثر علما من العلاَّم ، فالصفات فى البشر تتغاير، لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تضعف صفة وتقوى أخرى . وإنما متعلقات الصفة هى التى تكثر أو تقل . فأنت تقول : فلان آكل ، وفلان أكَّال وفلان أكُول . والأكُول لا يأكل رغيفاً واحدا على سبيل المثال مثل الآكل ، لكنه قد يأكل خمسة أرغفة فى المرة الواحدة ، والأكَّال قد يأكل خمس مرات بدلا من ثلاث ، فالمبالغة تأتى مرة فى الحدث وهو هنا الأكل ، ومرة تكون المبالغة فى الفعل.

أقول ذلك حتى نعرف أن الصفات فى البشر ـ وهم أحداث ـ تتغاير ، أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فهو لا يتغير ولا تتغير صفاته ، بل تضعف متعلقات الصفات

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى .

أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا . لذلك فرحمته واسعة ، وهو رحيم في الآخرة لأنه يرحم المؤمنين في الآخرة . فالله لا يتغير من أجلنا ولكن نحن الذين نتغير ويجب أن نتغير من أجل الله تعالى . لو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذي فيعصيه وهو ستار يعصيه العاصي ويستره ، وهو حليم لا يتغير.

وحين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن الكريم بقول :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

فلنعرف أن ذلك مطلوب منا في قراءة القرآن الكريم وفي أي عمل آخر نقوم به ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي سخر لنا كل شيء ، ولولا تسخيره لما استطاع أحد منا أن يفعل شيئا ، ولأن الله يريد ألا يكون عمل الواحد بلا ثواب حتى إتيان الزوجة وأنت تنوي إعفاف نفسك وإعفافها أو تنوي الذرية الصالحة فلتبدأ ذلك باسم الله تعالى ، وبذلك يكون لك الثواب .

يقول صلى الله عليه وسلم ضمن حديث له : وفي بضع أحدكم صدقة . وقد قالوا له : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له فيها أجر»[1]

ولذلك كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله هو أبتر، ومعنى ذي بال أي عمل يقدم عليه الإنسان بفكر، لكن الأعمال التي تمر على الخاطر فقد ينسى الإنسان أن يبدأها باسم الله فهي مغفورة له لأن الإنسان منا له ثلاث نسب في كل موقف: نسبة ذهنية ؛ نسبة كلامية ، ونسبة خارجية . مثال ذلك إن عطش الإنسان فإن النسبة الذهنية التي تجيء إلى الذهن «إنني أريد كوب ماء» وهنا يقول الإنسان : «أعطني كوب ماء» وهذه النسبة كلامية ، وعندما تأتي بكوب الماء إلى العطشان فهذه نسبة خارجية .

والنسبة الخارجية إنما تنشأ من النسبتين الأوليين ، وكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو نسبة كلامية ولم يخطر على بالك بنسبة ذهنية فهو أمر غير ذي بال .

(١) رواه الإمام مسلم .

وهَبْ أن المصباح الكهربائى الذى ينير لك ليلا انكسر فجأة ، فقلت: «ياستار» ولم تقل ﴿باسم الله﴾ وابتعدت عن مكان الخطر، هذا العمل لم تكن له نسبة ذهنية »،لذلك فهو أمر غير ذي بال ، أما الأمر ذو البال فإنك تأخذ عليه عطاء الدنيا وتأخذ عليه الأجر والثواب فى الآخرة إذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وبعضنا يلحظ أن الكافر يقبل على الأرض ويحرثها وتعطى له ويأخذ المحصول لكنه لا يأخذ الثواب مع المحصول ،ولذلك يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى التى ابتدئت بها سورة فاتحة الكتاب وابتدئت بها كل سورة من سور القرآن الكريم إلا السورة التى نحن بصدد خواطرنا عنها وهى سورة التوبة .

ونجد فى التسمية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «ثلاثة أسماء لله : الله والرحمن والرحيم» و«الله »علم على الذات وهو واجب الوجود بكل صفات الكمال فيه . و«الرحمن» تبين مجالا لأفعال الله وصفاته . و«الرحيم» تبين مجال عطائه لنا فى الآخرة . وبما أننا لا نملك سيطرة على أى جنس من أجناس الكون إلا بأن يسخره الله تعالى لنا ليخدمنا ؛ إذن فمن الطبعى أن تقبل أيها الإنسان على التفاعل مع أى شىء فى الكون ، وأن تبتدىء ذلك باسم الذى سخر لك هذا الشىء ؛ لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك ، فليس لك قدرة إلا فى حدود ما منحه الله لك ، ولا تدخل على أى شىء بعلمك ؛ لأنه لا علم لك إلا ما علمك الله . وعليك أن تتذكر هبه الله لك وأن تقول : «إننى أقبلت يارب على هذا الفعل لا بقوتى ولا باقتدارى ولكن باسمك أنت سبحانك أنت الذى سخرته لى» وحين يقبل الإنسان على أى عمل باسم الله ، فالله يعطيه خير ذلك العمل ويبارك له فيه

صحيح أن الأشياء تنفعل أيضا للكافر حين يُقبل عليها دون أن ينطق ويقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكم ربوبيته لكل الخلق .. مؤمنهم وكافرهم ، وهو الذى استدعى الخلق الى الكون ؛ لذلك جعل الكون يعطى المؤمن والكافر، وقولك أيها المؤمن فى بدء أى عمل : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعتبر حركة عبودية لك فتذكر نعمة الله لك فى التسخير، وهى إن لم تزدك عن الكافر شيئا فى

انفعـال الأشياء لك ، فهـي قد ضمنت لك ثـواب تـذكـرك لنعمة الله تعالى ولا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب .

وإذا نظرنـا إلى اسم الله فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وجدنـا أن «الله» هو اسم علم على واجب الوجود وله صفـات كثيرة ، هذه الصفـات أصبحت فى مجال الأسماء الحسنى لله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

ولنوضح ذلك : أنت فى حيـاتك اليوميـة قـد تلتقى بإنسـان حليم ذى أناة ووقـار، فتصفه بأنه حليم ، وتقابل إنسانا له ثـراء فتقول : فلان غنى ، وتلتقى بإنسان له حكمة فتقول : فلان حكيم ، وأنت تلحظ أنه لابد من وجـود موصوف لتصفه ، أما حين نطلق الحكمـة والغنى والحلم فهى لاتنصرف عن إطـلاقهـا إلا لله. فإن قلت: «الحكيم» على إطلاقـه و«الرحيم» على إطـلاقه و«الغنى» على إطـلاقه فهى كلهـا تنصرف إلى الحق عز وجل . وكـذلك الـرحمة على إطـلاقهـا تنصرف إلى الله تعـالى : فـالـرحمة فى كل راحـم فى الأرض هى بعض هبـات الـرحمة الهابطـة من الله تعـالى إلى الخلق . وتتسـامى الـرحمة فى الرحماء فى الدنيا إلى أن تتصل بالرحيم الأعلى سبحانه وتعالى .

إذن فهو سبحانه وتعالى ينبـوع الرحمة . وإذا أطلقت كلمة «الرحيم» انصرفت لله تعالى ، أما إذا كنت تصف بها إنسانا فهى محدودة ونسبية . هذا بـالنسبة لأسماء الله التى هى صفاته ، أمـا اسم «الله» فهو لايعطى صفة وإنما يعطى ذاتا موصـوفة بصفات الكمال ، ومادام علما على واجب الـوجود ، فـلا يطلق على غيره . ومن قدرة الله تعالى أن أحدا لا يجرؤ أن يسمى نفسه أو أحـد أبنائه باسم «الله» إنما ظل هـذا الاسم الكريم من قبل ومن بعد الإسلام علماً على واجب الوجود وهو الحق الأعلى .

إننا نجـد النـاس تطلق على ذريتهم أسماء، منهم من يسمى ابنه «محمدا» ولايسمى ابنه التـالى بنفس الاسم ، فكلمة «محمد» أصبحت مشخصة لـلابن الأول ، لكن بعضا من أهل الـريف من يحب التفـاؤل بـاسم «محـمـد» لأنه اسم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ فيسمى ابنـه الأكبر «محمد الكبير» ويسمى ابنـه التـالى «محمد الصغير» ويتمايـز الأبناء أصحاب الاسم الواحد بأوصاف أخرى مثل: «محمد الطيب» و«محمد الطاهر» .

إذن فإطلاق الأسماء على المسميات أمر شائع فى دنيا الناس وليس بعجيب . لكن الله حين اختار لنفسه اسما هو علم عليه وحده وهو «الله» وهو الدال على صفات الكمال فيه سبحانه وتعالى . لم يجرؤ أحد الكافرين أن يسمى تابعا له بهذا الاسم . ورغم أن الكفار معارضون ومعاندون لكلمة الإيمان ، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ أن يقول : «مادام الله قد سمى نفسه بهذا الاسم فأنا سأسمى هذا الشيء «الله» . ولهذا قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

ويهيج الحق جل وعلا فى الكافرين غريزة التحدى ، حتى لايقال : لم نُهَجْ ولم يطرأ هذا الأمر على بالنا ، وجعلها الحق واضحة أمامهم وعلى بالهم وقال سبحانه:

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء واحد منهم وقال :

- سأسمى ابنى «الله» .

لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يدخل نفسه فى التجربة ، مما يدل على أن أى كافر بالله أو مشرك به إنما يعبد وهما ، لا يقينا ، ذلك أنه لو كان مؤمنا بما يعبد من غير الله لأطلق هذا الاسم على أى مخلوق وليعاش فى حماية من عبده ، ولكن أحدا من الكافرين لم يجرؤ على ذلك قبل نزول القرآن أو بعده ؛ لأن الناس لم يتجهوا إلى هذا اللون من الفكر ، فها هو ذا القرآن الكريم قد نزل وواجههم بالتحدى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

إن هذا يدل على أن الذين يعبدون شيئا غير الله لا يثقون فى ذلك الشيء أبدا ولو كانوا واثقين فيه بحاله لقالوا : نحن نقولها ونسمى الأشخاص أو الأشياء بها ونحن مطمئنون إلى أن هذا الذى نعبده يحمينا ، ولكن أحدا منهم لم يفعل ذلك .

ومن بعد ذلك يأتى فى «بسم الله الرحمن الرحيم» اسمان من أسماء الله تعالى هما «الرحمن» و«الرحيم» وأنت حين تبدأ عملا «بسم الله» فأنت تؤمن يقينا أنك تبدأ باسم

من يعينك على فعلك ، فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة . فأنت تقول : «باسم القوى» حتى يمدك الحق بأسرار صفة القوى ، وإن كنت تريد علماً ؛ فأنت تقول: «باسم العليم» ومن يريد الحكمة عليه أن يقول: «باسم الحكيم» . ومن يريد أن يعينه الله على قهر عدوله ، عليه أن يقول «باسم القهار» . وأنت حر فى أن تبدأ عملك بأى اسم من أسماء الله لتقبل على حركتك فى هذه الدنيا لتنفعل لك ، ولكن الأفعال لاتقتصر على مسيل صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة فى كل فعل ، فأى فعل مهما بدا تافهاً فى حدود تصورك أنت ، يحتاج إلى صفات متعددة ؛ يحتاج إلى القدرة وإلى الحكمة وإلى الأناة والحلم وإلى غيرها من الصفات .

وحتى لا يثقل الله عليك لتكرر الصفات التى تعينك فى مجالات العمل المختلفة ، فقد علمنا المولى سبحانه وتعالى الاسم الذى يجمع كل المجالات ، إنه «الله» فإذا قلت: «باسم الله» فكأنك قلت «باسم القوى» و«باسم العليم» و«باسم الحكيم» و«باسم الرحيم» و«باسم المهيمن» و«باسم القادر» و«باسم القاهر» ، كأنك ابتدأت وسمّيت بكل أسماء الله الحسنى ؛ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نبتدىء كل عمل لنا ذى بال بقولنا : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيجب أن نستثمر هذا الأمر ونزيده بأن نستدرك ما فات من نعمة البدء بالتسمية وباسم الله على كل عمل لم نبدأه بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وهذا اسمه : «بسم الله «قضاء» ، فأنت بذلك تقضى ما عليك مما فاتك من بدء أعمالك السابقة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وتضيف أيضا : وبسم الله عن كل عامل نسى أن يقول عند بدء عمله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فتكون قد أديت عن نفسك فى الحال وأديت عن نفسك فى الماضى ، وحملت عن أخيك الساهى عن التسمية ، وهنا يعطيك الله سبحنه البركة فى كل ما تأتيه مضاعفاً بنيتك فيه .

ولذلك نحن نسمع بعض الأئمة حين ينوى الصلاة يسرّ بالتسمية وبعد ذلك يقرأ الفاتحة جهراً ابتداء بقول الحق:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]

والعالم من هؤلاء يبدأ الصلاة بالتسمية سرا ، لأن الصلاة عمل ذو بال وكل شيء ذي بال يجب أن يبدأه المؤمن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وذكر في الحديث القدسي :

عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل : حمدني عبدي، فإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : أثنى على عبدي ، فإذا قال: ﴿ مالك يوم الدين﴾ قال الله ـ عز وجل ـ مجدني عبدي ، فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال الله ــ عز وجل ـ : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[1]

ونلحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هي آية من آيات الفاتحة :

فكأن الحق سبحانه وتعالى حين بدأ القرآن بالفاتحة ، وبدأ الفاتحة .

بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ ﴾

بدأ بها لنتعلم أن نبدأ بها أي عمل ، وكل عمل هو إلى غاية ونتيجة .

وعلى ذلك فحين بدأ الحق تبارك وتعالى حديثه القدسي بحمد العبد لله ، فهذا يدل على أن فاتحة الكتاب شيء ، والتسمية الاستهلالية شيء آخر . إذن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من القرآن ولكنها ليست من نص السورة، لأن الحق سبحانه وتعالى عندما فصّل الحديث القدسي ، لم يأت بها ،ولذلك قال العلماء : إن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ليست من نص كل سورة في القرآن الكريم ولذلك يسمى الإمام بها في بعض الأحيان سراً .

ولنا أن نتذكر أن الحقّ سبحانه وتعالى اختص خلقه برحمته وأراد أن يرفع الحياء عن

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وبن ماجه .

العاصى لله ، فللعاصى لله حين يقبل على العمل أن يستعين بسم الله ، ولا يقولن واحد لنفسه خجلاً .. «أأستعين بمن عصيته وأغضبته» . لا يقولن إنسان لنفسه هذا ، فالحق سبحانه وتعالى رحمن ورحيم ، لذلك لا يصح أن تمنعك معصيتك لله أن تستهل كل عمل باسمه سبحانه وتعالى ، فقد جاء سبحانه بالحيثية لنا جميعا ، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيت لنا الدنيا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

إذن فنحن نعيش على رغم معاصينا فى مجالات جلالات الرحمن وجلالات الرحيم ، وعلينا أن ندقق النظر فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

والحق أيضا يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

والآيتان تتشابهان فى الصدر، وتختلفان فى العجز؛ لأن الآية الأولى جاءت فى سياق وتجليات الرحمة، وأما الآية الثانية فقد جاءت فى سياق جبروت العاصى الذى يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته .

فقد جاء قبلها قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾
[إبراهيم : ٢٨]

وهذا القول مناسب لظلم الإنسان لنفسه وكفره بنعم الله تعالى ، ولو أراد الإنسان أن يحصى نعم الله عز وجل فلن يحصيها لأن الله غفور رحيم ، والنعمة - كما نعرف - تقتضى ثلاثة عناصر، عنصر هو المنعِم ، وعنصر هو المُنعَم عليه ، وعنصر هو النِّعْمة ،

ونعلم أنَّ «إنْ» حرف شرط وتستعمل للأمر المشكوك فيه ، وهى غير «إذا» التى تستعمل للشىء المحقق، وحين يقول الله سبحانه وتعالى : «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» . فهذا شك فى أن يقبل أحد على عدّ نعم الله ؛ لأن الذى يمكن أن يقبل على إحصاء عددى لأمر ما ، هو من يظن أن هناك إمكانة للإحصاء . ولو حاول إنسان أن يحصى نعم الله تعالى لما استطاع ؛ لذلك جاء الحق هنا بـ «إنْ» فالإنسان قد يظن أنه قادر على إحصاء نعم الله لكن أحداً لن يستطيع ذلك .

ومن ناحية المنعِم ، هناك استدامة من المنعِم على المنعَم عليه ، ودليل ذلك أنه غفور ورحيم ولا يتخلى عن العاصين فيمنع عنهم النعم، فهو الذى استدعاهم جميعا إلى هذا الوجود . فسبحانه منعم على الإنسان والإنسان ظلوم كفار، ولكنه سبحانه غفور رحيم.

والآن إلى خواطرنا فى سورة التوبة التى رأينا أن نستلهمها مما تقدم من التحليق فى آفاق «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وسبحانه وتعالى قد صنف فى سورة التوبة المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وقد قلنا إن المنافق تتعاند ملكاته فهو يعلن إيماناً ويبطن كفراً ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ﴾ [البقرة]

وعندما تتعاند ملكات الإنسان يكون محتقراً بين الناس وبينه وبين نفسه. ولقد اتفق جمهور الفقهاء على أن من أسماء التوبة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين .

وقد روى سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ومازال ينزل : ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً.

وهؤلاء المنافقون منهم من قال فى غزوة تبوك :

﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبة : ٤٩]

ولقد قال القائل هذا القول طالباً الإذن بعدم الحرب متعللاً أن عيونه تلتفت للنساء ؛ ونساء الروم جميلات وهو يخشى على نفسه الفتنة ، فيرد الحق تبارك وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩]

وكذلك منهم من كان يعيب على النبي صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات ، ويقول :إنه يحابى البعض ولا يعطى الآخرين ، فجاء قوله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ٥٨]

ومنهم من ادعى على النبى صلى الله عليه وسلم أنه يعطى أذنه لأى إنسان ويحكم بما يسمع من طرف واحد ، وتسى أنه صلى الله عليه وسلم هو أذن خير، فاستمع بحق وكان لسان صدق فبلغ بحق ، لذلك جاء قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة : ٦١]

ومنهم ثعلبة الذى بخل بما أفاء الله تعالى عليه من خير وفضل وقد عاهد الله من قبل على البذل والعطاء عما يرزقه الله ويمنحه من فضل، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) ﴾ [التوبة]

ومنهم من كان ينفق مرغماً فى سبيل الله :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة : ٩٨]

ومنهم من كان منافقا فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة : ١٠١]

وهكذا كشف الحق سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين كل أصناف الأعداء ، لذلك أطلق على هذه السورة بأنها «الفاضحة» لأنها فضحت كل العيوب ، ولم تفعل ذلك ليشمت الناس بعضهم فى بعض أو ليتشفى الخلق فيما أصاب غيرهم من كشف وفضح ، ولكنها جاءت كذلك ليسلم الصف الإيمانى من لبنات الضعف فى تكوينه، وتعزل الضعف الإيمانى من صفوف المسلمين ، ولا يبقى إلا الإيمان الحق .
وقد سمى بعض العلماء هذه السورة «المقشقشة» لأنها تقشقش من النفاق أى تبرىء منه، وهذه السورة تزيح النفاق من أرض الإيمان. ومنهم من يسميها «المبعثرة»، والبعثرة لاتكون إلا فى شىء مُكَوَّم ،وعندما تأتِى لِلْكُومة وتبعثرها يظهر الشىء المخبأ فى وسطها فهى تبعثر أسرار المنافقين. وسميت «الحافرة» لأن الإنسان حين يحفر الأرض يُخْرج المخبأ فيها . وسميت كذلك بـ «المثيرة» لأنها تظهر ما خفى عن العيون، . وسميت «المدمدمة» و«المهلكة» لأنها أوضحت العقاب لكل مجرم ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٤]

وسميت «سورة العذاب» . لأنها تكشف ما فى الصدور وأعطت لكل عدو للإسلام جزاءه . وكشفت الستار عن أعماق كل منافق .وعن حذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هى سورة العذاب.

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكل اسم ملحظ، والحظ الوافر فى الأسماء للمنافقين : الفاضحة ، والمقشقشة ، والمبعثرة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمدمدمة ، والمهلكة ، وكل ذلك فى كشف المنافقين . وتبدأ السورة بكلمة «براءة» واسمها سورة التوبة ، بينما البراءة قطع ، فكيف يستقيم الأمر ؟

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق الخلق وجعل الإنسان خليفة ، وهو رب الكل، ولذلك فلله عز وجل عطاءان : عطاء ربوبية ، بمعنى خلق كل شىء، وملكية كل شىء، والتكفل برزق كل الخلق ، وفى هذا يستوى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، ومن يأخذ بالأسباب وإن كان كافراً أخذ من خير الربوبية ، وإن لم يأخذ المؤمن بالأسباب يظل متخلفاً ، هذا هو عطاء الربوبية ، أما عطاء الألوهية فهو فى

التكليف «افعل» و«لا تفعل» والتكاليف تختص بالعبادة .

إذن فالله رب الجميع لأنه هو الذي استدعاهم للوجود وضمن لهم مقومات الحياة .

والسورة تقول :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ ﴾

والبراءة ـ كما قلنا ـ هي انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

وهو أيضا يقول : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣]

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذي عهده رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهي بقطع هذه المعاهدة . وكلمة «براءة» تجدها في «الدَّيْن» ويقال : «برىء فلانٌ من الدَّيْن» . أي أن الدَّيْنَ كان لازماً في رقبته ، وحين سَدَّده وأدَّاه يقال : «برىء من الدَّين» . ويقال : «برىء فلان من المرض» إذا شُفِي منه أي أن المرض كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بينه وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يُوفِّ هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود . وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقض هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقضه لها إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت في العام الثامن من الهجرة ؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأصنام والوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير «المكين» وهو الإنسان الذي يحيا بجانب البيت

الحرام، وكان لابد من تصفية تجمل المؤمنين فى جانب ، والكفار وأهل الكتاب والمنافقين فى جانب آخر، وقد حدث هذا فى العام التاسع من الهجرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحاب العهود التى كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم لستم أهلاً للأمان ولا للوفاء بالعهود ؛ لذلك نحن قد قطعنا هذه العهود . وهذه القطيعة ليست من إرادة بشرية من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعالى ، فقد يجوز أن يعرف البشر شيئاً ويغيب عنهم أشياء . لكن العالم الأعلى قال : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى، ومبلغة من الرسول الخاتم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلة خزاعة ، وكانت هناك قبيلة مضادة لها اسمها قبيلة بكر متحالفة مع قريش . وقد أعانت قريش قبيلة بكر على قبيلة خزاعة ، فذهب إلى المدينة شاعر من خزاعة هو عمرو بن سالم الخزاعى وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يارب إنى ناشدٌ مُحَمَّدا •• حلف أبينا وأبيه الأتلدا

كُنت لنا أباً وكنّا ولدا •• ثُمّتَ أسلمنا ولم ننزع يدا

فانصر هداك الله نَصْراً عتدا •• وادع عباد الله يأتوا مددًا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا •• ونقضُوا ميثاقك المؤكّدا

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا •• وقتلونا رُكّعاً وسُجّدا

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال : نصرت يا عمرو بن سالم ، لانصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشركون هم الذين نقضوا العهد أولاً، وصاروا لا يؤمن لهم جانب لأنهم

لا يحترمون عهداً أو معاهدة ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

الخطاب هنا للمسلمين ، والبراءة من المشركين . ونزل بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

والخطاب هنا للمشركين . وتساءل البعض : كيف يتأتى أن يكون خطاب الحق في الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتي خطاب من الله للمشركين ؟ . وقال بعض العلماء إنه مادامت البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين قولوا للمشركين : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لابد أن يكون هناك خطاب للذين قطعوا، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا في قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

وخطابه للمقطوعين يتمثل في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ومن سماحة هذا الدين الذي أنزله الحق تبارك وتعالى ؛ أن المولى سبحانه يعطي مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لايقال إن الإسلام أخذهم على غرة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

وكلمة « فسيحوا » تعطى ضماناً إيمانيا ، فـ«ساح» معناها سار ببطء ، وهناك «ساح الشيء» و«سال الشيء» عندما تقول : «سال الماء» أى تدفق وسال، وأنت تشاهده سائلا . وإن قلت: «ساح السمن» أى سار ببطء لايدرك حتى صار سائلا . ولماذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿فسيحوا فى الأرض﴾؟ .

والإجابة : أن سماحة الإسلام تمنع أن تأخذكم على غرة ، وعلى الذين قطع الإسلام معهم العهد أن يسيروا وهم مطمئنون وفى أمن وأمان ولا يتعرض لهم أحد . ووقف العلماء عند تحديد أربعة الأشهر، ونظر بعضهم إلى تاريخ النزول ، وقد نزلت هذه الآية فى شوال ؛ إذن فتكون الأشهر الأربعة هى : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

وقال علماء آخرون : إن ساعة النزول لاعلاقة لها بالأشهر الأربعة، وإن الأشهر الأربعة تبدأ من ساعة الإبلاغ أى فى الحج ؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وعلى ذلك فتكون من يوم العاشر من ذى الحجة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر. وقال بعض العلماء : إن نزول هذه الآية كان فى عام النسيء الذى كان الكفار يؤخرون ويقدمون فى الأشهر الحرم ، والذى قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٣٧]

وأضاف صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى رواه أبو بكرة حيث قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى حجته فقال : «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »[1]

---

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخارى .

أي أنه صلى الله عليه وسلم حسب من بداية الكون إلى هذا الوقت فرجع بالأمر إلى نصابه وألغى النسيء ؛ هذا النسيء الذى كانوا يقررونه أيام الشرك لتقديم أو لتأخير الأشهر الحرم ؛ لأنهم كانوا إذا أتت الأشهر الحرم ويريدون الحرب يؤجلون الشهر الحرام حتى يمكنهم الاستمرار فى الحرب . ولذلك كان الحج فى هذه السنة فى شهر ذى القعدة . ومادام الحج فى شهر ذى القعدة ، تنتهى الشهور الأربعة فى العاشر من ربيع الأول . وقيل إن اختيار أربعة الأشهر جاء ليوافق ما شرعه الله فى قوله سبحانه تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة : ٣٦]

فيكون عدد الأشهر مناسبا لعدد الأشهر الحرم . ولكن هذه المرة فيها ثلاثة أشهر حرم فقط هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع هو رجب فكيف يقال أربعة ؟

ونقول : إن الأشهر الأربعة الحرم التى فيها رجب هى الأشهر الحرم الدائمة ، أمّا الأشهر الأربعة التى ذكرت فى هذه الآية فهى أربعة أشهر للعهد تنتهى بانتهائها ، ولكن أربعة الأشهر الحرم الأصلية تبقى محرمة دائماً ، ولقد شرع الله عز وجل الأشهر الحرم ليحرم دماء الناس من الناس ؛ ذلك أن الحروب بين العرب كانت تستمر سنوات طويلة دون نصر حاسم . فجعل الله الأشهر الحرم حتى يجنح الناس إلى السلم ، ويتحكم فيها العقل وتنتهى الحروب .

وهنا يبلغنا الحق تبارك وتعالى أنه قد أعطى المشركين أربعة أشهر يسيرون فيها آمنين ، لماذا ؟ لأن الذى يكون ضعيفا مع خصمه ينتهز أى فرصة يقدر عليه فيها ليستغلها ويقضى عليه ، ولا يمهله أربعة أشهر حتى ولا أربعة أيام . ولكن القوى لا يبالى بمد الأجل لخصمه لأنه يستطيع أن يأتى به فى أية لحظة . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة : ٢]

ويقال فلان أعجز فلاناً ، أى جعله ضعيفا عاجزاً . ولذلك فإن كلّ شيء مُعجز شرف للمُعْجَز ، والمثال : عندما جاء القرآن الكريم معجزاً للعرب وكان ذلك شرفا

لهم لأنهم كانوا أمة بلاغة وفصاحة . والله لايتحدى الضعيف وإنما يتحدى القوى ، فلغة القرآن أعجزت الفصيح والبليغ . وحين يعطى الحق سبحانه وتعالى هذه المهلة للمشركين إنما كانت ببنود معينة ، وكان أمير الحج فى هذا العام سيدُنا أبو بكر وكان هو الذى سيبلغ البراءة . وهى أنه لايدخل المسجد الحرام مشرك ولايحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولن يدخل الجنة إلا من آمن ، هذه هى البنود .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطنته النبوية كان يعرف أن العرب لايقبلون نقض العهود والمواثيق إلا من أهلها : فأرسل صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا بن أبى طالب ليعلن نقض العهود ؛ لأنه علم أن الكفار كانوا سيقولون : لانقبل نقض العهد من أبى بكر ، بل لابد أن يكون من واحد من آل الناقض .

وحينما قال المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

أعطى هذه المهلة الطويلة ، لأنهم مهما فعلوا فى هذه المهلة ، فالله غالب على أمره . فلن يفوت أو يغيب شيء عنه سبحانه وتعالى ، ومهما حاولوا أن يجدوا حلفاء لهم فلن يستطيعوا شيئا مع الله ، صحيح أنهم ضعاف فى هذه الفترة ، وصحيح أنَّ الضعيف قد تكون قدرته على القوى مميتة لأنه يعرف أن فرصته واحدة ، وإن لم يقدر على خصمه فسوف ينتهى ، لكن الله غالب على أمره . وأراد الشاعر العربى أن يعبر عن ذلك فقال :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ينتهز الفرصة ليقضى على خصمه . أما القوى فيعرف أنه قادر على خصمه فى أى وقت ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢]

الإخزاء هو الإذلال بفضيحة وعار ولايكون ذلك إلا لمن كان متكبراً متعالياً . أى أن الله قادر على أن يخزى الكفار بفضيحة وعار مهما بلغت قوتهم وكبرهم .

ويقول الحق عز وجل بعد ذلك :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ ﴾

وبعض الناس يقول مادام الله تعالى قد قال :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

فلماذا يعيد سبحانه وتعالى :

﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

ونقول : إن البراءة جاءت إعلاماً بالمبدأ ، والأذان جاء لإبلاغ البراءة ، و«أذان» معناها إعلام يبلغ للناس كلهم ، تماماً كأذان الصلاة ؛ فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة . والأذان مأخوذ من الأذن . لأن الإنسان حين يعلم الناس بشيء لابد أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم ، ولذلك نجد الأذن هي الوسيلة الأولى للإدراك ، فقبل أن ترى تسمع ، وقبل أن تتكلم لابد أن تسمع ، فإن لم تسمع من يتكلم لاتقدر أنت على الكلام . ولذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ [البقرة : ١٨]

أي لا يسمعون ، وماداموا لا يسمعون لا يتكلمون . وقد يأتي بعض الناس ويقول: إنَّ وسيلة الإعلام قد تعتمد على العين ويقرأ منها الإنسان . ولكن من يقول ذلك

ينسى أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ إلا إذا سمع ألفاظ الحروف ، وحين يقال له : هذه ألف وهذه باء وهذه تاء فهو يتعلم . إذن كل بلاغ إنما يبدأ بالأذن ، والأذن هي أول آلة إدراكية تؤدي مهمتها فور ولادة الإنسان ؛ لأنك إن أشرت بأصبعك إلى عيني طفل مضى على ولادته أيام لا يتأثر . ذلك أن العين لا تبدأ في أداء مهمتها قبل بضعة أيام ، ولكن إذا صرخت بجوار الطفل يسمع ويتزعج .

والله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن وسائل الإدراك يأتي بالسمع أولاً فيقول جل جلاله : ﴿ وجعل لكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ والأفْئدة ﴾ [النحل : ٧٨]

لأن الأذن تبدأ عملها فوراً ـ كما قلنا ـ والعين لا تبدأ عملها إلا بعد أربعة أو خمسة أيام . والأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة في وقت واحد . ولكن مجال الرؤية محدود . وأنت حين لا تريد أن ترى شيئاً تبعد عينيك عنه ، ولكن الأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أن تستطيع منعها . ولذلك يأتي السمع مفرداً ، والأبصار متعددة ؛ لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً . لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً ، وتأتيك الأصوات ويتوحد المدرك من السمع ؛ فهي آلة الاستدعاء والإيقاظ . ولذلك حين تكلم الله عن أهل الكهف يريد أن ينيمهم ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا . رغم أن أقصى ما ينامه الإنسان هو يوم أو بعض يوم ، قال سبحانه وتعالى عنهم في هذا الشأن :

﴿ فضَرَبْنَا علَىٰ آذَانِهِمْ في الْكَهْفِ سِنِينَ عدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

وكان الضرب على الآذان حتى لا يوقظهم صوت عال لإنسان أو حيوان . وهم عندما قاموا : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يوْمًا أوْ بعْض يوْمٍ ﴾ [الكهف : ١٩]

لأن الإنسان عادة لا ينام أكثر من هذه المدة ، وهذا يدل على أنهم حين استيقظوا كانوا على الهيئة التي ناموا عليها لم يتغير فيهم شيء ، مما يدل على أن الله أوقف تأثير الزمن عليهم ، ولولا أن الله قد ضرب على آذانهم لأيقظهم صوت الرعد أو الحيوانات المفترسة أو غيرها من الأصوات . وأثبت لنا العلم الحديث أن مَنْ يرقد في الفراش بسبب المرض مدة طويلة يخاف الأطباء من إصابته بقروح الفراش ، فلا يخاف

الطبيب على المريض من المرض فقط ، بل يخاف أيضاً من آثار الرقود على الجسد .
والله يلفتنا إلى هذه الحقيقة فيقول :

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٨]

ولأن الأذن هي وسيلة السمع ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ ﴾ [الانشقاق]

وهذا القول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأن تنشق ؛ تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، وإذا كان الذى بلغ الأذان من الله ورسوله إلى كل الناس يوم الحج هو على بن أبى طالب ؛ فكيف يقال ؟

﴿ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٣]

نقول : إن الله تعالى أعلم رسوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليا ، وعلى هو الذى نادى وبلَّغ ، لكن هناك من يقول : إن الله طلب البلاغ إلى الناس . مع أن البراءة كانت للمشركين .

ونقول : إن الإعلام كان لكل الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم ؛ فيعرف المؤمن أن العهد قد قطع ، ويعرف غير المؤمن أن العهد قد قطع ، فلا يؤخذ أحد على غرة ، وليرتب كل إنسان موقفه فى ضوء البلاغ الصادر من الله عز وجل ؛ والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم ، بل كان الخطاب للعالم كله ، وإن كان المؤمنون هم الذين سيجاهدون لتنسجم حركة الأرض مع منهج السماء . ومن هذا يستفيد المؤمن والكافر ؛ لأن الكل سينتفع بالعدل والأمانة والنزاهة التى يضعها المنهج على الأرض .

ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء

بالمنهج لإصلاح الكون كله فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥]

أى أن الحكم بين الناس جميعاً هو المطلوب من رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب منهج السماء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا القول فيه تعميم فى المكان وتعميم فى المكين ، فيوم الحج يجتمع الناس كلهم فى مكان واحد .

وقد يتساءل البعض : لماذا سمى الحج الأكبر؟ نقول : لأنه الحج الوحيد الذى اجتمع فيه الكفار والمؤمنون . وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين .

وبعض المفسرين يقولون : إن كلمة الحج الأكبر جاءت لتميز بين الحج الأصغر وهى العمرة وبين الحج الذى يكون فيه الوقوف بعرفات ، ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر .

وقيل إنَّ يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة . ولكن بعض العلماء قالوا : إنه يوم النحر؛ لأن فيه مناسك كثيرة : رمى الجمرات والتقصير وطواف الإفاضة ؛ لذلك سمى يوم النحر بالحج الأكبر لكثرة مناسكه ، وقيل : إنها أيام الحج كلها وأنها قد سميت بيوم الحج على طريقة العرب فى أداء الحدث الواحد بظرفه الملائم ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : يوم حنين ؟ . وحنين استغرقت أياماً فكأن اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير، فكأن أيام الحج كلها يطلق عليها «يوم الحج».

أو أن الإعلان قاله سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم عرفة ، ويبلغ هذا الإعلام كل من سمعه إلى غيره، والآية الكريمة تقول : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا إذن من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن رسوله إلى على كرم الله وجهه، ومن على للمؤمنين ، ومن المؤمنين ؛ من سمع لمن لم يسمع ، أن الله برىء من المشركين ،وكان هذا إعلانا بالقطيعة ، ولكن الله برحمته لايغلق الباب أمام عباده أبداً، ولذلك يقول : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [التوبة : ٣]

أى فتح لهم باب التوبة فإن تابوا عفا الله عنهم ، وإن لم يتوبوا فالقول الفصل هو : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣]

إذن فالحق سبحانه وتعالى قادر عليهم وقادر أن يأتى بهم مهما كانوا ، وعلى النبى والمبلغين عنه أن يبشروا الكفار بالعذاب الأليم ، والبشارة إعلام بخبر سار ، والإنذار إخبار بسوء . فهل العذاب بشارة أم إنذار ؟. نقول : إن هذا هو جمال أسلوب القرآن الكريم ، يبشر الكفار فيتوقعون خبراً سارا ؛ ثم يعطيهم الخبر السيىء بالعذاب الذى ينتظرهم ؛ تماماً كما تأتى إلى إنسان يعانى من العطش الشديد ، ثم تأتى بكوب ماء مثلج وعندما تصل به إليه ويكاد يلمس فمه تفرغه على الأرض، فيكون هذا زيادة فى التعذيب وزيادة فى الحسرة ، فالنفس تبسط أولاً ثم يأتى القبض.

وفى هذا يقول الشاعر:

كمـا أبرقـت قوماً عطاشاً غمـامةٌ

فَلَمَّا رَأَوْهـا أَقْشَـعتْ وَتَجَلَّـتِ

وهكذا تكون اللذعة لذعتين ، ابتداء مطمع ، وإنتهاء ميئس بينما فى الإنذار لذعة واحدة فقط . وانظر إلى قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ [الكهف : ٢٩]

حين تسمع «يغاثوا» تتوقع الفرج فيأتى الجواب :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣]

والعذاب من الله يوصف مرة بأنه عظيم ومرة أخرى يوصف بأنه مهين وثالثة يوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المُعَذَّبين ، وسيأخذ كل مسيء وعاص وكافر من العذاب ما يناسبه ، فهناك إنسان يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسان يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كل واحد من الناس سيأتيه العذاب الذي يتعبه ، فإن كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإن كان لا يتعبه إلا الإهانة جاءته ، وإن كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ④

هذا استثناء ، ولكنه استثناء مشروط بأن هؤلاء كانوا أمناء على العهد وموفين به ولم ينقصوا منه شيئا ، أي لم يصدوا لكم تجارة ولم يستولوا على أغنام ولم يسرقوا أسلحتكم ولم يغروا بكم أحداً ولم يظاهروا عليكم أحداً ؛ وهؤلاء هم بنو ضمرة وبنو كنانة ، فلم يحدث منهم شيء ضد المؤمنين فجاء الأمر بأن يستمر العهد معهم إلى مدته . ولقائل أن يقول : إن المستثنى يقتضي مستثنى منه ، ونقول : المستثنى منه هم المشركون في قوله الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

والإنقــاص معنـاه تقليل الكمّ إمَّـا فى الـذوات، وإمـا فى متعلقـات الـذوات، والإنقاص فى الذوات يكـون بالقتل، والإنقاص فى متعلقات الـذوات يكون بمصادرة التجارة أو الماشية، وسرقة السلاح.

إذن ففى الإنقاص هنـا مرحلتان : مرحلـة فى الذوات أى بالقتل، ومرحلـة فى تابع الـذوات وهى الأشياء المملـوكة، ولـذلك قال : «لم ينقصـوكم شيئا» أى شىء كـان، سواء فى الذوات أو متعلقـات الذوات، وأيضا لم يغروا عليكم أحـداً ولم يشجعوا أحداً على أى عمل ضد الرسول.

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

ويظاهـر أى يعادل، وكلهـا مأخوذة من مادة الظهـر، وهو يتحمل أكثـر من اليد، فالإنسـان لايقدر أن يحمـل جوال قمح بيـده مثلا، ولكنـه يقدر أن يحملـه على ظهره. ولذلك يقـول المثل العامى : من له ظهـر لايضرب على بطنه . إذن فالظهر للمعـونة. والحق يقول:

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤]

أى غالين .

والحق سبحانـه وتعالى حين قص علينـا نبأ تآمر بعض من نساء النبـى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ، قال : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : ٤]

فظهير فى الآية الكـريمة أى معين . ويأتى الحق هنـا إلى منطقة القـوة فى الإنسان ، لذلك يقال: فلان يشد ظهرى . أى يعـاوننى بقوة . ويقـال : ظهر فلان على فلان . أى غلبه وتفـوق عليه ، ويقـال : وعـلا ظهره . أى استـولى على منطقة القوة منـه ؛ لذلك نجد أن الحق سبحانه وتعـالى حينما تكلم فى سورة الكهف عن ذى القرنين ذكر بعض اللقطات وقال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الكهف]

فالله سبحانه وتعالى لفتنا هنا إلى حقيقة علمية لم نعرفها إلا فى العصر الحديث. فالسد إذا كان كله من مادة صلبة ؛ يتعرض للانهيار إذا ما جاءت هزة أثرت فى كل جوانبه ، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة ، وجزء صغير فى المنتصف وجزء ثالث ، ثم رابع ، ويفصل بين كُلّ جزء ردم من تراب فالردم فيه تنفسات بحيث يمتص الصدمة ، وهى نفس فكرة الإسفنج التى نحيط بها الأشياء التى نخاف عليها من الكسر لنحفظها ، فلو أن الصندوق من الخشب أو الحديد أو أى مادة صلبة لتحطم الشيء الموضوع فيه بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية ، ولكن إذا أحطناه بوسادة من الإسفنج فهى تمتص الصدمات. وأنواع السدود التى تتلقى الصدمات يقال عنها: السد الركامى .

ونلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [الكهف : ٩٥]

وهذا يدلنا على أن القوى يجب أن يعين الضعيف معونة لا تحوجه له مرة أخرى ؛ لذلك يقال : لا تعط الجائع سمكة ؛ ولكن علمه أن يصطاد السمك ليعتمد على نفسه بعد ذلك ، وهذه هى المعونة الصحيحة ، ولذلك نجد أن ذا القرنين رفض أن يأخذ مقابلا لبناء الردم ؛لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى . ولو أن كل قَوِيٍّ أراد ثمناً لنصرة الضعيف لاختل ميزان الكون وطغى الناس ، ولكن الأقوياء فى عالمنا يريدون أن يظلموا بقوتهم؛لذلك يختل ميزان الكون الذى نعيش فيه . ولننظر إلى تفويض الله لذى القرنين وكيف أحسن ذو القرنين الحكم بين الناس ، وأقام العدل فيهم وكيف ترصد الظالمين ، قال القرآن الكريم على لسان ذى القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف : ٨٧، ٨٨]

هكذا أقام ذو القرنين العدل ، بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان ذى القرنين : «أعينونى» يعطينا كيفية إدارة العدل فى الكون ، فذلك الذى أعطاه الله الأسباب إن أراد أن يعين الضعفاء فعليه أن يشركهم فى العمل معه ، ولا يعمل هو وهم يتفرجون وإلا تعودوا على الكسل فتفسد همة كل منهم . ولكن إذا جعلهم يعملون معه سيتعلمون العمل ثم يتقنونه فتزداد مهارتهم وقوتهم فى مواجهة الحياة ؛ لذلك نجد أن ذا القرنين أشرك معه الضعفاء ، وقال لهم : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف : ٩٦]

إذن فقد جعلهم يعملون معه ويبنون ، وهذه أمانة القوى فيما آتاه الله تعالى من القوة ، بل إننا نجده قد تفاهم معهم رغم أن الحق تبارك وتعالى قال فيهم :

﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف : ٩٣]

كيف تفاهم معهم ؟ لعله استخدم لغة الإشارة وتحايل ليفهموا مقصده . ويدلنا القرآن على تفهمهم له أن قال الحق على لسانهم :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

قد تمَّ بناء السد بمعاونة هؤلاء الضعفاء ، وكان بناء هذا السد بصورة تتحدى طاقة العدوان فى كل من يأجوج ومأجوج ، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه ، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه ، وهذا وضحه لنا المولى سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) ﴾ [الكهف]

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ولم يُظاهِرُوا عليكُمْ أحداً فأتِمُّوا إليْهِمْ عهْدَهُمْ إلىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة : ٤]

أى لم يعينوا ولم يساعدوا أحداً من أعدائكم حتى يتغلب عليكم ، وسماحته سبحانه وتعالى بإتمام مدة العهد تعنى أن هذه المدة كانت أكثر من أربعة أشهر. وهكذا يعطينا سبحانه جلال عدالته ، فسمح لمن كان العهد معهم أقل من أربعة أشهر ، أن يأخذوا مهلة أربعةأشهر ، والحق سبحانه لا يحب نقض العهد ؛ لذلك طلب من المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين عاهدوهم مدة العهد ولو كانت أكثر من أربعة أشهر ؛ حتى يتعلم المؤمن أن يُوفِىَ بالعهد مادام الطرف الآخر يحترمه . وزيادة المدة هنا ؛ أو زيادة المهلة نابعة من قوة الله تعالى وقدرته؛ لأن كل من فى الأرض غير معجزى الله ، فإن طالت المدة أو قصرت فلن تعطى المشركين ميزة ما ، فالله يستطيع أن ينالهم فى أى وقت وفى أى مكان .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤]

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أى شىء ، يغضب الله وقاية . وإن تعجب بعض الناس من قول الحق سبحانه وتعالى: «واتقوا الله» وقوله: ﴿واتقوا النار﴾ فإننا نقول : إن معنى ﴿اتقوا الله﴾ أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقاية ، اتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفات جلال منها المنتقم والجبار والقهار ، وله صفات جمال مثل الرحيم ، والوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، إذن اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية لكم وحماية من أن تتعرضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويطيعه فى كل ما أمر به لينال من فيض صفات الجمال . وقوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿واتقوا النار﴾ أى اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسكم النار .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

و«انسلخ» يعنى انقضت وانتهت الأشهر الحرم ، ومادة «سلخ» و«انسلخ» تدور كلها حول نزع شىء ملتصق بشىء ، فتقول: «سلخت الشاة» أى نزعت الجلد عن اللحم، والجلد يكون ملتصقا باللحم التصاقاً شديداً . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأشهر الحرم هى زمان ، والزمان ظرف، فالناس مظروفون فى الزمان والمكان ، فكأن الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين ، فإذا مرت الأشهر الحرم تزول هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم . والانسلاخ له معنيان: فمرة يقال ينسلخ الشىء عن الشىء، ومرة يقال : ينسلخ الشىء من الشىء ، ولذلك تجد فى القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥]

وهذه الآية الكريمة التى نزلت فى ابن باعوراء الذى أعطاه الله العلم والحكمة والآيات ، ولكنه تهاون فيها وتركها ، فكأنه هو الذى انسلخ بإرادته وليست هى التى انسلخت منه ، وصار بذلك مقابلا للشاة ، ونحن نسلخ جلد الشاة من الشاة .

والحق سبحانه وتعالى أيضا يقول :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [يس : ٣٧]

فكأن الليل مثل الذبيحة، ثم يأتى النهار فيسلخ منه الظلمة ويزيلها عنه ويأتى بالضياء ، فكأن الليل ثوب أسود يأتى عليه ثوب أبيض هو النهار، فإذا جاء ميعاد الليل رفع الثوب الأبيض أوسلخ النور عن ظلمة الليل ؛ لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل ، وكأن النور هو الذى يطرأ على الظلمة فيكسوها بياضا ، أى أن الضوء هو الذى يأتى ويذهب ، بينما الظلمة موجودة ، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت نهارا ، وإذا انسلخ منها صارت ليلاً.

وماذا يحدث عندما تنتهى الأشهر الحرم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

فكأن الله سبحانه وتعالى بعد أن أعطى المشركين مهلة أربعة أشهر، والذين لهم عهد أكثر من ذلك يتركون إلى أن تنتهى مدة العهد، ومن بعد ذلك يكون عقاب المشرك هو القتل ، لماذا ؟ لأنه لايجتمع فى هذا المكان دينان .

ولقائل أن يقول : وأين هى حرية التدين ؟ ونقول : فيه فرق بين بيئة نزل فيها القرآن بلغة أهلها، وعلى رسول من أنفسهم ، أى يعرفونه جيدا ويعرفون تاريخه وماضيه ، وبيئة لها أحكامها الخاصة بحكم التنزيل ، فأولئك الذين نزل القرآن فى أرضهم وجاءت الرسالة على رسول منهم وهو موضع ثقة يعرفون صدقه وأمانته ويأتمنونه على كل نفيس وغال يملكونه ، وكان كل ذلك مقدمة للرسالة ، وكانت المقدمة كفيلة إذا قال لهم إننى رسول الله لم يكذبوه ؛ لأنه إذا لم يكن قد كذب عليهم طوال أربعين سنة عاشها بينهم ، فهل يكذب على الله ؟ الذى لايكذب على المخلوق أيكذب على الله ؟ هذا كلام لايتفق مع العقل والمنطق ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨]

أى ليس غريبا عليكم ، تعرفونه جيدا حتى إنكم كنتم تأتمنونه على أغلى ماتملكون، وتلقبونه بالأمين فى كل شئون الدنيا ، فكيف ينقلب الأمين غير صادق عندكم ؟ كما أن القرآن الكريم وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء

بلغتكم وأسلوبه من جنس ما نبغتم فيه ، فكان إعجازاً لكم ، وتحداكم الله تعالى بأن تأتوا بسورة من مثله فعجزتم وأنتم ملوك البلاغة والفصاحة ، فكأن الإعجاز من أمانة الرسول وصدقه ، والإعجاز من بلاغة القرآن وتحديه يقتضي منكم الإيمان فيكون عدم الإيمان هنا مكابرة تقتضي عقاباً صارماً.

فإن سأل سائل : أين هي حرية التدين ؟ وأين تطبيق قول الحق تبارك وتعالى؟

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

نقول : نعم ، لا إكراه في أن تؤمن بالله وتؤمن بدينه ، ولكن مادمت قد آمنت فلابد أن تلتزم بما يوجبه هذا الإيمان ، أما عند التفكير في مبدأ التدين فأنت حر في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن.

ولكن إذا آمنت فالواجب أن تطلب منك أن تلتزم . ثم إن الحق سبحانه وتعالى شاء ألا يجتمع في الجزيرة العربية دينان أبداً.

ولكن في أيّ مكان آخر مثل فارس ، الروم ، فهم لن يعرفوا إعجاز القرآن الكريم كلغة ، ولكن يسمعون أنّه معانٍ سامية بقوانين فعالة تنظم الحياة وترتقي بها.

أما الذين يعرفون الرسول وفصاحة المعجزة التي جاء بها ، فلن يُقبل منهم إلا أن يسلموا ، ولا يُقبل منهم أن يظلوا في أرض الرسالة دون إسلام ، وإن أرادوا أن يظلوا على الشرك فليرحلوا بعيداً عن هذه الأرض .

وهناك من يقول : إنّ الإسلام انتشر بالسيف أو الجزية ، ونقول : إن الإسلام انتشر بالقدوة ، أما السيف فكان دفاعاً عن حق اختيار العقيدة في البلاد التي دخلها الإسلام فاتحاً ، والجزية كانت لقاء حماية من يريد أن يبقى على دينه .

ونجد في حياتنا اليومية من يستخدم ﴿لا إكراه في الدين﴾ في غير موضعها ، فحين يقول مسلم لآخر : لماذا لا تصلي ؟ يرد عليه بهذا القول : ﴿لا إكراه في الدين﴾. ونقول : إن ﴿لا إكراه في الدين﴾ مسألة تخص قمة التدين ، أي مسألة اعترافك بأنك مسلم أو غير ذلك ، لكن ما دمت قد أعلنت الإسلام وحُسبت على المسلمين ،

فعليك الالتزام بما فرضه عليك الدين فلا تشرب الخمر ولا تزن ، إذن فـ ﴿لا إكراه فى الدين﴾ تعنى لا إكراه على اختيار الإسلام ، ولكن لابد من الحرص ممن أعلنوا الإسلام على مطلوبات الدين .

إذن فلماذا أُكرِه العرب على الإسلام ؟

قيل فى ذلك سببان : الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، والثانى أنَّ المعجزة جاءت بلسانهم .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى قوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

فإن عز عليكم أن تقتلوهم فخذوهم أسرى ؛ ماداموا لم يدافعوا عن أنفسهم بقتالكم ، ولم يهددوكم فى حياتكم ، وهنا يحقن الدم ويستفاد بهم كأسرى .

وإنْ خفتم من شرورهم فاحصروهم فى مكان مراقب . إذا قاموا بأى حركة معادية يكون من السهل عليكم كشفها ، وإنزال العقاب بهم . والحصر هنا تقييد الحركة مع السماح لهم بحركة محدودة بحيث لا يغيبون عن نظركم .

ثم يتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

أى ارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم ؛ وحتى لا يتصل بعضهم بالبعض الآخر ، وينشئوا تكتلاً يعادى الإسلام . ارصدوا حركاتهم ، وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم ، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم وافعلوا ما بوسعكم لتكونوا فى مأمن من شرورهم ، ولكن لا تخرجوا بالاستطلاع إلى حيز استذلالهم، فالاستدلال غير الاستذلال .

وقد يتساءل البعض : لماذا هذا الاختلاف فى العقوبة حيث هناك القتل وهناك الحصر وهناك الرصد لهم فى طرقهم ومسالكهم ؟ . نقول : إن العقوبة تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام ، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون هذا الدين ، ويدعون الناس لعدم الإيمان ، ويحرضون على قتال المسلمين وقتلهم

وإيذائهم ولا ينصلحون أبداً ، ولا يكفون أذاهم عن المؤمنين أبداً : أولئك جزاؤهم القتل .

وهناك من لا يؤذون المسلمين ، وإنما يجاهرون بالعداء للدعوة ، هؤلاء شأنهم أقل؛ فنأخذهم أسرى . وهناك من الكفار من لا يفعل شيئا إلا أنه غير مؤمن ؛ فهؤلاء نراقب حركاتهم ليتقى المسلمون شرهم ليكونوا على استعداد بصفة دائمة لمواجهتهم إذا ما انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجموهم ويقاتلوهم .

إذن فلم توضع عقوبة واحدة تشمل الجميع . لأن الجميع غير متساوين فى عدائهم للإسلام ؛ فأئمة الكفر لهم حكم، والذين عداوتهم للإسلام أقل لهم حكم آخر. ثم تأتى رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده فلا ييئسهم أبداً من الرجوع إليه فيقول : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ٥]

ويفتح سبحانه باب التوبة أمام عباده جميعاً ولا يغلقه أبداً ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيما يرويه عنه أبو حمزة أنس بن مالك ــ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط [(١)] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة)[(٢)]

أى أنك وأنت مسافر فى صحراء جرداء بعيدة تماماً عن أى عمران ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذى تسافر عليه ؛ عليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة ، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شارداً وسط الصحراء ، وتنبهت فلم تجده ولا تعرف مكانه ، وفجأة وأنت تمضى على غير هدى وجدت الجمل أمامك ، فكيف تكون فرحتك ؟ إنها بلا شك فرحة كبيرة جدا لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك ، وهذه الفرحة تملأ النفس وتغمرها تماماً ، كذلك يفرح الله بتوبة عباده ، لذلك

(١) عثر.

(٢) رواه البخارى ومسلم .

يوضح سبحانه وتعالى بأنه إن تاب هؤلاء الكفار من عدائهم لدين الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَلْيُخَلِّ المسلمون سبيلهم وليتركوهم أحراراً.

وهنا نجد ثلاثة شروط : أولها التوبة والعودة إلى الإيمان . وإقامة الصلاة ، هذا هو الشرط الثاني ، ثم يأتي الشرط الثالث وهو إيتاء الزكاة ، ولابد أن يؤدي الثلاثة معاً ؛ لأن التوبة عن الكفر هي دخول في حظيرة الإيمان ، والدخول إلى حظيرة الإيمان يقتضي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم صوم رمضان ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدي بعضها ولا يؤدي البعض الآخر ، فالمسلم الفقير الذي لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وتبقى شهادة أن لا الله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وهذه يكفي أن يقولها المسلم في العمر مرة ، ويبقى ركن إقامة الصلاة لا يسقط أبداً ، لا في الفقر ولا في الغنى ولا في الصحة ولا في المرض ؛ لأن الصلاة هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهي عماد الدين لأنها تتكرر كل يوم خمس مرات ، فالمريض عليه أن يصلي بقدر الاستطاعة . فإن لم يستطع أن يؤديها واقفا فجالساً وإن لم يستطع أن يؤديها جالساً فراقداً .

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ؛ ففي كل صلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وكل صلاة فيها زكاة ؛ لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتي من العمل ، والعمل يحتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذي يمكن أن تستخدمه في العمل فيعطيك رزقاً تزكى به ، فكأنك وأنت تصلي أعطيت بعض مالك لله سبحانه وتعالى ؛ لأنك أخذت الوقت الذي كان يمكن أن تعمل فيه لتكسب مالاً للزكاة ، فكأن الصلاة فيها زكاة الوقت .

إن الوقت هو ما نحتاج إليه في حركة الحياة للحصول على المال فتكون في الصلاة زكاة . ويأتي بعد ذلك للصوم وأنت في الصوم إنما تمتنع عن شهوة البطن وشهوة

الفرج بعضاً من الوقت ؛ من قبيل الفجر إلى المغرب ، وكذلك فى الصلاة ، وفى الصلاة أنت لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة . فكأنك لابد أن تصوم عن شهوة البطن وأنت تصلى ، كما أنك لابد أن تصوم عن شهوة الفرج أثناء الصلاة ، فلا تستطيع وأنت تصلى أن تفعل أى شىء مع زوجتك ، ولا تستطيع زوجتك أن تفعل معك شيئا ، بل أنت فى الصلاة تكون فى دائرة أوسع من الإمساك ، لأنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئت إلى حج بيت الله الحرام ؛ نقول إنّك ساعة تصلى لابد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت الله الحرام فى بالك وفى ذكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة . وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام كلها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (الصلاة عماد الدين)[1] وإذا كانت الصلاة هى عماد الدين كما بين النبى صلى الله عليه وسلم فمن أقامها فقد أقام الدِّين ـ ومن عجائب ترتيب آيات القرآن أنك تجد الصلاة مقرونة دائما بالزكاة ؛ لأن الزكاة بما المال ، والصلاة زكاة بالوقت ، نحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتى بالمال ، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

ومعنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لانخلى سبيلهم ، ومادمنا لا نخلى سبيلهم فهم يدخلون تحت العقوبات التى حددها الله وهى : «اقتلوهم» أو «خذوهم» أو : ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

وأول العقوبات هو القتل وذلك لأئمة الكفر ، فإذا آمن كافر وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن : وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب وآمن ؛ لذلك إذا لم يقوموا بالعبادات الثلاث لانخلى سبيلهم ، ولقد أفتى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة يقتل ، ونقول : لا ، تارك الصلاة إمّا أن يكون قد تركها إنكاراً لها وجحودا بها ، وإما أن

(١) أخرجه البيهقى فى جامع الأحاديث للإمام السيوطى جـ٤ ص ٤٥٢

يكون قد تركها عن كسل . فإن كان يتركها عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والدنيا تجذبه بمشاغلها فعلينا أن نحاول بالحكمة والموعظة الحسنة أن ننصحه ونستحثه حتى يعود إلى الصلاة ويؤديها في وقتها، ثم من بعد ذلك إن تركها عمداً كسلاً ، يعاقب بالضرب الشديد ، ولكن بعض الأئمة يقولون : لقد قاتل أبو بكر أولئك الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة ، ونقول : إنه لم يقاتلهم لأنهم عصاة ، بل لأنهم قد ردوا الحكم على الله، وأنكروا الزكاة فكانوا بذلك قد ارتدوا كفاراً ؛ لأن هناك فارقاً بين أن ترد الحكم على الله وتنكره ؛ وبين أن تسلم بالحكم لله ، وتعلن أنك مع إيمانك بهذا الحكم لا تقدر على التنفيذ ، أو تعترف أنك مقصر في التنفيذ . ولذلك نقول للذين يحاولون أن يدافعوا عن الربا ويحلوه : قولوا هو حرام ولكننا لا نقدر على أنفسنا حتى لا تعودوا كفاراً : لأنك إذا قلت إن الربا ليس حراماً تكون قد رددت الحكم على الله ووقفت موقف الكافر ، ولكنك إن قلت إن الربا حرام ولكن ظروفي قهرتني فلم أستطع ، تكون بذلك عاصياً.

وهذا كما قلنا هو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السلام ، فقد أمر الله تعالى إبليس بالسجود فعصى ، وآدم أمره الله فعصى ، فلماذا قضى الله بأن إبليس عليه اللعنة إلى يوم القيامة ، بينما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وغفر له ؟ نقول : لأن إبليس رد الحكم على الله ؛ فقال :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١]

وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]

فكأن إبليس رد الحكم على الله عز وجل ، ولكن آدم لم يقل ذلك . وإنما قال : حكمك يا ربي صحيح وما أمرتني به هو الحق ، ولكني لم أقدر على نفسي فظلمتها فتب علىّ واغفر لي وذلك مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر .

إذن فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يُصَلُّوا ولم يُزكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث ؟ . إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم .

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين ؟.

وهنا يتزل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التي هي الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد . وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل ؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم ، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التي نزل بها هذا الدين ؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم نقدر عليهم بأي عقوبة من العقوبات التي جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه ؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه مادام قد استجار بك فأجره ، وإذا أجرته أسمعه كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم ؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله؛ ولكن أبلغه مأمنه ، أي اسأله من أين جاء ؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التي ينتمي إليها أو حدد المكان الذي جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذي يجد فيه الأمان . وهذه هي المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر ،

وهى مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيرين بالمؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى تفضل على خلقه فى الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرسال من سبقوه من الرسل. وكان الناس قد نسوا منهج السماء ، بل وحرَّف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لابد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الإيمان مناعات متعددة ، توجد أولا فى النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصية ، فالضمير الإيمانى يردعها عن تلك المعصية ويتوب الإنسان ويرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيمانى وتلك هى النفس اللوامة . ومعنى وجود اللوم فى النفس هو أن الإيمان مازال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذى يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوى .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفة المنهج ولم تعد نفسا لوامة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى ، فتجدها قد عشقت ـ والعياذ بالله ـ مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهنا ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يفىء إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فلابد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقظ الناس من هذا السبات العميق الذى شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهة للرسول إنما جاءت من المتفعين بالفساد فى الأرض . والمنتفعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقى عباد الله .

والمنتفعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون . فلابد أن يقفوا فى وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منافعهم وأموالهم التى حصلوا عليها بالباطل والظلم ، ومن استعبادهم للناس . وكانت الجزيرة العربية فى ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قانونها الذى يضعه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شىء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها . وكل فرد فى قبيلة لابد أن يكون مقاتلا يحمل سلاحه مستعدا للحرب فى أى وقت ، لأنه مهدد فى أى لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هى قريش . فقد أخذت السيادة ولا يعتدى عليها أحد ولا تُهاجَم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة فى الشمال أو فى الجنوب أن تهاجم تجارتها ؛ لأن هذه القبائل كلها ستأتى فى يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام فى مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل فى حاجة إلى الأمان من قريش ؛ ولذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقتها مع قريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التى جعلها الله لقريش هى الضمان . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هو وجيشه كعصف مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

فإذا قرأت السورة التى بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش ، ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيدا عن هذه السيادة ؟ لأن الحق قد أراد أن تكون صيحة الحق فى جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام فى أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعا حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام فى العالم ؛ فلا يعتنق الإسلام منافق أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين فى قلوبهم إيمان حقيقى ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام فى مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة؛ لأن قريشا لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواءه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقيا . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً ؛ أن العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى خلق العصبية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان

وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة إلى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون في إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ؛ ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، وأصبحوا يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به ؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصبحون مأمونين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ؛ فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث «قطع العلاقات» ، فقال الحق عز وجل : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ؛ لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهي هنا في هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى في السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارىء ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشر وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المتفعين بالفساد في الأرض ؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادنة

. ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا فشلت حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقى الوجود الإيمانى قويا متحدياً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر فى غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم القلة الضعيفة المستذلة والمستكينة، بل أصبحت لهم قوة ولهم قدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بداية المرحلة التى أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاهد هو اعتراف بدولة الإيمان ،وهى المسألة التى فطن لها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : علام نعطى الدنية [1] فى ديننا .

هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما رأت أم سلمة رضوان الله عليها خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت :« يارسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وها هم أولاء الآن على مقربة من البيت ولكنهم

(١) الدنية : أصلها الدنيئة بالهمزة ولكنها خُففت وهى صفة لمحذوف .. أى الحالة الدنيئة الخسيسة .

ممنوعون من الطواف به ؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله ؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لا نزاع فيه» ، هذا ما حدث. فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بـذبح الهدى وتحلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع ما يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .

لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة ردوه إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كفار مكة لا يردونه. وقد وجد البعض فى هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية فى الدقة ، وعندما جاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يكتب عن رسول الله وأملى: هذا ماتعاقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو . اعترض سهيل قائلا : لو كنا نؤمن بأنك رسول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو. هنا ثار على بن أبى طالب رضوان الله عليه وقال : لا، لابد أن نكتب هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو.

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهى الموقف فنظر إلى على وقال :« يا على اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد» أى أنه سوف يحدث لك نفس الشىء الذى ترفضه الآن فتقبل ، وكان هذا من علامات النبوة لأن عليا وقف فعلا هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعاقد عليه على بن ابى طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب. وتذكر على بن أبى طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد ».

على أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قول الحق

تبارك وتعالى الذى يزيل من النفوس المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من المؤمنين والمؤمنات الذين يكتمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار، وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم فى قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلاً لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين فى مكة بأيدى المؤمنين ، ولكان عاراً أن يقتل مؤمن مؤمنا أومؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهى صيانة دم المؤمنين . وفى الوقت ذاته نجد أن صلح الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر فى الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقى للإيمان ، وجاء فى ذلك تلك المقولة المأثورة : «لافتح فى الإسلام بعد فتح الحديبية» ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لايعجل لعجلة عباده حتى يبلغ الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهى التعاهد والتعاقد . ولقد وفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعانت قبيلة بنى بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء

المعاهدة التى أبرمت بينه وبين قريش لنقض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يطهر بيته من المشركين وأن يعلن أنه لا مهادنة بين الإيمان والكفر.

لقد أراد الله أن يحرر «المكان» وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر «المكين» وهم البشر فلابد ـ إذن ـ أن تتطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُمنع العراة من الطواف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود فى البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات، لكن سماحة الإيمان وحب الله لخلقه جميعا لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بل منحهم أربعة أشهرلعلهم يفيئون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم فى حربهم ضد الإسلام ؛ لأنهم غيرمعجزى الله فى الأرض ، أى لن يعجز الله استعدادهم أو مكرهم أو أى شىء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت العقوبة على الكفار إما بالقتل وإما بالحصار ، أو بالترصد ، أو عليهم أن يدبروا أمر حياتهم بالسياحة فى الأرض ماداموا قد أصروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين فى هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يبقى الباب مفتوحاً للكفار لكى يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة]

وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، اذا استجارك أحد من المشركين فأجره ، ونحن نعلم فى اللغة العربية أن «إنْ» الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على

اسم أبداً ؛ فنقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إنْ» في قوله تعالى :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

فهذه ليست «إنْ» الشرطية ؛ ولكنها «إنْ النافية » وهي مع «إلا» التي بعدها لإفادة التأكيد والقصر ، أي قصر الأم على الوالدة ، إلا أنه من بلاغة إعجاز القرآن الكريم جاء بعد «إن»الشرطية اسم في قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة : ٦]

وكان القياس أن يقال: «إن استجار بك أحد المشركين فأجره »؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء بـ «أحد» بعد «إن» في أول الكلام ، ولذلك فعندما نعرب كلمة «أحد» في الآية الكريمة السابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعله من جنس المتأخر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هذه اللفتة من القرآن الكريم ؟ نقول : إن هناك مستجيراً وهنا طلب استجارة ؛ فهل الاستجارة عرف بها المستجير ، أم عُرِفت الاستجارة منه ؟.

وأقول : لنفرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أماكن الكفار ، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسده أمام المؤمنين ، هنا تكون الاستجارة قد سبقت ظهور المستجير ، وكأن الأذن هي التي استجيرت أولاً ثم رأت العين جسد هذا المستجير ، وقد يختلف الأمر ؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً.

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أهمية الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعد ذلك ، ولابد أن يأخذ المؤمن حذره حتى لا ينقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاستجارة تعني طلب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكون المستجير ضعيفاً

لا يقـــــدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر فى مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنة ليتعرف على الهدف من الاستجـارة ؛ أهى استجـارة لمجرد تطويل أمد البقاء على الكفر ؟ أم هـى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعـالى ، أو أنه يـريـد أن يسمع حكـم الله على الكفار فى سـورة بـراءة . أو يريـد أن يسمع كلام الله بما يقـذف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يـريد أن يسمع شيئـا فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة ؟.

إن فطنـة المؤمن يجب أن تتسع لتسبر أغوار المستجير ، وطلب الجوار أو الاستجـارة كان معروفـاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعـدوه فعليه أن يجيره ، وهـذا دليل على شهـامته . وإذا كـان الإيمان قـد فرض على المسلمين إجـارة من يطلب الجوار ، فهـذا دليل على قوة الإيمان وعظمتـه وسماحته ، ولعل خميرة الإيمان الفطـرى فى نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الـــوالى أو أى واحـــد من المسلمين أن يجير المستجير ، ولماذا لا نسمعـــه ونتكلم معه عله يؤمن ، ويدخل حظيرة الإسلام وفى الإسـلام يجير الوالى أو أى واحد من المسلمين ؛ لأن المسلمين تتكـافأ دمـاؤهـم ولا يـوجـد دم سيـد ودم عبـد ، ولا دم شريف ودم رخيص ؛ وإنما يسعى بذمتهم أدناهم ، ولـذلك إذا أجار أى مسلم إنساناً غير مسلم أو إنســاناً كـافراً يجار من جميع المسلمين ؛ حتى الصبى الـذى لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذى لا يعقل . لهذا أو لـذلك أن يجير بشرط أن يوافق الوالى أو المسلمون على ذلك . لماذا ؟ لأننـا نأخذ على الكفر أنه يغـدر بالمعاهد ويتناسـى المروءة ، فلابد أن نتمسك نحن المـؤمنين بالعهـد ، فإذا استجـار أحـد من الكفـار فـلابـد أن نفى بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبى والمجنون حق الإجارة ؟ نقول : إن الصبى من المؤمنين انتفع بالإسـلام لأنه تمت تربيتـه تربيـة إيمانية وفقاً لمنهج الله ونشأ فى ضوء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤]

بل إن الإسلام يعطى التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبى قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبى قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذى بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً ؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمنا أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . فلو أن صبيا أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله ؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبى استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التى تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد فى الرحم لأمكن للمرأة حين يتعبها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبى بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو فى بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، وتمتثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم أمه حماه الإسلام ـ كما قلنا ـ بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزنى قال :

« إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض

وفساد كبير» قالوا يارسول الله وإن كان فيه ؟ قال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[1].

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فى حديث له :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه يقول : قال صى الله عليه وسلم «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2]

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبى فى كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟.

وقد يقال إن الصبى منتفع بالإسلام ، أما المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من التكاليف ، ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول،صاحب العقل قصارى مايصل إليه أن تكون كلمته نافذة لايعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا ؛ لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حظا أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التى قد تؤذى ذوى النفوذ فلا يعاقبه أحد، ويكفى أن يقال إنَّه مجنون حتى يعفى من العقاب ، وربّ كلمة حق واحدة تصدر من مجنون ؛ تكون أرجح عند الله عز وجل من أصحاب عقول كثيرة ظلوا طوال حياتهم ينافقون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

إذن فهناك مهمة فى الحيـاة قد يؤديها المجنون ولا يـؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئا فإنـه يميزعنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله يأبى إلا أن يعوضه ، ولذلك تجد من فقـد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس فى خدمتـه ؛ هذا يأخذ بيده؛ وهـذا يقوده فى الطريق ، وهذا يحضر لـه الطعام والشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أعرجَ مثلاً ، تجد هذا يعاونـه ، وهذا يأخذه معه فى سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يـريد . بينما يقضى السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجـرة بلا فائدة . بل إنـك إن نظرت إلى الفقير تجد أنَّ الله قد جعل لـه عدداً من الأغنياء فى خـدمته ، ففلان يحرث ويـزرع ويعطيه الله خير الزراعـة ليبيعه ويفيض منـه على الفقير، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضاً من دخله للفقير، بل إنـه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقا ليعطيـه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخـذ شريطة ألا يكـون مدعيـا للفقـر . فما دام قد قبل حكم الله بـالفقر والعجـز ، يـوضح له ربـه : لقـد رضيت بأنى أعجزتك ، فخـذ من قـدرة الأغنياء مـا يعينك فى حيـاتك ، فهـذا مُلْكٌ كَـونى لـه نظـام ، وأقـول ذلك حتى نفهم أن الغنى والفقـر ، والصحـة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هى أغيـار، ولـذلك لا أحد يضمن غَـدَهُ ، وعلى الواحـد منا إن كـان قادراً أن يعطى الفقير، حتى إذا ضـاع منا المال وجـدنا من يعطينا ، وأن نسـاعد المريض ، حتى إذا مرضنا وجـدنا من يسـاعدنـا ، وأن نكون فى خدمـة الناس وقت شـدتهم حتى يكونـوا فى خدمتنـا وقت شدتنا . وفى نفـس الوقت حين نرى من حرمه الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعانى فى مشيه تنبهنا إلى نعمة الله فى أن أعطانا قدرة المشى.

وهكذا فـالإنسان لا يتنبه إلى النعمـة إلا إذا رأى من هو محروم منهـا . وكذلك أراد الحق أن يرضى كل ذى آفة قَبل آفته ولم يتمرد عليها ؛ لذلك يفيض عليه بالخير.

إذن فكل إنسـان أسلم يستفيـد من الإسـلام حتى الصبى والمجنـون استفـادا من

الإسلام . ولذلك فلابد أن نرد التحية لمن بلّغنا هذا المنهج الذى أعطانا الحماية ، فنقرأ المنهج ونعمل به .

وحين نستقرىء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجده يرد جميل كل من ساعده ، ومثال ذلك حليمة السعدية التى نالت شرف إرضاعه صلى الله عليه وسلم وهو صغير ، ثم أكرمها الرسول هى وأسرتها بعد أن صار نبيا.

ثم ألم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليطلب النصير له فى تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ووفاة عمه أبى طالب، وعز عليه النصير وفكر فى العودة إلى مكة ، والتمس من يجيره حين يدخلها فأجاره واحد من الكفار هو المطعم بن عدى ، فإذا كان كافرٌ قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدعو لمحاربة الكفر ؛ أفلا نجير واحداً من الكفار لنرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحد من الكفار قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة فلابد أن يرد المؤمنون كلهم التحية بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفار . وبعد أن يجير المسلمون من استنجد بهم من الكفار على أن يسمعوه كلام الله . وبعد ذلك هناك أحد أمرين إما أن يعلن الكافر الإيمان ، وفى هذه الحالة أصبح من المؤمنين ، وإما أن يصر على كفره وعناده ، وفى هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئولية أن يبلغوه مأمنه، وذلك بأن يساعدوه على الوصول إلى المكان الذى يصبح آمنا فيه على نفسه وماله ، وبعد أن يبلغ مأمنه ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحه كما كان الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

لا ، بل على المسلمين أن يبلغوه مأمنه ، ثم ينفذون فيه حكم الله إما أسراً ، وإما حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هى أنه من قوم لا يعلمون حسبما قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦]

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط ؛ لأن العلم له وسائل كثيرة ؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكتساب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلومات كلها تنشأ عند الإنسان إما بالأذن مما يسمع ، وإما بالعين مما يرى ، ثم بعد ذلك تستقر المعاني في نفس الإنسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨]

وهكذا حدد لنا القرآن الكريم وسائل العلم بالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلومات في الفؤاد ، لأنه الذي يحفظ كل القضايا العقلية والفكرية . وإذا كان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئا فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعذره أنه لا يعلم .

وعلينا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طالب علم بالحقيقة ، ويريد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧ ﴾

أي لقد جربتم العهود مع المشركين ، وفي كل مرة يعاهدونكم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاهدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أننا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون

العهـد ولكنهم ينقضونـه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهـد أنهم لم يستقيموا للعهـد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب .

و«كيف» هنا للاستفهام عن الحالة ، يقال : كيف حالك ؟ . تقول : بخير والحمد لله . إذن فـ «كيف» يُسأل بها عن الحال ، والحال قد يكون عاما ، أي كيف حالك وحال أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقد يكون خاصا أن تسأل عن مريض فتقول : كيف حال فلان ؟ . فيقال : شُفي والحمد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حاله ؟ . فيقال : فرّج الله ضائقته . أو تسأل عن ابن ترك البيت هارباً فيقال : عاد والحمد لله .

إذن فـ «كيف» إن أطلقت تكون عامة ، وإن خصصت تكون خاصة ، ولكنها تُطلق مرة ولا يراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب ؛ إما تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقال لك: كيف سب فلان أباه ؟ . هنا تعجب من القبح لأن ما حدث شيء قبيح ما كان يصح أن يحدث . وتأتى لإنسان اخترع اختراعاً هاماً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع ؟. وهذا تعجب من الحسن . والتعجب من القبح يكون تعجب إنكار والتعجب من الحسن يكون تعجب استحسان كأن تقول : كيف بنيت هذا المسجد ؟ وفى هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا تعجب من أن يكون للمشركين شيء اسمه عهد ؛ لأنهم لا يعرفون إلا نقض العهد ، ولا يتمسكون بالعهود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكون لهم عهد بينما فى الحقيقة لا عهد لهم .

وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار، فأنت مثلا إذا جاء أحد يهددك، فقلت له: من أنت حتى تهددني؟. يكون هذا استهزاء واستنكارا لأنك تعرفه، وأيضا تستهزىء أن يملك القدرة على أن ينفذ تهديده لك. ومرة تكون استفهاما حقيقيا، كأن تسأل إنسانا لاتعرفه: من أنت؟. فيقول لك: أنا فلان بن فلان. وأحيانا تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام، وأحيانا لاينفع الكلام فلابد أن يجاب بالفعل.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحساني؛ لأنك إذا بعثت الحياة في ما لا حياة فيه؛ فهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان. ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ، بل أجاب بتجربة عملية، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وخليله إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

رد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أي أنني يارب آمنت، وأضاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

والإيمان هو اطمئنان القلب، فكيف يقول إبراهيم آمنت؟ أليس في ذلك تناقض؟. وأقول: إن إبراهيم واثق من أنَّ الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث، حينئذ لم يجبه الحق سبحانه وتعالى بالكلام، بل أراه تجربة عملية، فقال له:

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أي عليك أن تختار أربعة طيور وتضمها إليك وتتأكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هي نفس الطير.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أي قطّع هذه الطيور بنفسك، وضع على كل جبل قطعة، وبعد ذلك ادعُها أنت تأتك سعياً أي مشياً، حتى لايقال إنها طيور قد جاءت من مكان آخر، بل تجيئك نفس الطيور سيراً، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطي القدرة لمخلوق عندما يستدعي الميت أن يأتيه حيا، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟

إذن فقول الحق: سبحانه وتعالى

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧]

أي أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لاعهد لهم، لايطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون في نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا مايفسره قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وإنما الذي يبدأ بالنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد.

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ «كيف»، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى.

والتساؤل هنا يـوضح لنا أنهم سيخونون العهـد دائما، كما فعلوا في الماضي، فكأن الذي يخبر في الماضي يخبر أيضـا عن المستقبل ويعلم مايكـون منهم. ويتابع المولى سبحـانـه وتعالى قوله: ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة: ٨]

ومعنى «يظهروا»، أي يتمكنـوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لايرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّـة، و«يرقب» من الـرقيب الذي يـراقب الأشيـاء. إذن فهم لايـراقبـون بمعنى لا يراعون، أي أنهم لـو تمكنوا من المؤمنين لا يراعون ذمة ولا عهدا ولا ميثـاقا، بل يستبيحون كل شيء. وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما في نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين.

ونـلاحظ أن كلمـة «يـرقبـون» غير «ينظـرون»، وغير «يبصرون»، وهي أيضـا غير «يلمحون» وغير «يرمقـون»، مع أنها كلها تؤدي معنى الرؤيـة بالعين، ولكن يرقب تعني يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لاتفوته حركة، لـذلك إذا قلنا: إن فلانا يراقب فلاناً، أي لاتفوته حركة مـن حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منـه. أما كلمة «نظر» فتعني رأى بجميع عينيه، وكلمـة «لمح» تعني رأى بمؤخـر عينيه، و«رمق» أي رأى من أعلى. وقـوله سبحانه وتعالى «لايرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمّـة» يعني لا يراعون فيكـم عهداً، ولايمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أي شيء مهما كـان قبيحا؛ والمثال: أن يـرفع الرجل القـوى يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته، هنا يمسك أحـدهم بيده ويطلب منه أن يراعي أن الطفل صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فـلان قريبه، وأنهم جيران؛ فلا يـراعي هذا كله، وإنما ينهال على الطفل ضرباً.

وقـوله سبحـانه وتعـالى : «إلاّ» هي في الأصل اللمعان أي البريق، و«إلاّ» أيضـاً هي الصوت العالي، واللمعـان والصوت العالي لافتان لوسـائل الإعلام الحسّية، وهي الأذن والعين، والإنسـان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشـيء اللامع، ويلفت أذنـه كما يلفتها الصـوت العالي، وسُمي العهـد والكلام «إلاّ» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى اللغوي؛ لكن المعنى الاصطلاحي لكلمة «إلاّ» هو الغضب، بأن تشد

شيئا كأنك تغصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر، ولذلك سُمِّى سلخ جلد الشاة غصباً لأن اللحم ملتصق بالجلد، وسُمى أخذ المال غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بماله تمسك الشاة الحية بجلدها. وإذا أُطْلق الغصب فى الفقه لاينصرف إلى المعنى اللغوى وهو اللمعان والصوت العالى، وللعلماء فى هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أخذ لقطة من الـ«إل» وأصله اللمعان، ألّ.. يؤلّ.. إلاًّ، بمعنى لمع.. يلمع.. لمعاً. والـ«إل» أيضاً هو الصوت العالى، وقال ابن عباس والضحاك رضى الله عنهما: إن «إلاًّ» هى القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم، فأنت يعز عليك أن تكون قريباً لك؛ لأن القرابة لاتحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلاًّ» هى العهد.

وقال سيدنا الحسن: إن «إلاًّ» هى الجوار وما يوجبه من حقوقه. وقال قتادة: إن «إلاًّ» هى الحلف والتحالف. وقال أبو عميرة: إن «إلاًّ» هو اليمين أو القسم.

والمعانى كلها تلفتنا إلى وجود نوع من التراحم، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعال، وليجعل الإنسان لنفسه من يقول له: «اهدأ إنه جارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهدون صلة قرابة»؛ لأن الذى يجعل الإنسان لا يميل إلى الشر ولايستشرى فيه ساعة يحفزه الأمر؛ هو مراعاة الملابسات كلها، وهكذا يتدخل الجوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار ليمتنع البطش بقسوة، أى إن «إلاًّ» هو الأمر الذى يمنع الرد بقسوة على شيء قد يكون وقع خطأ. والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فإذا تمكن رجل قوى من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لايراعون فيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أى شيء. إذن فكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لايراعون فيهم شيئا أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]

والذمة هى الوفاء بالأمانة التى ليس عليها إيصال ولا شهود، فإذا اقترض واحد

مبلغاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المبلغ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه. ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض، وإن شاء أنكره، وهناك ذمة أخرى هي التي بينك وبين نفسك، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطي فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم تفعله. وما في الذمة - إذن - هو شيء إنْ لم تفعله تُفضَح، مثال ذلك: أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر خاضع لإرادتك، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار، لا شيء إلا ذمتك، ولذلك فأنت تراعي الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك. وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه في ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهكذا نعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو في المستقبل عهد لأنهم يخترقون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأي اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معنا على أحسن مايكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لاترحم؟. ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم مايظهر وما يخفى، وقد علم مايدور في خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لايترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

أي أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التي يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة، ولا يرقبون فيكم إلاً ولا ذمّة. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨]

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألا ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالي، لا يمثل ماضياً أو حاضراً، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال: في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾

[التوبة: ٢٨]

والبلاغ هنا نهى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعي أن تدور الخواطر هنا في نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين في مواسم الحج، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ماتم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، فمن أين يأتي الرزق الذي يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولابد أن يفكر المؤمنون: من أين سنأكل؟. نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟.

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٨]

أي لا تخافوا الفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو الغني وعنده مفاتيح كل شيء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التي تدور في نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عزوجل:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

وفى هذا القول رد على الخواطر التى دارت فى نفوس المؤمنين؛ وهم يرون المشركين يستقبلونهم بألفاظ ناعمة ووجوه تملؤها البشاشة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لاتنخدعوا فما فى القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج، فالفسق هو الخروج عن الطاعة، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟.

نقول: إنك إن نظرت لهؤلاء تجدهم خارجين حتى عن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لايلتزمون بمنهج الباطل الذى يعتنقونه، إذن فهم فاسقون حتى فى المنهج الذى ينتسبون إليه، فإذا كانوا كذلك مع منهج الباطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟.

وقوله تعالى: ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ يوضح بأنه قد تكون هناك قلة ملتزمة، وهذا احتياط قرآنى جميل، كما أنها ردت على السؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كافرون ـ وليس بعد الكفر ذنب ـ فكيف يقال إنهم فاسقون أى عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟.

نقول: إنهم خارجون حتى عن مناهج الكفر التى اختاروها لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول:

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ ﴾

وهكذا يرينا الله عزوجل انقلاب المعايير عندهم، فما الشراء؟. الشراء هو: الحصول

على سلعة مقابل ثمن، فإذا قلت: اشتريت ساعة مثلاً، تكون أنت المشترى مادمت تدفع الثمن، والذى أخذ الثمن هو البائع، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [التوبة: ٩]

وكان المفروض ـ إذن ـ أن يكونوا قد دفعوا الثمن، لأن المشترى هو الذى يدفع الثمن، ولكن هنا عُكست القضية؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هو مايشترونه، مع أن الثمن هو الذى يدفع، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء، والذى يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن الثمن يساوى السلعة. فأنت تأخذ السلعة وتعطى للبائع ثمناً يساويها، لأن ثمن كل شىء يجب أن يكون مناسباً له، فإذا اشتريت شيئا بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً، وإذا اشتريت شيئا ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً.

هذا كله ملحوظ حتى فى الأعمال، وقد تكون ممن يرغبون فى مشاكسة الغير، وقد تجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحد أتباعه أن يسب فلاناً ويعطيه عشرة جنيهات، فإذا أراد أن يجعل التابع يضرب خصمه، يقول له: اضرب وأعطيك خمسين، وإن أراد أن يقتل التابع خصمه فهو يعطيه الألوف من الجنيهات، وغالبا مايقول هؤلاء الذين بلا إيمان: كل ذمة قابلة للانصهار بالذهب، لكن المختلف قيمة هو الكمية التى تصهر أى ذمة، فهناك من تنصهر ذمته بريال، وآخر تنصهر ذمته بعشرين أو ثلاثين، وهناك من تنصهر ذمته بملايين.

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار قد حولوا الإيمان إلى سلعة تباع وتشترى، فهم قد باعوا إيمانهم، وبدلا من أن يتقاضوا عنه مايساوى الإيمان والإيمان أغلى من كنوز الدنيا كلها ؛ باعوا إيمانهم بثمن قليل، أى أنهم حتى لم يقدروا قيمة الإيمان فباعوه رخيصاً. كيف باعوا الإيمان بثمن رخيص؟.

نقول مثلاً: إن الذى يرتشى يفعل ذلك ويريد أن يعوجّ ميزان الحق، والذى يغير ميزان الحق يشكك الناس فى العدالة، وإذا شك الناس فى العدالة؛ فقدوا سندهم الأمنى؛ لأن كل مظلوم أمله أن يرفع الأمر للقضاء فينصفه، أو أن يرفع أمره للمسئول فيعطيه حقه، فإذا أحس الناس بأن الحق قد ضاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان.

وإن دفع اختلت الموازين، في هذه الحالة يفسد المجتمع كله، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جداً.

كما أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الحساب يوم القيامة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون في الجنة وينعمون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسيدخل هؤلاء الكافرون النار وبذلك يكونون قد باعوا إيمانهم مقابل ثمن رخيص مهما كان المال الذي سيحصلون عليه؛ لأن مال الدنيا كلها لا يساوي يوماً في الجنة؛ لأن الدنيا موقوتة بزمن، ومتاعها محدود وقليل، فكأنهم باعوا الخلود في النعيم بمتعة وقتية قد لا تستمر إلا أياماً أو سنوات. وحينئذ يعرف الكافرون أن الثمن الذي تقاضوه قليل جداً بالنسبة لما خسروه. وليتهم جعلوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على متاع قليل في الدنيا، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ [التوبة: ٩]

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معروضة بأدلتها فتمنع الناس من أن يستمعوا إليها؛ لأنك تعرف أنهم لو سمعوها لاعتنقوها واقتنعوا بها، ولذلك نجد الكفار ملاحين نزل القرآن والعرب أمة بلاغة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازه وبلاغته وحلاوته ولآمنوا به، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى على ألسنتهم في القرآن: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قرأ أحد القرآن يأمرون بعضهم البعض باللغو فيه حتى لا يفهم شيئاً، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله، وكان هناك نوع آخر من الصد عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعون الناس من الاستماع إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل من يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها. ولذلك فهم يصدون الناس عن

كلام الله تعالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون لأهل الحجيج: لاتصدقوا الرجل الذى يقول إنه نبى، وهذه شهادة منهم أن الآذان لو استقبلت القرآن لسحبت أفئدتهم إلى الإيمان ، وهذه شهادة ضدهم وليست لهم؛ لأنهم واثقون أن سماع الحجيج لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستبعدهم عن الكفر؛ لذلك كانوا يخافون من أن يتأثر الناس بهذا الدين الذى هو دين الحق فيؤمنوا به وهذا ماجعلهم يصدونهم عنه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

وساء أى قبح، وليس هو قبح الآن فقط، ولكنه قبح حاليا وعظمت العقوبة عليه مستقبلاً .

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

يرينا دقة القرآن الكريم فى أن السيىء منهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قول وفعل، أى هم يصدون الناس بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان. وباستخدام الحق لكلمة «يعملون»؛ يلفتنا إلى أن أعمالهم ليست قولاً وليست فعلاً فقط، فهناك القول وهناك الفعل وكلاهما عمل؛ القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح. فلو قال الحق: ساء ما كانوا يفعلون، لقلنا فعلوا ولم يقولوا. ولو قال: ساء ما كانوا يقولون، لقلنا: قالوا ولم يفعلوا. وسبحانه أوضح لنا أن القول والفعل كلاهما عمل، وقال سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ليبين لنا أن هناك فرقاً بين القول والفعل؛ القول أداته اللسان، والفعل أداته بقية الجوارح، والمعنى فى قوله تعالى: «إنهم ساء ما كانوا يعملون» أى ساء قولهم وفعلهم.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ومن لايرقب إلاًّ ولا ذمة فى غيره إنما يظلمه، فإذا كان بينى وبينك قرابة، أو عهد، أو إيمان، فإن لم تراع ذلك تكون قد اعتديت على حقوقى عندك، وليتك قد اقتصرت فى الاعتداء على حقوق الغير لكنك ـ أيضا ـ اعتديت على نفسك، لأنك أعطيتها متاعاً قليلاً فى الدنيا، وتصلى فى الآخرة ناراً، إذن فقد ظلمت نفسك. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨]

وأليس الذى فعل فاحشة، يظلم نفسه؟ بلى، ظلمها فى الآخرة بعد أن أعطاها شهوة فى الدنيا، أى أنه أخذ متعة عاجلة بعذاب آجل. لكن الذى يظلم نفسه ظلما شديدا وبيِّناً هو الذى يرتكب إثما دون أن يأخذ متعة فى الدنيا، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعة آخرة، مثل الذى يتطوع لشهادة الزور، هو يأخذ عذاباً فى الآخرة ولم يأخذ متعة فى الدنيا.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]

ونقول: إن الموضوع يختلف، ففى الآية الثامنة من سورة التوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا قرابة ولا جواراً ولا حلفاً، وإن أظهروا عكس ذلك. أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فهم يظلمون أنفسهم ويبيعون إيمانهم بثمن قليل، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس.

وهم فى صدهم عن سبيل الله تعالى وعدوانهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فائدة دنيوية، بل حاربوا الإيمان وحاربوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيدوا شيئا، فكأنهم لا يرقبون إلاً ولا ذمة حتى مع أنفسهم. ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتى رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه، فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله:

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ماقبله، وأن الباب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم، وهكذا تكون رحمة الله تعالى. ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: «فإن تابوا» ولم يقل إذا تابوا، لأنه لو قال: إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة، ولكن قوله: «فإن تابوا» فيها شك، لأن مافعلوه ضد الإيمان كثير، والذى نأمله فيهم قليل، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة: ١١]

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة إنما تكون بشهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وبطبيعة الحال لابد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهى عمل يومى، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالحج، وليست كالصوم، فالصوم مدته شهر واحد من السنة. إذن لكى تتأكد التوبة فلابد أن يؤدى التائب الصلاة فى وقتها كل يوم فهى العمل اليومى الذى لايؤجل ولايتأخر عن وقته، والصلاة قرنت

غالباً بالزكاة في آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تضحية بالوقت، فكأن الصلاة ـ كما قلنا ـ فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [التوبة]

إنه لابد أن نلاحظ في التفصيل هنا المراحل الإيمانية التي بينها الله عز وجل لنا؛ المرحلة الأولى وهي تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيمان والكفر، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفي المستقبل وحتى قيام الساعة. ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التي أعطيت للكافرين. وكل هذه مسائل مقننة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات.

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السما، والتقنينات في الأمم تأخذ أدوارا طويلة، ولايوجد قانون بشري يولد سليماً وكاملا، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب في التطبيق، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله في التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التي لم يكن لها حظ من علم ولاثقافة كل هذه التقنينات؟.

نقول: إنها لم ترتب، وإنما رتب لها ربها الذي أحاط بكل شيء علماً، فكل هذه المراحل التي مرَّ بها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين مايجب أن يفعلوه.

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخي من أبي وأمي، أو هذا أخي من الأب فقط، أو هذا من الأم فقط، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتي مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مرة كلمة «إخوان» لتعبر عن الأخوة فى المذهب والعقيدة، وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب، فقال عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠]

ليدلنا على أنهم ماداموا قد دخلوا معنا فى حظيرة الإيمان فلهم علينا حق أخوة النسب فيما يوجد من تواد وتراحم، وترابط وحماية بعضهم البعض دائماً، وحب ووفاق إلى آخر ما نعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب.

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١]

ولم يقل إخوانكم، لماذا؟.

نقول: ليس من المعقول أن يخرجوا من كل ما كانوا فيه من آثام بالتوبة، ثم يصبحوا فى نفس التو واللحظة إخوة، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم، ويثبت صدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟. وما دام يعلم فلماذا التفصيل؟.

ونقول: إن المعنى هنا أن الله سبحانه وتعالى يفصل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقى الذى يأتى من الله، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان، ولذلك فغير المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامى دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقى ينتهون إلى إعلان إسلامهم، لأنهم ماداموا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح فى فنونهم، ومادامت شهوة العلم قد غلبتهم، وأرادوا أن يدرسوا منهج الإسلام بموضوعية، لذلك تجدهم يعلنون الإسلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للدين الذى يدرسونه، وهم يأخذون الإسلام من منبعه الإيمانى وهو القرآن الكريم والسنّة النبوية، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين للإسلام، أى من المسلمين ؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص، وقد يكون فيهم سارق، وقد يكون فيهم مُرْتَشٍ، وقد يكون فيهم كذاب، وقد يكون فيهم منافق، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا: ما هذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إننى أقول دائماً لمن لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى: لاتنظر إلى المنسوبين للإسلام، ولكن انظر إلى الإسلام فى جوهره ومنهجه: (القرآن والسنة)؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرمها.

إذن فهذه الأفعال كلها التى وجدتها فى عدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسلام فى شىء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه العلمية وهى معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه؛ لعلموا أنهم يفعلون شيئا خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك، وليس منهجا نظريا فحسب، بل هو منهج عملى يطبق فى الحياة، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملى التطبيقى للإسلام. ويقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلفت نظر غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه [1]، وحين يفعل مالا يرضاه الإسلام يُنَفِّرُ غير المسلم من الدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذى تدعو إليه وتؤمن به، فهو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيباً، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

إلى حجة ضد الدين، فيقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم يغش، ورأيته يسرق، ورأيت يده تمتد إلى المحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ووزر من اتخذوه قدوة لهم[1].

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسي في العالم الإسلامي، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات في معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامي؟. أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية في الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟. أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعا بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن هذا الدين قوة ومناعة تحميه. وأن هذه المناعة هي التي منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر في هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكي تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التي يقيمون فيها، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم قويا لتمسكوا به، ولم يتهافتوا على حضارتنا.

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ [التوبة]

أي نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقي، الذي بينه الله عز وجل في منهجه، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم في الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٩٧) الترمذي (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فمثلاً في القانون في ألمانيا وصلوا إلى مادة في القانون سموها: «سوء استغلال الحق» فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسيء استغلالها. وبدأت الدولة في ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بني سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية «سوء استغلال الحق»، فقام المحامي المسلم وقال له: أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟. فقال المحاضر الألماني: نعم. فقال المحامي: لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً في منهج الإسلام. وارتبك المحاضر الألماني ارتباكاً شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامي المسلم، وجاءوا بكتب السيرة النبوية، وأخرج المحامي للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابي يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة في بيته، والبيت مملوك للصحابي الشاكي، والنخلة مملوكة لصحابي آخر ،وقد تعوّد أن يأتي الصحابي صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ،وكأنه قد جعلها «مسمار جحا» كما يقول المثل الشعبي، فتعرضت عورة أسرة الصحابي صاحب البيت إلى الحرج، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : «إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ،وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها[1]» .

لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن النخلة حقك ولكنك

(١) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي عذقا وإنه قد آذاني وشق علي مكان عذقه فأرسل إليه النبي ﷺ فقال: بعني عذقك الذي في حائط فلان. قال: لا. قال: فهبه لي، قال: لا. قال: فبعنيه بعذق في الجنة ، قال: لا. فقال النبي ﷺ: «ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام».
أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٣٨) والحاكم في مستدركه (٢/ ٢٠) والبزار (٢٠٠٠) في كشف الأستار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٢٧): «فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق».

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب، مما عرّض عورة صاحب البيت للمتاعب[1]. وكان هذا الفعل هو المثل الحي لسوء استغلال الحق. وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألماني في محاضرته ويقول: لقد ظننت أنني قد جئت بشيء جديد، ولكن الإسلام سبقني إليه منذ أربعة عشر قرنا. وفعلا تم التعديل. واعترف القانون الألماني بأن الإسلام قد سبقه في نظرية «سوء استغلال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة.

ولذلك نجد أن صفة الأمية في رسول الله صلى الله عليه وسلم «وفي أمته[2]» كانت شهادة تفوق ؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى مايصل إليه غير الأميين في علمهم أن يجيء إليهم العلم من بعضهم البعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله «وسادت الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾

ونكثوا الأيمان : أي لم ينفذوا بنود العهود، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التي حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرشدنا رسول الله ﷺ لأدب عدم الاطلاع على عورات المسلمين. فعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل من جحر في حجر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦)

(٢) قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال القرطبي في تفسيره: (الأمي): منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولاقراءتها. قاله ابن العربي. وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لايكتب ولايقرأ ولايحسب. قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]

العهود، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا فى الدين. أى عابوا فى الدين عيباً مقذعا.
وعندما يقال: إنَّ فلاناً طعن فى فلان، فلابد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى
مرحلة أكبر بكثير. وهنا يأمرنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إما بقتالهم، وإما أن
يعلنوا الإيمان. وهذا حق للمسلمين لأنهم قدموا من قبل كل سبل المودة ،
لكن أئمة الكفر رفضوها.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أى : أن القتل يأتى
أولاً لزعماء الكفار الذين يحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا
هم الأصل، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون[1].
وهم ـ كما يقال فى العصر الحديث ـ مجرمو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب
تنتهى متى تخلص من مجرمى الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط
ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمة الكفر، هؤلاء
الذين اجترأوا على أساليب القرآن الكريم، ومنعوا القبائل التى تأتى للحج من
الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وحاربوا الدين بكل السبل من
إغراء وتحريض، وتهديد ووعيد.

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمى الحرب ويستنكر قتل
أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢]

ويقول الحق عز وجل فى ذات الآية:

﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]

وفى هذا يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويحتجون علينا

(١) قال تعالى فى سورة سبأ: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ [سبأ: ٣٣]

بقوالبهم وظواهرهم ليقولوا: إن هناك تناقضاً، فالله يقول: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم﴾ أى أثبت أن لهم أيماناً، ثم قال: ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾. فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لايجتمعان فى وصف الشخص الواحد؛ ونقول: إنهما لايجتمعان عند من يفكر تفكيرا سطحيا ، أو يأخذ الأمور بظواهرها. ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشىء وإثباته فى القرآن الكريم يعنى : أن الجهة منفكة. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]

فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمى. ويجىء نفى الشىء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى فى الأسلوب انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال : إن فلاناً يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه ، إذن فهو عالٍ وأسفل فى نفس الوقت؛ عالٍ عمن تحته وأسفل ممن فوقه.

أو تقول: ـ كمثال آخر ـ فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، أى أنه أب لابنه ،وابن لأبيه، فهو أب من جهة الابن، وابن من جهة أبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما نسميه انفكاك الجهة.

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له ؛ لأن رسول الله أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار[1] ، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر، لكن قدرة

---

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال: «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم. فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين». أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جندى من جيش الكفار، وفى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

[الروم: ٦، ٧]

لقد قالوا: إن الله نفى العلم وأثبته لنفس الأشخاص، ونقول: لا، إنه نفى العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا يختلف عن ذلك تماماً، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

أثبتت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

ونقول: فائدة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أى عهده لا قيمة له؛ لأنه مجرد من الوفاء. وعندما يحلف الكذاب تقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على المذاكرة، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئا، فتقول: ذاكرت وماذاكرت ، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما : لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان فى آخر الآية معناه : أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلا وفاء فلا قيمة لأيمانهم. وقوله تعالى:

﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد

قتل وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للإسلام ،وتنتهى اللجاجة فى أمر الدين.

ثم يقول الحق من بعد ذلك:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فى هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقتال أئمة الكفر، وعدم تركهم يستشرون فى حربهم للدين ، ومنع الناس عن الإيمان، وصدهم عن سبيل الله. و«ألا» تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب. وقوله تعالى: ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى نقضوا عهودهم، وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾أى : هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، و﴿هَمُّوا﴾، أى عقدوا النيــة على العمل، وقــوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى :أنهم هم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. والبدء هو : العمل الأول، و«المرة» هو فعل لايتكرر ؛ لأنه إن تكرر نقول: ﴿مرتين﴾ ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

هم إذن الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة.و الإسلام - كما تعلم - قد واجه

قوتين في مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام: قوة المشركين من قريش، وقوة اليهود، وأما قريش فقد هموا بأن يخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال في بدر. وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير تعويضا عن مالهم الذي تركوه في مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا في بدر[1].

إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبي سفيان [2] إلا أن قريشا هي التي أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان؛ ليقاتلوا المسلمين.

وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول من المدينة. كما حاول المشركون إخراجه من مكة، وكان بينه صلى الله عليه وسلم، وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله في المدينة، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟ لا، فقد تعهدوا ألا يعينوا عدوا عليه، ونكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين.

وكذلك فعل بنو النضير، فقد أرادوا اغتياله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإلقاء صخرة عليه، بل وتمادى اليهود في غزوة الأحزاب وأعانوا قريشا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لها أكثر من

---

(١) جاء في سيرة النبي (٢/ ٢٤٧) لابن هشام أن ضمضم بن عمرو كان يستصرخ قريشا وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره قد جدع بعيره (أي: قطع أنفه)، وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (هي: الإبل تحمل الطيب) أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

(٢) وذلك أن أبا سفيان غيّر طريقه إلى مكة ومعه قافلة قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدرا وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبوسفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له. انظر سيرة النبي (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

خشية، ونقضهم العهود وبدؤهم القتال يجعلكم تقاتلونهم ؛ لتأمنوا شرهم .

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تقاتلون﴾ حث على القتال، أى :ماالذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]

وهنا يلفت الحق سبحانه نظر المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين، خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً. ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله، فالله أحق بالخشية قطعاً. وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون مايمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولايخشون مايصيبهم من الله.

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار فى آية أخرى من ذات السورة، هى قوله سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا. وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم

بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر. وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يحدث تثبيتا لقلوبهم وأقدامهم فى مواقف القتال والنزال .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائى فيقول:

﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

أى : راجعوا إيمانكم، فإن كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون فى الشهادة. وإن كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لاتقارن بالقوة البشرية. فإما أن تنتصروا عليهم فتكون لكم فرحة النصر، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة، وكلتا النتيجتين خير. أما مايصيب الكفار فهو ينحصر فى أمرين: إما أن يصيبهم الله بعذاب بأيديكم، وإما أن يصيبهم بعذاب من عنده.

إذن ففى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر، نجد أن الجانب الفائز هم المؤمنون ، سواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسر فى أى حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يعذبوا بأيدى المؤمنين ، وإما أن يأتيهم عذاب من الله تعالى فى الدنيا أو فى الآخرة. وهكذا وضع الله المقاييس التى تنزع الخشية من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، فلا تولوهم الأدبار أبدا فى أى معركة؛ لأنه مهما كبرت قوة الكفار المادية ، فقوة الحق تبارك وتعالى أكبر. ويقول المولى سبحانه:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا لا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية ، فهذه خشية لا محل لها

فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا﴾ فى الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال، و﴿قاتلوهم﴾ الثانية التى فى هذه الآية ؛ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار. ثم يأتى المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونتساءل: إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لايأتى بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لايؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِيَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين، ويحسبوا لهم ألف حساب، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفى آية أخرى يقول:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟. ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار، وسبحانه وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال: قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أى: لاينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين. ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم. ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولايوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا و كبارا، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أوتصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقضى على الكفار نهائيا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء

والصبيان[1] ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا[2].

إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان فى الأمم السابقة.ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل فى عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع فى الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤]

ومالفرق بين العذاب والخزى؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛لأن معناه الفضيحة، كأن يكون هناك إنسان له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه، مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولايؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب. ولا يريد سبحانه أن يعذب

---

(١) وقد وردت بهذا السنة الشريفة، فعن عبدالله بن عمر قال: «وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٢) يقول عز وجل : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]

قال القرطبى فى تفسيرها : «هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم» وذكر أقوال من ذهب إلى أنها منسوخة بآية ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ثم قال: «وقال أكثر أهل التأويل: هى محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ: «هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم». خرجه البخارى ومسلم».

الكفار بأيدى المؤمنين فقط، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ،بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزى والهزيمة. إذن ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَيَنصُرْكُم عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتى المرحلة الرابعة:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

أى : أن النصر الذى سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم، فكأن هذا النصر يشفى الداء ،الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أى : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور، فكأن قتال المؤمنين للكفار لايحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج - أيضا - قلوب المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء - كما تعلم - إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين

أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعذبهم الله بأيديكم، وينصركم عليهم، ويخزهم سبحانه وتعالى.

ونلمس أنه ــ سبحانه وتعالى ــ رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغار على صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزى، ويشفى بهذا صدور القوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٥]

أى :أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمة، فالقتال أراده الله عز وجل ليدُكَّ به جبروتهم، والتوبة حكمتها لمنع تمادى الكفار وطغيانهم فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، ومادام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لاتوجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لايتمادى فى ظلمه ، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم ـ علم الواقع ـ من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد فى سبيل الله؟ فإن ظننتم أن الله تاركم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم[1]، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا مايقابله.

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يُصفِّى الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا فى سبيل الله. وساعة يقول الحق عز وجل فى شيء كلمة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا، فسبحانه يعلم كل شيء أزلا، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ تجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذى يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] وقد قال تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١] والتمحيص هو: الاختبار والابتلاء، والتمحيص أيضا: التخليص والتطهير. ومنها تمحيص الذهب أى اختبره لمعرفة الجيد منه من الردىء.

فيقول العميد: ولكنى أريد أن تعقد امتحاناً ؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وسبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلاً، ولكن العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا ﴾ [التوبة: ١٦]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٦]

«ولـمَّـا» للنفى، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى :أنه لم يتحقق المجيء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لاتؤذن بتوقع ثبوت مابعدها، فما يأتى بعدها لن يتحقق أبدا، أما «لما» فتؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها ، أى أن مابعدها.. لم يتحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستاننا» أى :أن البستان الذى تملكه لم يثمر، ولكنه قد يثمر بعد ذلك. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القول الكريم: أن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم إلى الآن، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قالت الأعراب: «آمنا» فأوضح الحق سبحانه وتعالى: بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكنه سلوك سطحى لم يأت من ينابيع القلب. وقول الحق هنا:

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦]

لايعني أن علمه متصل بوقت الكلام، فعلم الله تعالى موصول أزلى وسبحانه مُنزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، ولَكُنَّا أكبر المجاهدين.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة العدو فى حرب، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر على الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فالله يريد بعلم الواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه، وأن يكون هناك سلوك إيمانى واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[الحج : ٦١]

أى: يُدخل الليل على النهار ويُدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشىء الذى يدخل فى شىء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول : «امرأة وليجة»، و«رجل وليجة» ، و«امرأتان وليجة»، و«رجلان وليجة»، و«نساء وليجة» و«رجال وليجة». كما تقول : «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان عدل»، «امرأتان عدل»، و«رجال عدل» و«نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء[1] التى تدخل على المؤمنين الضعاف، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

فالممنوع هنا - إذن - أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شىء من أسرار المؤمنين. ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]

والمعنى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لاتخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شىء عن عيون الخالق !

(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله عز وجل». أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣/ ٣٩، ٨٨) والنسائى فى سننه (٧/ ١٥٨)

لأنكم إن عمّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء[١] .

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى فى قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وكأن هذه الآية قد جاءت حيثية للبراءة التى حمّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر[٢] ؛ لأن البراءة هى القطيعة، ومعناها ألاّ يدخل المسجد مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، فكأن البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين منعٌ لهم من دخول المسجد الحرام، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام منتدى لهم ، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة ولغير ذلك، كما كانوا يقومون بسقى الحجيج من شراب الزبيب الذى لم يختمر ؛ ومعهم حجاب البيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كان يحدث فى مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التى أعلنها على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذى أوحى إليه

(١) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئ فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) عن أبى هريرة قال : « بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان». قال حميد: ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وألا لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٥٦).

ربه بأن يفعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق في ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾. والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس في هذه المساجد بحيث تكون عامرة بزوارها، والمعنى الثاني هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته وإصلاحه. وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العمارة[1]. والكلام هنا عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾

[التوبة: ٢٨]

نقول : إنَّ المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس في كل بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لأن كل مكان يسجد فيه إنسان مسلم يسمى مسجداً، وبتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مساجد، أو لأن جهات السجود تتعدد في المسجد الحرام ؛ فواحد يسجد شمال الكعبة، وآخر جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة، ورابع غرب الكعبة؛ هذا في الجهات الأصلية، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق، وأناس يتجهون جنوب شرق، وغيرهم يتجه جنوب غرب، وتتعدد الجهات الفرعية في الاتجاه إلى الكعبة ؛ إذن فكل جهة متجهة هي مسجد وهناك ممن لا يرون الكعبة في بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة]

نلحظ أنَّ «كان» هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى: ليس مقبولاً في عرف

(١) قال القرطبي في تفسير الآية: «اختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقيل: أراد ليس لهم الحج بعد ما نودي فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين فبين أنهم ليسوا أهلاً لذلك بل أهله المؤمنون»

العقل أو المنطق أو الدين أن يقرب الكفار المسجد، ولا أن يرعى مشرك المسجد أو يصونه؛ لأن المسجد للعبادة، والعبادة تقتضى معبودا هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق ـ إذن ـ ألا يكون لهم دخل بالمساجد، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شيء منطقى بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهى مسبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة قول ؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودى: على أى دين أنت؟فيرد بديانته ، وكذلك القول للنصرانى، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه[1]، هذه هى شهادة القول. أما شهادة الحال فهى أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله.

فكيف يكون الإنسان مشركا ثم لانقول له: ليس لك علاقة بالمسجد؛ ارفع يدك عنه ؟ وماأغنى الإسلام عن أن يبنى له مشرك مسجدا أو يعمر كافر بيتا من بيوت الله وماأغنى الله أن يزوره فى بيته من هو غير مؤمن به سبحانه . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

وهم قد نسوا الشهادة الأولى بالحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

(١) قاله السدى . نقله ابن كثير والقرطبى فى تفسيريهما للآية .

هم إذن قد أقروا لحظة الخلق الأولى بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناما. وادعوا الكذب وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]

وهذا هو الإشراك بعينه، وهذه هى شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

﴿ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

والمسجد ـ كما تعلم ـ هو المكان الذى نسجد فيه، وكل بقعة فى الأرض بالنسبة للمسلمين تصلح للسجود وتعتبر مسجدا، وهذا مما خص به الله تعالى أمة الإسلام، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحلَّت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

فهذا الحديث يبين أن مما خص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحة لأداء الصلاة فيها، كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً، ويكفى المسلم أن يتيمم من الأرض ويصلى عليها، ولكنّ هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصلى فيه، وأن تباشر نشاط حياتك، وبين مكان مخصص للعبادة، فالحقل الذى تزرع فيه، لك أن تصلى فيه وتزرع، والمصنع لك أن تصلى فيه، ولك أن تصنع، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها، ولك أن تصلى فيها، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام، وهى أماكن سجود لله تعالى، لكن كلمة «مسجد» إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذى أخرج من نشاطات الحياة كلها، وخُصّ بأن يكون للصلاة والسجود فقط، فإذا

(١) متفق عليه، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

حيزت مكاناً بخط أبيض من الجير، أو حيزته بسلك وقلت: هذا مسجد، فلا يزاول فيه نشاط إلاّ الصلاة، هذا هو المسجد الاصطلاحى الشرعى. وكل بيت لله بنيته فى أى مكان يسمى مسجدا، وقبلة المساجد المنتشرة فى بقاع الأرض هى المسجد الحرام ؛ فهى أماكن حيزت للمسجدية ، أو للعبادة ، أو للصلاة وليست لغير ذلك من حركات الحياة، ولكن تحييز المكان كان باختيار البشر. وقبلته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى، والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾

[آل عمران]

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله، وموضوع للناس. فلنا أن نسأل: هل الناس هم الذين وضعوه ؟ لا، بل وضعه غير الناس، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته، ولابد إذن أنه موضوع قبل آدم ، وبمنطق القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم، وإذا تعمقنا قليلا، نجد أن هذا البيت الحرام هو ﴿هدى للعالمين﴾ ومن العالمين الملائكة.

وهكذا نرى أن قول بعض القوم : إن إبراهيم هو الذى حدد مكان وقواعد البيت، قول لايثبت صدقه، لأن البيت هو المكان لا المكين، فالبيت ليس هو الحجر أو المبنى ، وهو ما تسميه الكعبة، فالكعبة هى «المكين» أما البيت فهو المكان الذى أقيمت فيه الكعبة ؛ لأنه إن جاء سيل وأزال الكعبة، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصلى؟ نصلى إلى اتجاه المكان، فالسيل يُذهِبُ المكين لكن المكان باق.

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعا، وأمره ربنا أن يرفع البيت، ولم يقل له : حدد المكان، بل أمره أن يبنى البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض، وإن كان دائرة فله المحيط، وإن

كان مثلثا يكون من ثلاثة أضلاع. لكن الارتفاع يدخل بالشيء إلى الحجم، وقد رفع الخليل إبراهيم القواعد من البيت. بعد أن حدد المولى سبحانه وتعالى له المكان وأظهره له : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ . [البقرة : ١٢٧]

فكأن البيت مخصص قبل الرفع، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن مجيء هاجر وابنها إسماعيل الرضيع، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما في هذا المكان قال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقد رفع إبراهيم عليه السلام القواعد وساعده ابنه إسماعيل بعد أن كبر واشتد عوده، ولكن ساعة أن أسكنه وأمه بجانب البيت كان طفلاً صغيرا. إذن فالبيتية والمكانية موجودة، ولكن إبراهيم أقام المكين وهو البعد الثالث أي الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦]

أي أظهرنا وحددنا المكان ،وهو الذي سيبني فيه سيدنا إبراهيم بالأحجار ليبرز البيت، فالبيت ـ إذن ـ كان موجوداً من قبل.

ونلحظ أن المساجد المنتشرة في الأرض لابد أن يكون لها متجه واحد، لإله واحد، وحدد الحق هذا المكان بالقبلة إلى الكعبة. وبعض المتحللين يحاول أن يقلب الفهم في قول الحق:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥]

يقولون : إننا إن اتجهنا إلى أي مكان سنجد وجه الله تعالى، ونقول:

الصحيح أن وجه الله عز وجل فى كل الوجود ،ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة لتكون متجهنا، أنها هى وجه الله، لا، لكننا مأمورون بالاتجاه لها فى الصلاة. وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين فى كل الدنيا سوف تجد أن كل مسلم فى الأرض يتجه للكعبة فى صلاته، ومادامت الكعبة مركزا، وكلنا نتجه إليه ؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقه، وواحد يتجه وهو غربه، وواحد يتجه وهو شماله، وواحد يتجه وهو جنوبه .

إذن ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ، ومادمنا قد عرفنا أن المساجد محيزة ومخصصة للعبادة ؛ فلايجوز أن يأتى إليها مشرك، ولانقبل أن يساهم فى إصلاحها ولانظافتها مشرك؛ لأن الله غنى عن ذلك، وعلينا أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية فى مسجد، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتى على الناس زمان يتحلقون فى مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا ، ليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم »[1]

كأنه لم يكفهم حب الدنيا خارج المسجد ويطمعون فى الدقائق التى يخصصونها للصلاة، فيجرجرون الدنيا معهم إلى المسجد،وأقول لهم : لماذا لاتتركون مصالح الدنيا فى تلك الدقائق؟ إن الواحد منكم إنما يحيا فى سائر الدنيا فى نعمة الله. إذن فليجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة .

إذن لابد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله، فلا بد أن نصحب هذا التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسان من أجلها للمسجد، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة، لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاق التعبد. ويجب أن يكون الانفعال، والتفاعل، والحركة والنشاط كلـــــه فى الله، ولذلك فأفضل ماتفعله ساعة تدخل المسجد، هو أن تنوى

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٣) من حديث أنس رضى الله عنه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

الاعتكاف فتنزع نفسك ممن ينوى أن يتكلم معك فى أحوال الدنيا .

لقد ورد الأثر النهى عن الحديث فى المساجد لأنه يحبط العمل ويمحو الحسنات ، وأنت قد تصنع الحسنات كثيرا خارج المسجد ، ولكن عليك ألا تدخل المسجد إلا بأدب المسجد ؛ فالحضور بين يدى الله تعالى فى مسجده وفى بيته له آدابه وسلوكه ، فيجب عليك ألا تتخطى الرقاب وهذه لا تحتاج إلى تنظيم ، بمعنى ألا تجعل الأماكن فى الأمام خالية ، وفى الخلف مزدحمة ؛ حتى يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلى دون أن يتخطى الرقاب[1] ، ويكون الجلوس فى المساجد ، الأول فالأول ، وهكذا يتحقق الأدب الإيمانى فى المساجد .

وتعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالبوار على كل صفقة تعقد فى المسجد . ودعا على كل من يريد شيئاً دنيوياً من السجد ألا يوفقه الله فيه ، ودعا على كل من ينشد ضالة فى المسجد ألا يرد الله عليه ضالته ، حيث قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك[2] وإذا رأيتم من ينشد ضالته فقولوا : لا ردها الله عليك»[3] وفى حديث آخر له رضى الله عنه قال : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من سمع رجلا ينشد ضالته فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا»[4] .

فالنجعل الجلوس فى المسجد - إذن - خاصا بالمنعم وهو الله ، أما فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات ، فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم الله بها علينا .

---

(١) عن عبد الله بن بسر قال : جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال له رسول الله ﷺ : «اجلس فقد آذيت» أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٩٠) وأبو داود (١١١٨) والنسائى (٣/١٠٣) .

(٢) أى : لا أوقع الله فيها الربح ، لأنك أتيت بها فى محل جعل للذكر والصلاة وقراءة القرآن . والبيع والشراء محلهما فى الأسواق خارج المساجد .

(٣) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب . وكذا الحاكم (٢/ ٥٦) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٨) وأحمد(٢/ ٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٧٦٧) .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

وما دام بيت الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط، فكأن إشراقات الحق وتجلياته، أعظم ما تكون فى بيته أولاً، ثم تشيع الإشراقات والتجليات فى جميع بيوت الله، وعلى عمارها والمتعبدين فيها، وبيوت الله هى الأماكن التى تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن نوره فى سورة النور قال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

أى أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد، وسورة النور جاء فيها ـ أيضاً ـ قول الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن نوره يملأ السموات والأرض، حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادي يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوى أو الغيبي إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد، فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلاً من الأمور المادية المحسة؛ حتى تقترب الصورة من الأذهان؛ لأننا جميعا نرى الماديات. وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم .

وإذا كنا فى كون الله تعالى نجد النهار إنما يكون نهارا بإشراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول، فيتميز النهار بالضوء، ويتميز الليل بالظلمة، ومعنى النور فى الحسيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى ما حوله؛ حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إن كانت الدنيا ظلاما فسيصطدم الإنسان بما حوله ، وأمر من اثنين: إما أن يكون الإنسان أقوى من الشيء الذى اصطدم به فيحطمه، وإما أن يكون هذا الشيء أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابة تتناسب مع قوة الشيء الذى اصطدم به. والذى يحميك من أن تحطم أو تتحطم هو النور الذى تسير على هداه.

إذن فساعة أن يأتى النور، تتضح أمامك معالم الدنيا، وتكون خطاك على بينة من الأمر؛ فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه، ولايرتطم بك ماهو أقوى منك فيحطمك، هذا هو النور الحسى، وأكبر مافيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد، وهذا النور نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النعم لجميع خلقه فى الدنيا سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا[1].

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكاناته؛ فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتى بمصباح «جاز» صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كل على قدر إمكاناته، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقى أحد على مصباحه مضاء ؟ إن الجميع يطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

(١) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ،كما قسم بينكم أرزاقكم ،وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ».
أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال: رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف.

والفرق بين نور بقدرات الإنسان ونور من خلق الله يتمثل فى أن النور الذى من خلق الله يطفىء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع.

وفى المعنويات نور أيضا فالنور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لاترتطم بالمعنويات السافلة التى قد تقابلك فى مسيرة الحياة، إذن فكل مايهدى إلى طريق الله يسمى نورا. ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينير لنا المحتويات، وينير لنا القيم؛ فلا يحقد أحدنا على الآخر، ولايحسد أحدنا الآخر، ولايرتشى أحد. ويرعى كل منا حقوق غيره.

وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن نورا من خلق الله وهو الشمس، إذا سطعت فالجميع يطفئون مصابيحهم. فكذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أن تطفأ بقية الأنوار من مقترحات أفكار البشر، فلا يأتى أحد بفكر رأسمالى ، أو يأتى آخر بفكر شيوعى، أو ثالث بفكر وجودى، لأن كل هذه القيم تمثل أهواء متنوعة من البشر، وتعمل لحساب أصحابها، أما منهج الله تعالى فهو لصالح صنعة الله وهم البشر جميعا، فلا يحاول أحد أن يضع قيما للحياة تخالف منهج الله ؛ لأنَّ الله قد بيَّنَ لنا منهج العبادة ومنهج القيم، لذلك لا يصح أن يأتى إنسان بشرع يخالف تعاليم الله.

ونقول لأصحاب الهوى فى المذاهب والعقائد المخالفة لمنهج الله جميعا: لماذا لاتقيسون الأمور المادية على الأمور المعنوية؟ لماذا إذا سطعت شمس الله تطفئون مصابيحكم، ولايحاول أحد أن يوقد مصباحا ليهديه فى نور الشمس؟. إذن. فما دام سبحانه وتعالى قد أنزل نور الهدى منه فلا بد أن نطفىء جميعا مصابيح الأفكار القائمة على الهوى، ونأخذ النور كله من منهج الله القويم والصالح لكل زمان ومكان، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا التجربة الحسية التى لايختلف فيها اثنان، إلا أننا رفضنا أن نطبق هذا على منهج الله؛ وهو النور الذى أهداه لنا سبحانه وتعالى ليبين لنا الطريق، وأبى بعضنا إلا أن يأخذ من ظلمات العقل البشرى المحدود مايعطيه طريقاً معوجاً فى الحياة ،فامتلأت الدنيا بالشقاء والفساد ،ونسينا أن السبب فى ذلك أننا تركنا نور منهج الله عزوجل الذى يعطينا الحياة الآمنة الطيبة، ووضعنا لأنفسنا مناهج سببت التعاسة والفساد فى الكون.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر فى مثل مادى عن معنى نور الله فيقول سبحانه وتعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السموات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانبا منها مظلما، وقال جل جلاله:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]

والمشكاة[1] هى «الطاقة المسدودة بالحائط»، وهى عبارة عن مكعب مفرغ فى البناء داخل كل حجرة وكان أهل الريف يضعون فيها المصابيح لتنير واستبدله أهل الريف والبادية حاليا بـ«رف» صغير يوضع عليه المصباح، ودائرة صغيرة يخرج منها النور، ولأن ضوء المصباح مركز فى هذه الفتحة، فهى تمتلىء بالنور الذى بدوره يشع فى الحجرة. وحيز المشكاة بالنسبة للحجرة التى توجد فيها قليل وصغير، والنور الذى يخرج منها ، هو نور مركز يملأ الدائرة التى يخرج منها فلا يوجد فيها «ملليمتر» واحد مظلم، بل كلها نور، وإلا ما استطاع ضوءها أن ينير الحجرة. لأن هذا النور قبل أن يضىء الحجرة ؛ لابد أن يكون

(١) «المشكاة» كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح ، وما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح وفى التنزيل العزيز (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) [المعجم الوسيط الجزء الأول ص ٤٩٢]

مركزا بأعلى درجة من التركيز فى الدائرة التى يخرج منها.

إذن فنور الله سبحانه وتعالى فى السموات والأرض نور شامل عام لايدع مكانًا مظلماً. ولامكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام، تماما كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح فلا تجد فيها ملليمترا واحدا من الظلام، وقد سمى ما يعطى النور مصباحا ؛لأنه يعطينا بشائر الصبح. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج، ليحجب عنه الهواء الذى قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه، والزجاجة التى تحيط بالمشكاة عاكسة للنور، وهذا كله يعطينا معنى للتكثيف والتركيز داخل المشكاة .ثم ينتقل المثل من بعد ذلك إلى الحجرة، فيقول الحق :

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن الزجاجة ليست عادية، ولكنها مضيئة بنفسها لتزيد النور نوراً. ومن أى شىء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن الشجرة المباركة ليست زيتونة فقط؛ ولكنها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أى أن النور يخرج منها غير متأثر بمزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافى فى مزاج معتدل، وقد أطلقت كلمة «النور الصافى» على آخر مرحلة من مراحل الترقى فى الضوء. ومراحل الترقى بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادى، والمصباح فى زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء، فتظهر وكأنها كوكب درى مضىء بذاته، والزيت الذى يضىء يخرج من زيتونة مباركة، بأعلى

درجات النقاء. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن كل شىء مضىء بذاته، ويضيف من قوة الضوء للنور، فالدائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها زجاجة تكثف النور، والزجاجة ذاتها مضيئة فتعطى إضافة، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطى ضوءا ساطعا، وفوق ذلك كله تجد الزيت مضيئاً بذاته، دون أن تمسه النار، فكأنه نور على نور، فلا يصبح فى هذه الدائرة الصغيرة أى نقطة مظلمة، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة، بل كله مغمور بنور الله ، وإياك أن تظن أن هذا القول : ﴿الله نور﴾ هو تشبيه لله، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذى يشمل السموات والأرض وما بينهما.

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبى تمام حين كان يمتدح أحد[1] الخلفاء فقال:

إقدام عمرو[2] فى سماحة حاتم[3] فى حلم أحنف[4] فى ذكاء إياس[5]

وهكذا جاء الشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو، وبالسماحة والكرم كحاتم ، وبالحلم كأحنف بن قيس، وبالذكاء كإياس، وقال الشاعر ممتدحا الخليفة : إنك قد جمعت كل هذه الصفات، التى لم تجمع فى واحد من خلق الله من قبل.

---

(١) أحمد بن المعتصم .

(٢) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن .

(٣) حاتم الطائى المشهور بالكرم .

(٤) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين وكان شهما ومشهورا بالحلم .

(٥) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء .

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال: كيف تمدح الأمير بصفات موجودة فى رعاياه، والأمير فوق كل ما وصفت، فهو أشجع من عمرو، وأكرم من حاتم، وأحلم من أحنف، وأذكى من إياس.

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول:

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

أى :أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا.

والحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى أن كل شيء مضيء بذاته ليضيف نورا على النور الموجود، فكما أن الماديات تحتاج إلى نور يضيء لك الطريق، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور يضيء لك البصيرة والسلوك ، فخذ منهج الله تعالى لأنه النور الساطع الذى لا يمكن أن يضيء مثله ولا معه نور آخر، وإذا أردنا أن نقرب الصورة إلى الأذهان، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله ﷺ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾
[الأنفال: ٢٤]

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء، فكيف يقول لهم : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ .

نقول : إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نفرق بين حياة وحياة. فالحياة المادية

المتمثلة فى الحس والحركة والجرى، هى الحياة الدنيا بأجلها المحدود، وإمكاناتها البسيطة، ولأنها حياة أغيار؛ لا تبقى فيها النعمة ولا تدوم لأحد، بل كل إنسان فيها إما أن تفارقه النعمة بالزوال ، وإما أن يفارقها هو بالموت، وهذه ليست هى الحياة التى يريد الله من الإنسان أن يعمل لها وحدها ، أو يسعى ليتمسك بها. فبسببها يفعل كل ما يستطيع لكى يأخذ منها حلالا أو حراما، ولكن الحياة التى يطالب الله سبحانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هى الحياة المستقيمة الحركة على منهج الله وتقود إلى حياة آخرة فيها نعيم لايفارقك ولا تفارقه، وفيها أبدية تبقى ولا تنتهى، وفيها نعم عظيمة تأتى بقدرة الله تعالى، وليس بقدرة البشر المحدودة.

إذن فقوله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤]

معناه أن الحياة حياتان؛ حياة تحرك هذه المادة ؛ فتتحرك وتجرى وتروح وتجىء، وهى تتصلح بالمنهج الذى يقود إلى حياة أخرى فوق الحياة الدنيا.

إذن فالحياة الدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هى الغاية التى يجب أن يسعى إليها الإنسان، بل على الإنسان أن يسعى إلى الحياة الأرقى. وسبحانه لا يريدنا أن نأخذ المرحلة الأولى من الحياة التى تحرك المادة فتتحرك وتجرى، بل يريد لنا حياة تقودنا بالقيم، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التى تحرك المادة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص]

فهذه حياة المرحلة الأولى التى لا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذها كغاية، ولكنه يريدنا أن نأخذها وسيلة لنصل بها إلى الحياة الراقية فى كل صورها الخالدة بكل معانيها؛ المنعَّمة فى كل درجاتها. وكما سمَّى الحق سبحانه

وتعالى الروح التى تنفخ فى المادة فتعطيها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سمّى المنهج الذى يعطينا المرحلة الثانية من الحياة روحا ،حيث يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

هذه هى روح المنهج التى تعطينا المرحلة الثانية من الحياة. فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات، تماما كما تنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية. إذن فالحق لم يترككم للنور المادى ليحافظ على ماديتكم من أن تحطموا أو تتحطموا، وإنما أرسل إليكم نورا لتهتدوا به فى مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ولم يقل سبحانه: «نور مع نور» ؛ لأن الإنسان لا يُكَلَّفُ من الله إلا بعد أن يصل إلى سن البلوغ[1] ، فالنور المادى يراه ويستفيد به قبل التكليف، ثم يأتى النور المعنوى فيتلقاه من الكتاب الذى أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله.

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥]

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد ؛ لأنه نور لكل الخلق، وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق

(١) عن على رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصغير حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المصاب حتى يكشف عنه» أخرجه أحمد (١/ ١١٦) وأبوداود (٤٣٩٩ ـ ٤٤٠٣) من طرق عن على، والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٥٨) وصححه وأقره الذهبى.

إلى الهداية، وهذا النور المعنوى يختلف عن النور المادى، فالحق لم يحرم - إذن - أحدا من النور المادى، وشاء أن يجعل النور المعنوى ضمن اختيارات الإنسان؛ إن شاء آمن واهتدى، وإن شاء ضل. وكل ذلك مجرد مثل من الأمثال التى يضربها الله تعالى للناس ؛ لذلك قال عز وجل:

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وجاءت الآية التى بعدها لتوضح لنا أين يتنزل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦]

وعندما تسمع جارا ومجرورا لابد أن تبحث عن المتعلق بهما، فما الذى فى بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجدها إلا فى قوله تعالى:

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح ؛ لنصل إلى المرحلة الثانية من الحياة ، تماما كما يحدث فى الدنيا عندما تصاب آلة بعطب أو لاتؤدى مهمتها على الوجه الأكمل، فالذى يصلحها ويصونها لتؤدى مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذى صنعها . والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، فلا أحد يستطيع أن يدعى مهما اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس. وهذه دعوى لم يدَّعِها أحد قط.

وما دام الله عز وجل هو الذى خلق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذى يضع المنهج الذى يصون حياة الناس ويجعلها تؤدى مهمتها كاملة. ومادام ربنا هو الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، فكيف يأتى إنسان من البشر ليفتئت[1] على

(١) يفتئت : يقول الباطل ويختلقه .

الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهجا لحياة البشر، ويعلم الإنسان ما يفسد حياته لا ما يصلحها. ونقول لكل من يفعل ذلك: لماذا تلجأ إلى من يصنع التليفزيون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذى يصلح لك نفسك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون فى حضرة ربه دائما هو إصلاح لما فى النفس، فحين يقف المؤمن بين يدى الله ويصلى، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذى يصيب أى ملكة من ملكاته بالارتباك.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1]، وما معنى حزبه أمر؟ . أى :إن جاءه شىء أو أمر ، وكان فوق طاقته. وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئا تجاهه، وتضيق عليه الأمور . فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة ، فإن قابل أمرا مكروها وشاقا يقول : إن لى ربا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتحل أصعب وأعقد المشكلات . إذن فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بد أن نتجه إلى الله عز وجل . وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته . فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى [2]

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى أولذلك الذى يعانى من شىء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول: هذا الظاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث فى داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى

(١) عن حذيفة قال :« كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ٢١١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من رواية زياد بن صخر عن أبى الدرداء وقال: «لم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات».

يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى وهى التى يتنزل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

إذن فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب[1] الخالق الذى خلق هذه النفس ويعرف كيف يداويها، وليس للطبيب الدارس فى كلية الطب الذى يعرفه أشياء وتغيب عنه أشياء. ونحن فى المساجد إنما نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم ، على أننا إذا دخلنا المسجد فلنعرف أن لهذا المكان قدسيته، ولابد أن يحرص الإنسان على نظافته ومظهره، ولترتد أحسن ثيابنا ؛لأن الله لاينظر إلى نظافتنا أو أناقتنا، ولكن ليحرص كل منا على ألا يتأفف منه من يصلى بجانبه؛ فمن يعمل فى مصنع ويحضر إلى المسجد بملابس العمل قد لاتتناسب ملابسه مع المجىء إلى المسجد إلابعد أن يغتسل؛ إن ملابسه شرف له فى عمله، ولكن عليه أن يغيرها حين يذهب إلى المسجد،[2] ومن يعمل فى مكتب قد يكون الجو حارا أو امتلأ جسده بالعرق، وملابسه التى يوجد بها فى وظيفته هى شرف له فى عمله، ولكن عليه أن يغتسل، وأن تكون رائحته طيبة حين يدخل المسجد. ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل ثوماً أو بصلاً أن يأتى المسجد حتى لا يتأذى أحد بالرائحة التى تصدر من فمه . وقال صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف الذى يرويه جابر رضى الله عنه: « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا »[3] .

---

(١) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخدمه فضيلة الشيخ الشعراوى هنا هو تعبير استخدمه رسول الله ﷺ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: «الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها».

(٢) وقد جاء بهذا حديث رسول الله ﷺ فعن عائشة قالت: إن الناس كانوا عمال أنفسهم، وكانت ثيابهم النمار (جلود النمور) فكانوا يروحون فى مهنتهم كما هى ، فقال رسول الله ﷺ: «لو اغتسلتم وما على أحدكم أن يتخذ ليوم الجمعة ثوبين سوى ثوبى مهنته». أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٦٣) والبخارى (٢٠٧٠) وابن ماجه (١٠٩٦) واللفظ تاما لابن ماجه.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٥٥) ، ومسلم ، (٥٦٤) من حديث جابر بن عبدالله.

وفى رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[1] . ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكون الإقامة فى المسجد طيبة، لتكون الأفئدة منشرحة. ويجب أن نراعى جلال المسجد ؛ لأننا نعرف أن الرحمات تتنزل على الصف الأول ثم الذى يليه[2]، فلا يحاول واحد منا أن يحجز مكاناً بالصف الأول بأن يضع فيه سجادة خاصة أو كوفية، ثم يأتى أحيانا بعد إقامة الصلاة ويحاول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول.

وإياك أن تعتقد أن الصف الأول محجوز لشخص معين ولو أتى متأخرا، فكل إنسان يأتى للمسجد عليه أن يأخذ دوره، ويقعد فى المكان الخالى. وإياك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الذين يتكوّن منهم الصف الأول ، إنهم هؤلاء الذين جاءوا للمسجد أولا. أما أن تحضر إلى المسجد وتحجز مكاناً فى الصف الأول لصديق أو قريب بحيث إذا جاء إنسان آخر ليصلى فى هذا المكان قلت له : إن المكان محجوز. نقول لك: أنت حر أن تفعل ذلك فى بيتك، ولكن من جاء إلى بيت الله أولا فليجلس أولا، وكثيرا ما تحدث مسألة الحجز للأماكن فى مواسم الحج والعمرة. وعلى من يجد مكاناً قد حُجِزَ بسجادة أو أى شىء آخر أن يزيحها بعيدا ويصلى.

وأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد فى بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه، فإذا كان المجىء على موعد فكرمك يكون كبيرا. فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟!

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته.

---

(١) أخرجها مسلم فى صحيحه (٥٦٤) كتاب المساجد.

(٢) عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ، قالوا : يا رسول الله وعلى الثانى؟ قال : وعلى الثانى». أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٠٥). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٩١): «رجال أحمد موثقون».

وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب[1] ، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره فى أى وقت، فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرص من الله سبحانه وتعالى على أن يلقاك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة. ولكن إن أحببت أن تجلس فى المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل. تعالَ فى أى وقت وصلِّ كما تشاء، فإذا قلت: «الله أكبر» تكون فى حضرة الله . وإن لم تستطع فصلواتك الخمس فى اليوم الواحد هى القسط الضرورى لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تقابل ربك أثناء الصلاة وتعلن الولاء له .

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى منهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب. وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذن لصلاة الظهر ـ مثلا ـ فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه. وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائما. فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة[2] ويكون معك دائما، ويقيك ذل الدنيا.

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر». أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٩٣) والدار قطنى فى سننه (١/ ٤٢٠) والطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٤٤٦) بسند صحيح.

(٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبى ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٨) وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٦). وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٢٣) بلفظ «ما من عبد يسجد لله سجدة» الحديث.

وقلنا قديما: إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيما من العظماء فهو يطلب المقابلة، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان وفترة الزيارة. فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا، فبيته مفتوح دائما حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضرورى، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك فى أى وقت وتدعوه بما تشاء، وتطيل فى حضرته كما تريد، ولايقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت. وأذكركم دائما بقول الشاعر:

حَسْبُ نفسى عِزًّا بأنى عَبْدٌ

يَحْتفِى بِى بلا مَواعِيد ربٌّ

هُوَ فى قُدْسِــهِ الأعـزّ ولكِنْ

أنا ألقى متَى وأينَ أُحبُّ

● ● ●

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]

لأن المساجد مخصصة لعبادة الله تعالى، فمن غير المنطقى أن يبنيها أو يجلس فيها مشرك أو كافر، وقوله تعالى: «ما كان» أى ما ينبغى، وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ أى هم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر؛

فشهادتهم بالحال، وبالمقال. كما تشهد على أنفسنا بالإيمان حين نلبي في الحج والعمرة ونقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أي أننا ننزه الله تعالى عن الشرك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، و﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله، و﴿حَبِطَتْ﴾ أي نزلت من مستوى عال إلى مستواها الحقيقي دون مستواها الشكلي، فتجد العمل وكأنه منفوخ كالبالون الضخم، وهو في حقيقته مجرد فقاعة ضخمة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط، فهي أعمال لا قيمة لها، وليس لها حصيلة ؛ لأنها أعمال باطلة. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

وتجد الواحد من هؤلاء يظل يعمل ويعمل، ويظن أنه سوف يجني خيراً كثيراً من هذا العمل، وقد يكون العمل مفيداً لغيره من الناس. ولكنه افتقد النية، ففسد نتيجة لذلك. والقرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال في آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]

والسراب هو ما يخيل إليك بلمعانه أنه ماء في الصحراء. وعندما تذهب إليه لا تجد شيئا. والذي لا يحس بالظمأ قد لا يلتفت إلى ذلك. ولكن الظمآن تتعلق نفسه بالماء، فيجيل بصره في كل مكان يبحث عنه، فإذا رأى أي لمعان حسبه ماء، وعندما يجيء إليه لا يجد شيئاً، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل هو

يجد الله عنده ليوفيه الحساب. ومثل هذا الانسان لم يضع الله فى باله يوماً من الأيام، وليس لمثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب. لأن الإنسان يطلب أجره ممن عمل له، وهو لم يعمل عمله وفى باله الله.

وأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرا، ولكن إن عملت معروفا لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله، ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيرا فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة. ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها. فمن بُنى من أجله المسجد وهو الله عليم بكل شىء، ويعلم اسم من أقام البناء ، وعليك أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة، حتى لاتدخل فى دائرة «عملت ليقال وقد قيل ». وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المرائين فى حديثه الشريف الذى يقول فيه عليه الصلاة والسلام : «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتى به ، فعرّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال :

تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها ؟ قال :ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكن ليقال : إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار»[1] .

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله فى باله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية ثانية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة فى الرماد ؛ إنها لا تبقى منه شيئاً. والمشرك الذى كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمر، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً ؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٧]

لأنهم عملوا لغير الله فلقوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) عن أبى هريرة ، واللفظ للنسائى.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ﴿١٨﴾

الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقمة الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله». وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه، وأنه محمد بن عبدالله، وبعضهم قد قال: القرآن جيل ورائع فلماذا جاء على لسان محمد؟ وكان اعتراض كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]

إذن فالمشكلة عندهم لم تكن فى القرآن ذاته، بل كانت فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .[1]

ويرد الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢]

أى أن رحمة الله تعالى خاصة به، لايقسمها إلا هو بمشيئته، يقسمها كيف

(١) ولايطعن فى هذا أن الله عز وجل قد حكى عن مشركى قريش أنهم قالوا: (أجعل الآلهة إلها واحدا) (ص: ٥) وأن منهم من (ضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) [يس: ٧٨]، فقد يكون هذا عند بعضهم سترا منه لحقيقة رفضه لشخص الرسول ﷺ حسدا من عند نفسه وكبرا.

يشاء كما قسم بينهم معيشتهم وأعطاهم الرزق المادى ، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم في الأدنى ، فكيف يريدون هم أن يتصرفوا في الأعلى؟لقد قالوا ما جاء في القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان المنطق الصواب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية . فقد كانت عصبيتهم - إذن - ضد شخص الرسول ﷺ .

وكان على من يعلن إيمانه بالله منهم أن يشهد أن محمداً ﷺ هو رسول الله .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (١٨) ﴾ [التوبة]

وهذا القول يحمل في مضمونه إيماناً برسول الله ﷺ ؛ لأن الله يقول بعدها: ﴿ وأقام الصلاة ﴾ وإقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول الله ﷺ فهو الذي قال لنا إنها خمس[1] ، وهو الذي علمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها ، وهو الذي نشهد له ونحن نصلي ؛ في الإقامة وفي التشهد ، إذن فساعة تقيم الصلاة لا بد أن نكون مؤمنين برسول الله ﷺ . وعلى ذلك فقوله تعالى : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ يقتضي ضرورة الإيمان برسول الله ﷺ . واشترط سبحانه وتعالى في هذه الآية

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني بما افترض الله عليَّ من الصلاة . فقال : « افترض الله على عبادة صلوات خمسا » الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧) والحاكم في مستدركة (١/ ٢٠١) وصححه والدار قطني في سننه (١/ ٢٢٩) .

الكريمة الإيمان به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفى طيها الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إيتاء الزكاة، وطلب منا ألا نخشى غيره، والخشية هى الخوف. وسبحانه وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]

إذن فهناك خوف من أشياء أخرى، ونقول: إن الحق حين قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ أى لم يخش فى دينه إلا الله، لكن لا مانع من الخشية التى تجعلك تعد لعدوك وتحذر عدوانه عليك. وانظر إلى دقة القرآن الكريم وعظمته، فقد جمع فى آية واحدة بين الإيمان بالله واليوم الآخر والصلاة والزكاة، ولم يأت فيها ذكر الإيمان بالرسول ؛ لأنه مسألة مطوية فى أركان الإيمان. ومن يفعل ذلك يدخل فى زمرة من وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

ولقائل أن يقول: كيف بعد أن آمنوا بكل هذا نقول: عسى ؟.. إذن فما حكم الذى لم يؤمن؟

ونقول: إن «عسى» و«لعل» أفعال رجاء، وذكرها يعنى الرجاء فى أن يتحقق ما يأتى بعدها، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف، أنت تقول مثلاً: اسأل فلاناً لعله يعطيك، هذه مرتبة من الرجاء، وتقول: لعلِّى أعطيك، وهذه أقرب إلى التحقيق من أن أرجو غيرى أن يعطيك.

إذن فهى مرحلة أعلى فى الإجابة، وأن تقول: لعل الله يعطيك مرحلة ثالثة وعالية من الرجاء ؛ لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر. والله سبحانه

وتعالى كريم يعطى بسخاء. ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: لعلى أعطيك، فيكون هذا توقعاً مؤكداً للعطاء.

إذن فمراحل الرجاء؛ رجاء لغيرك من غيرك، ورجاء منك لغيرك، ورجاء من الله لسواك، وقول من الله بالرجاء. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ [الإسراء: ٨]

نقول: إنه الرجاء المحقق ؛ لأنه سبحانه وتعالى كريم يجب أن يرحمنا ولاشيء يمنعه من أن يحقق ذلك. إذن فيكون الرجاء قد تحقق. وقوله تعالى:

﴿ فَعَسَىٰ[1] أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

والهداية إما أن تكون هداية إلى سبيل يؤدى لغاية، أى يهدينا الله للمنهج، فإن عملنا به نصل إلى الجنة، لأن المنهج هو الطريق للجنة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار:

﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]

إذن فالهداية مرة تكون للمنهج فنؤمن به ونعمل به، وإما لطريق يوصل إلى غاية. والذين ذكرهم الله فى هذه الآية الكريمة هم كل:

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة: ١٨]

وما داموا قد فعلوا ذلك؛ فهذا هو تطبيق المنهج، وبذلك فَهُمْ - إن شاء الله - لابد أن تكون نهايتهم الجنة.

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٤١): كل عسى فى القرآن هى واجبة. وقال محمد بن إسحق: وعسى من الله حق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا في غزوة بدر، وكان منهم العباس عم رسول الله ﷺ حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام وللجهاد في سبيل الله فقال : إننا نسقي الحجيج ونرعى البيت، ونفك العاني، ونقوم بعمارة البيت الحرام[1] قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد. وماقاله العباس هو موجز رأي أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد في سبيله. وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ .

وكلمة ﴿ سِقَايَةَ ﴾ تطلق ثلاث إطلاقات : فهي المكان الذي يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذي نسميه ـ السبيل ـ وكذلك تطلق السقاية : على الإناء الذي تشرب منه الماء، والذي يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أو يسمى صواع الملك، وفي قصة يوسف عليه السلام يأتي القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف]

أما المعنى الثالث : فهو الحرفة نفسها؛ فنقول : هذه خياطة، وهذه حدادة

---

(١) ويقول ابن كثير : « قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني قال الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك . تفسير ابن كثير (٢ / ٣٤١) .

وهذه سقاية، أى أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية ـ إذن ـ هى المكان الواسع الذى يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذى نستعمله فى الشرب، أو الحرفة التى يقوم بها السقا.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا فى مقابل الإسلام ، فذلك لايصلح أبدا كمقابل للإيمان، ولاتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج ، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة فى أن يتقبل العمل أو لايتقبله. والمؤمن المجاهد فى سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقى الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين ـ قبل الإسلام ـ فهو يطلب الجزاء ممن عمل من أجلهم، ولأنه سبحانه هو معطى الجزاء ، فهو جل وعلا يوضح لنا: أن هذين العملين لايستويان عنده، أى لايساوى أحدهما الآخر فى الجزاء.

ويقال[1]: إن سيدنا الإمام عليا رضى الله عنه، وكرم الله وجهه ،مر على طلحة بن شيبة ،والعباس ووجدهما يتفاخران، أى: يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التى يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى فى الأشياء التى ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى.

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) من قول محمد بن كعب القرظى وعزاه لابن جرير بسنده. وفيه ابن لهيعة، فيه كلام.

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس فى الماء، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول، أى: أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس لأحد يد فيها، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر، وهو الذى يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب.

جلس طلحة والعباس يتفاخران، فقال طلحة بن شيبة: بيدى مفتاح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنمت.

فرد عليه العباس: وأنا معي سقاية الحاج ،ولو شئت ألا أسقى أحدا لاستطعت. ومر الإمام علي كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران، فلما سمع كلامهما قال: ماأدرى ماتقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]

ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال : «إنَّا قد رضينا، إنَّا قد رضينا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى حكم، وفى هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التى كانت بين العباس وطلحة لم تكن فى موضعها.

وكلمة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ فى الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، فلك مقاييس وللناس مقاييس. وقد تجامل نفسك فى مقاييسك. وقد يجاملك الناس فى مقاييسهم، أو قد يقسون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى ؛لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شىء. ولكن المقاييس

التى لا هوى فيها والتى ليس فيها إلا العدل المطلق هى مقاييس الله، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شىء، وليس فيها أى فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لايدخلهم فى مشيئة هديه، فقال:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق فى الكثير من آيات القرآن الكريم. وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هدانى ما قتلت، وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطىء، ولنرجع إلى القرآن الكريم، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ لا يهدى﴾ أى نفى مايستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لايَهْدِى من قدم الكفر، أو قدم الظلم

أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذى يمنع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل فى هداية الله تعالى، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهديه الله؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية، فالحق يعطيه المزيد من الهدى ؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية، واستقبل منهج الله بالرضى. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨]

إذن فالحق يهدى من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر فى يقينه أن له رباً، واعتقد أن له إلهاً، وقد فصلنا ذلك فى مسألة القضاء والقدر، وقلنا : إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لايهدى الكافر، إذن فهو يهدى المؤمن، وأوضح أنه لايهدى الظالم، إذن فهو يهدى العادل، وأوضح أنه جل وعلا لا يهدى الفاسق، إذن فهو يهدى الطائع، فلا يقولن أحد: إن الله لم يشأ أن يهدينى ؛ لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله، وهو يهدى من قدم أسباب الهداية، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

ويقول أيضا:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن فالله أخبرنا مسبقاً بمن يستحق هدايته ومن لا يدخل فيها ، وأنت باختيارك طريقك ، إما أن تؤمن ؛ فتدخل فى الهداية ، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله ؛ فتمتنع عنك الهداية . فإذا جاء أحد يجادلك ؛ ويقول لك : إن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ..(٣١) ﴾ [سورة المدثر]

لك أن تقول له : لقد بيّن الله عز وجل من شاء له الهداية ، ومن شاء له الضلال ، ولقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - فقلنا : إن الهداية قد وردت فى القرآن الكريم على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق ، وهذه هداية للجميع[1] ، فقد دل الله المؤمن والكافر على طريق الإيمان برسله وكتبه ، أى : بيّن لهم ما يرضيه وما يغضبه وما يوجب رحمته وما يوجب لعنته ، فالهداية الأولى - إذن - وردت بمعنى الدلالة للجميع ، أى : أنها هداية عامة . ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين ، وهى التى بيّنها الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [سورة محمد]

أى : أعانهم على منهجه ؛ فيسّر لهم الطاعة وصعّب عليهم المعاصى ، فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه ، فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك ، ويحبب الطاعة إليه ؛ فيزداد طاعة ، وإذا شرع فى ارتكاب المعصية ؛ بغّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها[2] .

وضربنا لذلك مثلا بالرجل الذى يقود سيارته ذاهبا لمكان معين ، وعند

(١) ومن هذه الهداية قول رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب فى حديث طويل : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » . أخرجه البخارى (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٦) فى صحيحيهما .

(٢) وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) ﴾ [الحجرات]

مفترق الطرق وجد رجلا من رجال المرور؛ فدله على الطريق، هذه دلالة عامة. وعندما يقدم الرجل الشكر لجندى المرور، فرجل المرور يُزيد من الإيضاح له: لاتتبع طريق كذا لأن فيها متاعب ومصاعب، واتبع طريق كذا وكذا تصل فى سرعة ويسر، وهذه زيادة فى الدلالة، أو زيادة فى الهداية. لكن إن قال سائق السيارة لنفسه: إن هذا رجل مرور لايعرف شيئاً ، وتجاهل شكره، فرجل المرور يتركه وشأنه.

إذن فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان، فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه. ومن اتخذ طريق الكفر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يعانى ويضل. ولذلك لابد لنا أن نتذكر دائما أن الهداية هدايتان؛ هداية دلالة لكل الناس، وهداية معونة للمؤمنين فقط، وفى الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]

أما دلالة المعونة : فهى التى يقول فيها المولى عز وجل:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]

وما يكشف لنا أن الهداية عامة، أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن قوم ثمود وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحاً، قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت: ١٧]

ولو كانت الهداية هنا بمعنى أنهم أصبحوا مهتدين، وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها:

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧]

إذن ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ في هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ ﴾

وفي سورة الأنفال تصنيف آخر في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) ﴾ [الأنفال]

وفي هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع في آية التوبة.

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفي هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾، و﴿أَعْظَمُ﴾ صيغة أفعل التفضيل، وهي تعطي قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال : فلان أعلم من فلان. وبهذا يكون الشخص الثاني عالما، ولكن الشخص الأول أعلم منه. ويقال : فلان أكرم من فلان، أي أن الموصوف الثاني كريم، والموصوف الأول أكرم منه. والله

سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والفوز حكم يؤدى إلى أن تأخذ ماتحبه نفسك. فقال الحق موضحاً مايفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومادام هؤلاء هم الفائزون، فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين. فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لايتركك فيزول عنك، ولاتتركه لأنك فى الجنة خالد لاتموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى :

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

إذن فهذا قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم الله فى هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم. والبشارة ــ كما نعلم ـ هى نوع من الإعلام بشىء سوف يأتى مستقبلا ، أى ءأنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشىء قادم يسره.

إذن ففائدة البشارة أن تغرى الإنسان بسلوك السبيل الذى يحققها، فأنا أبشرك بالنجاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة ، ويشجعك كلامى لتجتهد حتى تحقق هذه البشارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التى توصلك إليها.

ولذلك فقد قلنا : إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر؛ لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب فى الجواب؛ كقولك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا؛ إن الجواب هو السبب فى الشرط لأنك لاتذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل مايحققه لك من فرحة، إذن فالشرط سبب فى وجود الجواب واقعا. والجواب سبب فى وجود الشرط دافعا، أى أ: ن الدافع لمذاكرتك هو مايمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية. وكل إنسان يرغب فى النجاح، لكن النجاح لايتحقق بالدعاء فقط، بل بالمذاكرة التى تحقق النجاح كواقع. بمعنى أنك لاتذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه وبمكانته ويفرح أهلك بك، وبفرحك بنفسك. ولهذا نقول :إن السبب هو الذى يوجد أولا فى الذهن.

ومثال آخر: لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف. فتكون الطائف هى الغاية، وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفى ذهنك الغاية، إذن فالجواب يوجد دافعا، والشرط يوجد واقعاً. وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أى: يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التى يأمرهم

بها المنهج؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره [١]، ولأن التشريع الإلهى تقييد لحرية الاختيار فى العبد، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى فى «افعل» و«لا تفعل». ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه فى كل حركاته، ويفعل ما يشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به. فكأن الإيمان جاء ليقيد، ولكن إذا قارنا بين الجزاءين، نجد أن الذى يتبع شهواته فى الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة، وعمره فى الدنيا محدود، إذن فهو الخاسر، لأن الذى قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا فى الدنيا ونعيما مقيما لا يزول ولا ينتهى فى الآخرة [٢]. والمثال الذى أضربه دائما هو الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو، وهو قد أعطى نفسه ما تريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره.

أما الذى قيد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو. وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره.

إذن فكل من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لوناً من المتعة. ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً، ثم أصبح من صعاليك الحياة، أما الثانى فقد قيد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت فى الدنيا؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و«لا تفعل»،

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) وقال: حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

(٢) وهذا فى مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]
أما الذى خرج عن منهج الله وأعرض عنه فقد قال عنه القرآن: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]

فظاهر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك برضا، فالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة في النفس. ولذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة فى ظاهرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنها تعطى راحة نفسية ، كما أنها تعطى اقتناعا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يابلالُ أرِحْنا بالصلاة».[1]

كما قال صلى الله عليه وسلم ضمن حديث رواه عنه أنس بن مالك رضى الله عنه «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة».[2]

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة. ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يبشرهم ربهم﴾، تجد البشارة هنا آتية من رب خالق. والرب هو المالك ؛ والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة : ٢١]

والرحمة والرضوان من صفات الله وهى صفات ذاتية فى الله، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢١]

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ فى النعمة، فقد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

(٢) حديث أنس أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى،وتمام الحديث «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب...»

وهى ذاتية فيه، ثم بنعمة دائمة فى الحياة. ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دعاك إنسان فى بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لابد أن يكون التفاح فى الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين. فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهى تمثل الرحمة والرضوان. أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً فى التكريم.و المؤمنون حين يرتقون فى درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم الله»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمدلله»، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر فى الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة [1]؛ يباهى بعبادتهم وطاعتهم التى يلتزمون بها على أى حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية. ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل[2]» ؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية. فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد، فسوف يرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت؛ وأما الآخرون فيرونه لمحات ، ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قدر العمق الإيمانى للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٨٠١) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أبشروا .. هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يباهى بكم الملائكة . يقول : انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى » وقد أخرج نحوه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٦) ، قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لاتنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا ليتنعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى. وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يحيا فى الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هى صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهى، وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدى فى الجنة. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لهم﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما تملك الإنسان فى هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لايتجاوز حدود أن يجلس ؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتى من ملك بإمكانه أن يحقق كل مايريده بيده. بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن فى الجنة ينال مايتمناه بمجرد أن يخطر الشيء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب فى شيء فى دنيانا، لابد أن تقوم به بنفسك ،أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك، حتى وإن كان ماتطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ،أو بقليل من السكر ،أو بكثير من السكر، لأن كلا منا فى الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله. ولكن المؤمن فى الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ لنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهى كما علمنا من قبل تقتضى القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاماً، بل يخرج كل تلميذ قلمه . وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التي اكتسبها والمنزلة التي وصل إليها [1].

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحيانا في الدنيا حين يتفوق إنسان في دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو مايحدث في الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر]

أى :أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سينال من فيوضات الخير، التي عند الأعلى منزلة. عندما يأتي لزيارته وقد قالوا في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن]

إن كل من علت منزلته في الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنها مضيفة لمن يحبهم، إذن ففي الآخرة يفرح أهل الجنة

(١) عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذي (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح ، وأبو داود في سننه (١٤٦٤).

بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا.

وفي الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلابد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهي التي تعطيك نتاجها. ولست أنت الذي تنتزعه منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لاتعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق في كل مكان وقد لاتجده. ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لايعرفون الحقد ولاالحسد ولا الغل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابي حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إني لأصلي كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكي كما تزكون. ولكنني أبيت وليس في قلبي غل لأحد. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال صلى الله عليه وسلم: «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا» [1]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك في الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمي في المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال «رجال أحمد رجال الصحيح». وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تبعه عبدالله بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك وهي التي لانطيق.

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والولى هو الذى يليك وينجز ماتحبه ، وتلجأ إليه فى كل أمر، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك .إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا: إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لاخلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق مايطلبه المخلوق ؛ لأنك إن أغضبت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ،وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولاترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك[1] . فإن شهدت زورا لصالح بشر يعرف عنك هذا الذى شهدت زوراً فى حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدقة لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه» أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٥٤٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أرسلتها لمعاوية.

عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط في نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل مايغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظا معه. وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ [التوبة: ٢٣]

إذن فالذى يربط كل شيء هو الكفر أو الإيمان. وقد أعطانا صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الخالد. فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا في مكة، وكانت حياته في مكة قبل إسلامه غاية في الترف، وكان يرفل[1] في الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادى الصعب ، لدرجة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه في الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبى عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش[2] وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى:

(١) يرفل: يتبختر في مشيته ويجر ذيله.

(٢) عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطق به فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون» أخرجه أبونعيم في حلية الأولياء (١/ ١٠٨) قال العراقى في تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/ ٢٩٥) إسناده حسن.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم فى الانتماء الإيمانى، والمجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذى يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه. فالإنسان مقهور فى أشياء ومخير فى أشياء.

ونعلم أن التكليف لايأتى فى الأمور التى نحن مقهورون عليها. وإنما يأتى فيما لنا فيه اختيار، فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن نختار بين البدائل فى إطار منهج الله تعالى، ولانخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون فى سبيل الله. واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتمال شديدين ؛ لأنهم وثقوا فى البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان «والنعيم المقيم» خالدين فيه لايفارقهم ولايفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بيّن لنا الحق أسس الانتماء للدين، وجزاء هذا الانتماء، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة : ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لايعلو عليه شىء، فإذا مِلْنا عن الحق لنرضى أقارب ،أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل

أحدنا الإيمان خادما لكفار لايؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أى: طلب الحب ومثلها مثل «استخرج» أى: طلب إخراج الشيء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها : أجاب.

إذن فـ«استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان،لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه ؛ وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]

ـ وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ ؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين تأتى إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبعى أن يبحث العقل عن الموجد، وخصوصا أن فى الكون أشياء ،لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض ،والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك.

كان من الطبيعى ـ إذن ـ أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟. خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل :مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟. ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحمة منه ؛لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم. لماذا إذن لاتصدق الرسول ، وتتبع المنهج الذى أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقى حيا، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ،وكل مايحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذى جاء به؟. وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذى أوجد هذا الكون؟.

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية ،وضرورة عقلية أيضا، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك. وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذى يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ،أو فطرياً ،كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف. فالذى يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة، والذى يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة[1] ، والمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو.. يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى .أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذى يحتاج إلى تكلف، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئا فهو

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : «البر حُسْن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٤/ ١٨٢) .

يأخذ ما يريد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحرف من يدخل إلى غير حجرته ليأخذ شيئا من «دولاب» ما، حتى ولو كان «دولاب» الأب النائم، لذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقامة لاتحتاج إلى تكلف، ولكن الانحراف هو الذى يحتاج إلى تكلف، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ ولم يقل: «أحبوا»، لأن الحب أمر فطرى، فالإنسان ـ مثلا ـ يحب ابنه حبا فطرياً عاطفياً، والحب العاطفى لايقنن. فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فلانًا وسأكره فلاناً ؛ لأن العاطفة لاتأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ،حتى وإن كان فاشلاً فى دراسته. لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكذلك أنت تكره الدواء المر بعاطفتك، لكنك تحبه بعقلك إن كان فيه شفاؤك، فتبحث عنه ، وتدفع المال من أجله، وتحرص على أن تتناوله، وكلنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لايؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه»[1]

ووقف عند هذه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا رسول الله: أنا أحبك عن مالى وأحبك عن ولدى، ولكن كيف أحبك عن نفسى؟ فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قائلا : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررها عليه الصلاة والسلام ثلاثا، فعلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن هذا تكليف. والتكليف لا يأتى إلا بالحب العقلى الذى يمكن أن يقنن، وقد يتسامى المؤمن فى الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد بن هيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد. وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وعاطفياً. ولكن الحب العقلى هو مناط التكليف، أما الحب العاطفى فلا يكلف به. ولم يقنن الحق سبحانه وتعالى لانفعالات العواطف، لأنه سبحانه لايمنع العواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعية، فأنت تحب من يسدى إليك معروفاً، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب. وهناك من تبغضه دون أن يكون قد عاداك أو آذاك [(1)] ، وكل ذلك متروك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى أن يؤدى ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة : ٨]

أى :لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره ؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صورة حية لهذا ؛ فقد قتل أبو مريم الحنفى زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة، ثم دخل فى الإسلام؛ فكان كلما مر أمام سيدنا عمر قال له: إلو وجهك بعيداً عنى ، فإنى لاأحبك. فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى.

قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

والحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إنما يريد أن يلفتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله، فالولاء لله فوق كل حق ؛ حتى لو كان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فلا تجعل الخلق الفرعى يطغى على الخلق الأصلى. ولذلك يذيل الحق هذه

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩) وأبو داود (٤٨٣٤).

الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم نقلوا الحق من الله سبحانه وتعالى إلى الخلق، ولأنهم ظلموا أنفسهم فحرموها من الجزاء فى الآخرة ليحققوا نفعا عاجلا فى الدنيا. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٥٧]

لأن أحدا لايستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى ، والذى يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمردين وجاءك الله بمرض؛ فهل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟. وإذا جاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمرد على الموت وتبعده عنك فلا تموت؟. إذن: هناك أقدار لاتستطيع التمرد عليها ، وأنت متمرد ـ فقط ـ فيما لك فيه اختيار.

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للمؤمنين. وقد جاء سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ثم الزواج، وهو وسيلة التكاثر، ثم الأهل والعشيرة ،ثم الأموال التى نملكها فعلاً ، ثم الأموال التى نريد أن نكسبها، ثم المساكن التى نرضى بها، وبعد ذلك ذكر التجارة التى تزيد من المال. وفرّق الله سبحانه بين الأموال التى فى حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتى لنا بأموال فوق الأموال، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فائض من المال. ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أى مسألة من هذه الأشياء ، وهى زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى انتظروا حتى يأتيكم أمر الله، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ماعند الله تعالى من رضاء ونعيم.

ولهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التى اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ،وآباءهم وأبناءهم ،وإخوانهم وأزواجهم وعشائرهم ،التى تستطيع حمايتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركنوا للدنيا فبقوا بجوار أموالهم وأزواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت الواحدة من النساء المشركات تتعلق بقدمى زوجها المسلم الذى يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان قلبه يرقُّ لها ، ومنهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ،التى بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية [1].

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتماء الإيمانى ويدرب المؤمنين عليه. فقد كان المسلم لايتم إيمانه حتى يهاجر ويصارم[2] أهله

(١) انظر تفسير القرطبى (٤ / ٣٠٢١) طبعة دار الغد ، وأسباب النزول للإمام السيوطى (ص ٩٢ ، ٩٣).
(٢) يصارم أهله : يقاطعهم قطعاً باتاً .

وأقاربه ويقاطعهم، فشق ذلك عليهم. وقالوا: يارسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا في ديننا قطعنا آباءنا وأبناءنا وأزواجنا وأقاربنا، وخفنا على أموالنا وتجارتنا من الفساد، وخفنا على مساكننا أن تخرب ، وبذلك نضيع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكأنها تأمرهم بأن كسب الإيمان أعلى من أي كسب آخر، فأنزل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة]

ولما نزلت هذه الآية الكريمة أخذها الصحابة مأخذ الجد وهاجروا ؛ وقاطعوا آباءهم وأبناءهم ، حتى إن الواحد منهم كان يلقى أباه أو ابنه فلا يكلمه ،ولا يدخله بيته ،ولا ينزله في منزله إن لقيه ، ولا ينفق عليه ، إلى أن نزلت الآية الكريمة:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٥]

أي :أن المعروف معهم يقتصر فقط في المعاملة وفي الإنفاق على المحتاج . أما الطاعة لهم فيما يغضب الله فهي محرمة. وحاول بعض المستشرقين أن يطعن في القرآن، فمنهم من قال : إن هناك تعارضاً بين آيات القرآن الكريم، فالآيتان اللتان ذكرناهما ؛ الأولى تطلب مقاطعة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر على الإيمان، والآية الثانية تطلب مصاحبتهم بالمعروف أو عدم القطيعة، وآية ثالثة تقول: .

﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ [المجادلة: ٢٢]

ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، وتود بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً في إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفاً في عدوك حين تجده في مأزق، ولكنك لا تحبه ولا توده.

إذن : فالمنهى عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهيا عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن في مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعي في الحياة، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف في الدنيا، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر، لأن إيمانك بالله لابد أن يكون هو الأقوى. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».[1]

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب، والبعد عن الله سبب الكره. فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة. ففي معركة بدر كان سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما ابنه فلم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفار، فلما أسلم ابن أبي بكر وآمن؛ قال لأبيه: لقد رأيتك يوم بدر

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

فلويت وجهي عنك حتى لا أقتلك. فرد سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: لو أنى رأيتك لقتلتك. وهذا منطقى مع الإيمان لأن الموازنة النفسية اقتضت أن يقارن ابن أبى بكر بين أبيه وبين صنم يعبده ؛ فرجحت كفة أبيه، ولكن أبا بكر حين رأى ابنه قارن بين ربه وابنه فرجحت كفة ربه.

وإذا كان ذلك عن القرابة ، وكيف يَجُبُّ الإيمان العاطفة، فماذا عن المال؟ يتابع المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: أخذتموها بمشقة، وهى مأخوذة من «القرف» وهي القشر، وأنت إن أردت إزالة القشر عن حبة نبات ما، قد تجد شيئا من المشقة ؛ لأن هناك التصاقا بين القشرة والحبة، والحق هنا يقول: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: أخذتموها بجهد ومشقة، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه، وإنما ورثه عن غيره، وفى هذه الحالة قد يكون أمره هيناً على صاحبه. أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكدِّه[1] فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث. ويقال :«فلان اقترف كذا»، أي: أنه قام بجهد حتى حصل عليه، ويقال: «اقترف الكذب» و«اقترف السرقة»، بمعنى أنه قد بذل جهدًا ليكذب، أو بذل جهدًا ليسرق، أي: قام بعملية فيها مجهود.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وسبحانه هنا يوضح لهم: انتظروا أمر الله الذى سوف يأتى، لأنه سبحانه لا يهدى فاسقاً خرج عن الإيمان، ولا يهدى من جعلوا حبهم للعلاقات الدنيوية فوق حب الله فخرجوا عن مشيئة هداية الله تعالى، فسبحانه لايهديهم كما لايهدى الظالمين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم من قدموا الظلم والكفر والفسق، فكان ذلك سببا فى أن الله لم يدخلهم فى مشيئة هداية المعونة على الإيمان، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم.

(١) الكدّ : الشدة والتعب فى تحصيل الشيء.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة الإيمانية فى نفوس المؤمنين، فيوضح لهم : إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه، وإياك أن تنظر إلى ولى آخر غير الله ؛ لأن ولاية البشر عرضة للتغير والتبدل، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين الأغيار، فالغنى فيها قد يصبح فقيرا، والسليم قد يصبح مريضاً، والقوى قد يصير ضعيفاً ، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لايتغير ،فإذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا ، والقاهر دائمًا ، والغالب دائمًا، والموجود دائماً ، والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار فى الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح ضعيفاً لايملك شيئا، والموجود يصبح لاوجود له بالموت ، إذن : فلابد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى : لأنه هو الدائم الباقى. ولهذا يعلّم المولى ـ عز وجل ـ عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً، فطناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨]

أى : لاتتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحى الموجود دائما ، العزيز الذى لايقهر، القوى الذى لايغلب. وينبه الحق سبحانه وتعالى المؤمنين: إن كنتم تخشون حين نعزلكم عن مجتمع الكفر لما فيه من عزوة كاذبة بالآباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال، فاعلموا أن الله هو الذى ينصر، وهو الولى، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون مولى من أغيار، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال: إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه نهاية الكمال، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة وكل شىء فى الدنيا يتغير، فلابد أن يتغير هو .ويقول القائل:

إذا تَمَّ شىءٌ بَدَا نقصُه ... ترقّبْ زوالاً إذا قيل تَمّ

لأن كل شيء ابن أغيار لابد أن ينزل إلى أسفل، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفر؛ فأفقدهم بذلك قوة ونصيراً، فهم في مَنَعة أكبر؛ لأنهم حينئذ يكونون مع الله، والله هو النصير، وليس هذا كلاماً نظرياً، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التي شهدتموها، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده، والدليل على أن النَّصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والذين معه في مواطن كثيرة، و﴿ مَوَاطِنَ ﴾ جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه . وكل الناس مستوطنون في الأرض، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذي هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن الناس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحيا في حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه.

والله سبحانه هنا يقول: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾، وما دام الحديث عن النصر، يكون المعنى: إن الحقّ سبحانه قد نصركم في مواطن الحرب أي مواقعها، مثل يوم بدر، ويوم الحديبية، ويوم بني النضير، ويوم الأحزاب، ويوم مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه

فى هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ إذن: فكثرة عدد المؤمنين فى يوم حنين كان ظرفاً خاصاً، أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا؛ ولم يختالوا بذلك، إذن: ففى يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب، وبذلك يكون يوم حنين له مزية، فهو يوم خاص بعد الحديث العام.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن فى بقية المواطن، وهذه دقة فى الأداء اللغوى تتطلب بحثاً لغوياً . فكلمة ﴿ مَوَاطِنَ ﴾ هى ظرف مكان، و ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هى ظرف زمان، فكيف جاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول: هذا هو ما يسميه العرب « احتباك »؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر »؛ كل حدث لابد له من زمان ولابد له من مكان، فإذا قلت: أكلت، نقول: متى؟ فى الصبح، أو فى الظهر، أو فى العصر، أو فى العشاء ؟ وأين ؟ فى البيت، أو فى الفندق، أو فى المطعم، أو فى الشارع .

إذن: فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة؛ ظرفية مكان حدوث الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل. فإذا قلت: أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: أكلت فى البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصراً أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية .

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان فى الظرفية، ولكنهما يختلفان، فالمكان

ظرف ثابت لا يتغير. والزمان دائم التغير، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان فى الظرفية، ولكن الزمان ظرف متغير، أما المكان فهو ظرف ثابت.

وجاءت الآية هنا بالاثنين، فـ ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ هو زمان ومكان لحدث عظيم، وأخذت الآية ظرف المكان فى ﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ وظرف الزمان فى ﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ فإذا قيل: لم يحضر ظرف الزمان والمكان فى كل واحدة، نقول: لا، لقد حضر ظرف المكان فى ناحية وظرف الزمان فى ناحية ثانية، وهذا يسمونه - كما قلنا - « احتباك ». وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثانى، وحذف من الثانى ما يدل عليه الأول، فكان المعنى: لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا. فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطن يوم حنين »، أى: جاء بالاثنين هنا. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك، وهذا يظهر واضحاً فى قوله تعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

[آل عمران: ١٣]

فما دامت الأخرى ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ تكون الأولى « مؤمنة »، ولكن حذفت «مؤمنة » لأن ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ تدل عليها، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله، فالفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان. وحذفت تقاتل فى سبيل الشيطان؛ لأن ﴿ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دلَّتْ عليها. وذلك حتى لا يحدث تكرار. ونجد أن المؤمن الذى يستمع إلى كلام الله تعالى لابد أن يكون عنده عمق فهم، وأن يكون كله آذاناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية. إذن: فيكون ظرف الزمان موجوداً فى واحدة،

وظرف المكان موجوداً في واحدة، وكلاهما يدل على الآخر. والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة »[1].

فانطلق المسلمون - دون أن يستريحوا - إلى أرض بني قريظة، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وخانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة كادت الشمس تغيب، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولابد أن تصلى العصر، وصلوا. وفرقة ثانية من الصحابة قالت: إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلى العصر إلا في بني قريظة ولم يُصَلُّوا حتى وصلوا إلى هناك.

ونقول: إن الفريقين استخدما المنطق؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلى، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حدده رسول الله ﷺ؛ لم يُصَلِّ. وأقر رسول الله ﷺ الفريقين، واحترم اجتهادهما في: ظرفية الزمان، وظرفية المكان. وفي هذا يروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرَدْ منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ﴾ والغنى هو عدم الحاجة إلى الغير، وحنين [2] هو موضع في واد بين مكة والطائف، تجمَّع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيِّع

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر .
(٢) حنين : اسم موضع بأوطاس ، عرف باسم رجل اسمه : حنين بن قانية بن مهلائيل من العماليق ، كما في معجم البكري .

قيمة هذا النصر. فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم في هذه المعركة. واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم. ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين في الجيش من مال، وبقر وإبل. وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال. وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة، ويستمر في القتال بشجاعة وعنف؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده. وبذلك وضع كل العوامل التي تضمن له النصر. بينما المؤمنون عندما تبدأ المعركة سيقاتلون مدافعين عن دين الله ومنهجه.

واجتمع الكفار ونزلوا بواد اسمه « وادي أوطاس ». وكان فيهم رجل كبير السن ضرير. اسمه « دريد بنّ الصِّمة ». وكان رئيساً لقبيلة « جشم ». فلما وصل إلى مكان المعركة سأل: بأي أرض نحن؟ فقالوا: نحن بوادي أوطاس. فابتسم وقال: «لا حزناً ضرس ولا سهلاً دهس، أي أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة، تتعب الذي يسير عليها، وليست أرضا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها، من « الحزن » فالحزن هو: الخشونة والغلظة، و«ضرس » هو: التعب أثناء السير، وأيضاً ليست أرضاً سهلة متبسطة رملية تغوص فيها الأقدام.

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء [1] الشاة، قال: أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر. فقالوا له: إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله. فقال: أما الأموال فلا بأس، وأما النساء والذراري فهذا هو الأرعن - أي: لا يفهم في الحروب - أرسلوه لي، فأحضروه له. فلما حضر قال: يا مالك ما حملك على هذا؟ قال: وماذا تريد؟ قال: ارجع بنسائك وذراريك إلى عُلْيا دارك، فإن كان الأمر لك؛ لحقك من وراءك. وإن

(١) ثغاء الشاة: صوت الغنم والماعز وضجيجها.

كان الأمر عليك لم تفضح أهلك وذراريك. فقال له مالك: لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك. وأصر على رأيه. ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش في الشِّعَاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم. فيتقدمون غير متنبهين للخطر، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان.

وعندما جاء جيش المسلمين لم يتنبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين. وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم، فخرج الكفار من كل مكان. وفاجأوا المسلمين بهجوم شديد، قال المتحدث: فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين في الساعات الأولى للمعركة، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ في ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ. وكان ممسكاً بالدابة التي يركبها رسول الله ﷺ. وسيدنا على بن أبي طالب وكان يحمل الراية. وسيدنا الفضل، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ. وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره. وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة [1].

وهنا نتساءل: لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين في بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا: نحن كثرة لن نهزم من قلة، وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخزيهم ويُعْلى من قدر رسول الله ﷺ. ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث، قال للعباس - وكان العباس صاحب صوت عال: أذن في الناس، فقال العباس بصوت عال: يا معشر الأنصار - يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة. فلما سمع الناس نداء العباس، قالوا: لبيك لبيك. وكان الذي يقول: « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال، وحمى القتال

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدى خير العباد (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

واشتدت الحرب وصار لها أوار[1] ، فضحك رسول الله ﷺ: الآن حمى الوطيس ، أى اشتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب».

ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ البراء بن عازب ، فقد جاء فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه . أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رُمَاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : «أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب» [2] أى : أنه رسول الله ، والله لن يتخلى عنه ولن يخذله، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوازن وثقيف، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من النساء ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والغنم والحمير. وأحضر رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء وقال له : أنت أمير على هذا المغنم. اذهب به وأنا سأتتبع الهاربين.

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين. واختبأ مالك بن عوف قائد العدو. ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين، بين سبايا هى أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه ﷺ فى رأيه ﷺ يستغنون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوى، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة، وتأثر هذا البعض بذلك.

(١) الأوار : الدخان واللهب .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري (٤٣١٧) ، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا . قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل . ثم قال : يا معشر الأنصار ما قَالَةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : بل الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل . قال : ألا تجيبوني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم ، أتيتنا مكَذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك [1]

أي : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم، وهي أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة.

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٧٦) عن أبي سعيد الخدري من طريق ابن إسحاق . وقد أورده ابن هشام في سيرة النبي (٤/ ١٤٦).

فضائل ، وهى أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة ، وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمّنه الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار.

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مفاخرهم. قالوا: المنة لله ولرسوله، أى : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبداً؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاهم. فالإيمان نَفْعُه نَفْع أبدى. والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾

[الحجرات: ١٧]

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة [١] من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شِعْب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». فلما سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسماً وحظاً. وانتهت المسألة.

(١) لعاعة من الدنيا : أى بقية يسيرة . وهذا الحديث هو بقية الحديث السابق، وقد سبق تخريجه.

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيئين ، لابد أن نتفاخر بالشيء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه، أما الشيء الذى مآله إلى فناء فإنَّ من ليس معه يعيش كمن عاش معه، وهو متاع الدنيا، تعيش معه وتعيش بدونه. ولكن لاأحد يستغنى عن الإيمان ، نستغنى عن الدنيا نعم، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا. وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم، جاء وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا . فقالوا : يا رسول الله إنَّا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بل تردُّ علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس : يابنى سليم وهنتمونى . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم [1] . ذلك هو ما يشير إليه قول الحق، تبارك وتعالى:

---

(1) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢١٨) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٦٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص من طريق محمد بن إسحاق؛ وأورده ابن هشام فى السيرة (٤/ ١٣٥). وانظر: تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٢٨) .

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾

[التوبة]

أى : أنكم بدأتم المعركة ولم يكن الله فى حسبانكم، بل كنتم معتمدين على كثرتكم فلم تنفعكم ولم تحقق لكم النصر ؛ ولذلك فررتم خوفاً من الهزيمة ووجدتم الأرض ضيقة أمامكم، أى : تبحثون هنا وهناك عن مكان تختبئون فيه فلا تجدون، مع أن الأرض رحبة أى واسعة، ولكنها أصبحت ضيقة فى نظركم وأنتم تفرون من المعركة. إلا أن الحق سبحانه وتعالى لم يرد أن ينهى المعركة هذا الإنهاء. ولكنه أراد فقط أن ينزع من قلوب المسلمين المباهاة بكثرة العدد وظنهم أن اللجوء إلى الأسباب الدنيوية هو الذى سيحقق لهم النصر. أراد منهم سبحانه وتعالى أن يعلموا جيداً أنهم إنما ينتصرون بالله عز وجل، وأن كثرتهم دون الاعتماد عليه سبحانه لا تحقق لهم شيئاً.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾

أى : أن الله تبارك وتعالى أنزل سكينته أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فروا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى، وقوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

[التوبة: ٢٦]

وقد حدثونا عن أن الملائكة نزلت وثبّتت المؤمنين، وألقت الرعب في قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم. والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم وصفوا كائنات على جياد بُلْق [1] ولم يكن عندهم مثلها.

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم [2]، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن، وأن يثق في القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية. وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لأن وجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده.

وهناك أشياء كثيرة في الكون، موجودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود. وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة. وكل الاكتشافات التي قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة، ولكننا لم نكن ندرك كيفية وجودها من قبل. فالجاذبية الأرضية كانت موجودة، لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها، وكذلك الكهرباء كانت موجودة في الكون منذ بداية الخلق، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها، والميكروبات كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود، فكل هذه الأشياء كانت موجودة في كون الله منذ خلق الله الكون، ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً؛ ولذلك إذا حُدِّثت بشيء لايستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين

---

(١) البَلَق: سواد وبياض. والجياد البلق: هي السوداء التي لرتفع البياض إلى أفخاذها.

(٢) قال القرطبي في تفسير الآية (٤/ ٣٠٢٨): ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، يقوون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعفون الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر. وروى أن رجلاً من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق، والرجال الذين كانوا عليها بيض، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم، أخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: تلك الملائكة.

مادية محددة. إذن: فوجود الشيء يختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ كلمة ﴿ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ تعطى العذر لكل من لم ير، ويكفى أن الله قال ليكون هذا حقيقة واقعة. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

وحين كان يقال لنا: إنّ لله خلقاً هم الجن، كما أن له خلقاً آخرين هم الملائكة، والجن يروننا ونحن لا نراهم. كان البعض يقف موقف الاستنكار، وكذلك قال لنا رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يَجْرِي من ابن آدم مَجْرى الدم»[1].

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون: كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم؟! وعندما تقدمنا فى العلم التجريبى واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم فى العروق، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم؟ طبعاً لا، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا نحس به، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد. ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لاندرى عنه شيئاً، ويدخل إلى الدم ويجرى فى العروق ونحن لا نحس بشيء من ذلك، والدم يجرى فى عروق يحكمها قانون هو: أن مربع نصف القطر يوزع على الكل، ومثال ذلك مايحدث فى توزيع المياه، فنحن نأتى بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمانى بوصات وندخلها إلى قرية، تكون كمية الصب هى ٨ × ٨.. أى ٦٤ بوصة

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٣٥ ومواضع أخرى)، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حُيى زوج النبى ﷺ.

مربعة، حينما تأتى لتوزعها على مواسير أخرى فرعية تأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها تأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها تأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة ، المهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة.

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجرى فى شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة. . ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم ، وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التى نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم. وهناك جراحات تجرى بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات؛ لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أى شعيرة ولا تُسيل أى دماء.

إذن : فكل ما فى داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحس به، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب فى الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث.

فإذا كان «الميكروب» وهو من مادتك، أى : شىء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً مخيفاً ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة، إذا كان هذا «الميكروب» لا تحس به وهو فى داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذى هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسدك؟ لا ، وإذا كان الشىء المادى قد دخل جسدك ولم تحس به، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجرى من ابن آدم مجرى الدم؟!

فإذا قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم». . فلا تتعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به. فالله أعطاك فى عالم الماديات ما هو

أكثر كثافة فى الخلق ويدخل فى جسدك ولا تحس به.

إذن: فالعلم أثبت لنا أن هناك موجودات لا نراها. ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية فى جسم الإنسان فإننا سنرى العجب، سترى فى جلد الإنسان الذى تحسبه أملسَ آباراً يخرج منها العرق، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين، فإذا حدَّثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال: ﴿جُنُوداً لَّمْ تروْهَا﴾ ، فإن قال واحد: إنَّه رآها، وقال آخر: لم أرَ شيئاً ، نقول: إن قول الحق ﴿ لَّمْ تَرَوْها﴾ أى: لم تروْها مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يرها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وعذَّبَ الذينَ كَفَرُوا﴾ أى: بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿وذلكَ جزاءُ الكَافرينَ﴾ أى: أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاءً لهم على كفرهم. ولكن البعض يتساءل: لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة فى القتال؟ نقول: إن الله أراد أن يزيد عـذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهـزيمة من أول لحظة، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتى الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة ، والشاعر يقول :

كَما أدركَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامةٌ

فلمَّا رأوْهَا أقشعتْ [1] وتجلَّت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش، هم يحلمون أن تمطر عليهم، لكن الحلم يتبدد تماماً كالمسجون الذى يعانى من عطش شديد. فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان: سأحضرها لك. وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده

(١) أقشعت : انقشعت وذهبت عن وجه السماء .

ونفسه تتلوع فرحاً . وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض، فيصاب المسجون بصدمة شديدة. وهذه أبشع طرق التعذيب. ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلاماً للسجين. لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه في يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذاباً. وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شيء، وبذلك تجتمع لهم فجيعتان : فجيعة الإيجاب ، وفجيعة السلب.

ثم تأتي لمحة الرحمة التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله، ويفتح الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله، ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهذه هي عظمة الخالق، الرحمن الرحيم، فهو يفتح الباب دائماً لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة، وهذه مسألة منطقية ؛ لأن الذي يكفر والذي يعصى لا يضر الله شيئاً، ولكنه يؤذي نفسه ويحاول أن يفترى على نواميس الحق، وحين يعلم العاصي أنه لا ملجأ له إلا الله، فالله عز وجل يفتح له باب التوبة.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا في هذه السورة أن الله ورسوله بريء من المشركين، وكشف عن طبيعتهم بأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ويصفي هذه المسائل تصفية عقدية في ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وطلب منا أن ننهي العقود التي بيننا وبينهم.. فمن نقض العهد انتهى عهده ، ومن حافظ عليه حافظنا نحن على العهد إلى مدته ، ثم طلب من المشركين ألا يقربوا المسجد الحرام، وصفَّى أي ضغينة أو ذنب بفتح باب التوبة. ومن بعد ذلك ينتقل

سبحانه من المعاهدة التى انتهت مع ذوات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم، فيقول تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

أى: أنه لا يكفى أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين، بل لا بد أن يبرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم؛ لأنهم نجس، والنجس هو الشيء المستقذر الذى تعافه النفس وتنفر منه، وقد يكون المشرك من هؤلاء مقبولاً من ناحية الشكل والملبس، ولكن هذا هو القالب، والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم إنما يتكلم عن المعانى وعن الخلق. فالله عز وجل لا ينظر إلى القوالب، بل إلى القلوب، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1].

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً، لكن العقيدة التى توجد فى قلوب تلك الأجساد قذرة ونجسة، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور، بل بالقيم. وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقة الصادقة، تجد كل عقيدة تنبئ عن تكوين مادتها، وعلى سبيل المثال، حينما تكون فرحاً، يتضح ذلك على

(١) يعنى: أن العبرة يوم الحساب بالنظر إلى قلوبكم لا إلى مظاهركم، وفيه حث على الاعتناء بالقلب وتطهيره، والحديث رواه الإمام مسلم (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣)، واللفظ لمسلم.

أساريرك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج ، وإن كنت غاضباً أو تعانى من ضيق ، فهذا يتضح على أساريرك .

إذن : فالمادة تنفعل بانفعال القيم ، وما دامت القيم فاسدة فالمادة التى يتكون منها جسده تكون متمردة على صاحبها ؛ لأن المادة بطبيعتها عابدة مسبحة لله ، وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبحة لله تعالى ، ولا ينشأ الفساد إلا بعد أن توضع الروح فى المادة ، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً ، المادة والروح ، فإن غلَّبت النفس منهج الله صارت مطمئنة ، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة والمعصية ، فإما أن تطيع فتكون نفساً لوامة ، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر فتكون نفساً أمارة بالسوء . أما قبل أن تنفخ الروح فى المادة ، فكل منها مسبح لله تعالى ؛ لأن كل شيء فى الوجود عابد مسبح ، والنفس فى كل سلوكها مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل ، وحين يأتى الموت ، تنتهى الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده ، بل إن هذا الجسد يشهد على صاحبه يوم القيامة . والإنسان فى الحياة الدنيا يعيش وإرادته تسيطر على مادته بأمر من الله ، فاليد قد تضرب إنساناً ، وقد تعين إنساناً آخر وقع فى عسرة ، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة أخرى .

إذن : فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها فى دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة ، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها فى المعصية ، وتتمرد عليه ، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها فى المعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٠) وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتنى فى الدنيا وأكرهتنى على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لأننى عابدة مسبحة لله، وإن ما أمرتنى به يخرج عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذى يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجنود، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكوا له مما كان قائد الكتيبة يكرههم عليه، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة. فإن كنت عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك. وإن كنت غير ذلك كانت جوارحك ضدك، فاللسان مثلاً عابد مسبح فى ذاته، فإذا أكرهته على أن يشرك بالله فهو مُكْرَهٌ فى الدنيا، ويصير شاهداً عليك يوم القيامة. والحق سبحانه وتعالى ينادى يومئذ قائلاً :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ أى : أن عقيدتهم الفاسدة تنضح على تصرفاتهم، وسبحانه وتعالى يربب المعانى الإيمانية فى النفوس أى يزيدها، ومثال ذلك: نحن نرجم إبليس كمنسك من مناسك الحج، نرجم قطعة من الحجر رمزنا إليها بالشيطان، ونحن لا نرى الشيطان، وقد وضعنا له رمزاً وأرسينا فى أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لنبتعد عن مراداته، وبذلك أبرزنا هذه المعانى فى أمر حسى؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لنا، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن نبين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصعة فيهرب منا. وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يضحك على العاصين والكافرين فى يوم القيامة، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾[إبراهيم: ٢٢]

وفى هذا القول سخرية ممن صدقوه ؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شىء بالقوة، وإما سلطان الإقناع

بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً. والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فإنه يوضح لنا أن نجسهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التى لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر. وجعل الحق سبحانه وتعالى النجاسة المعنوية مثلها مثل النجاسة المادية، ولذلك قال العلماء: ما دام الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلابد أن يكون فيهم نجس مادى، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة ، لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة. وعندما ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا، لم نجد فى البيوت حمامات ؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً ، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن، ولكن بعد أن تحررت الجزائر صار فى البيوت حمامات ؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة ، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر، وكلما كان جنباً اغتسل.

ولقد قال البعض: لو أننى سلّمت على مشرك ويده رطبة.. فلابد أن أغسل يدى[1] . فإذا كانت يده جافة فيكفى أن أمسح على يدى. وفى هذا احتياط وتأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين. وإذا كنا نجتنبهم أجساداً وقوالب، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً ؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة فى العام التاسع من الهجرة وهو العام الذى صدر فيه منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين، وتساءل العلماء: هل الممنوع والمحرم هو اقتراب المشرك

(١) قال الحسن البصرى : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣٠) ، قال ابن كثير (٢/ ٣٤٦) : «دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن « من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير ».

من المسجد الحرام، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعى التحريم على المشركين بالوجود فى المسجد الحرام. ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعى نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَلا يَقْرَبُوا﴾ ولم يقل: فلا يدخلوا. وتحريم الاقتراب يعنى ألا يكونوا قريبين منه، وأقرب شيء للمسجد الحرام هو كل الحرم، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمنع الحق دخولهم إليه بالنص على ذلك[1].

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث فى المعانى ليستخرج المضمون الحق. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. وفى هذا القول الكريم حديث عن الغيب. والغيب ـ كما عرفنا ـ هو مايغيب عنك وعن غيرك، أما الشيء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً، فإذا سرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذى سرق، والسارق فى هذه الحالة غيب عنك، ولكنه ليس غيباً عن غيرك؛ فالسارق يعرف نفسه؛ والذى دبر له الجريمة يعرفه، ومن رآه وستر عليه يعرفه. وأنت ـ أيضاً ـ لا تعرف مكان المسروقات، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبأها فيه.

إذن: فهى غيب عنك وليست غيباً عن غيرك. وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يسخرون الجن، فما دام الشيء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس؛ فالكشف عنه مسألة سهلة، ولكنّ هناك غيباً عنك وعن غيرك، وهذا هو ما يتفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧)﴾ [الجن]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣٩): «قال الشافعى رحمه الله: الآية عامة فى سائر المشركين، خاصة فى المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد. قال ابن العربى: وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة».

ولكنْ هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان، فمثلاً الكهرباء كانت غيباً واكتشفناها، وتفتيت الذرة كان غيباً وعرفناه، وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت فى علم الإنسان فأصبحت معلومة له وليس هذا هو الغيب الذى يقصده الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، فهذا غيب يختص نفسه به، فلا تقل: إن فلاناً يعلم الغيب، ولكن قل: إنه مُعلَّم غيب، والمسائل الغيبية: إما أن يحجبها الزمان أو يحجبها المكان، فالآثار المطمورة مثلاً، تعبِّر عن شيء ماض واندثر، وفيه أخبار الأمم السابقة، ولا يعرفها أحد ، وستره حجاب الزمن الماضى، إلى أن يتم الكشف عنها ويهيئ الله لها من يفكُّ ألغازها.

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء فى القرآن الكريم فهو اختراق لحجاب الزمن الماضى ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥)﴾ [القصص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ فى آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ بما كان مستوراً فى الزمن الماضى. أما الشيء الذى سوف يحدث فى المستقبل، فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل، وقد اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل فى آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين، وحرف السين دليل على أن الشيء لم يحدث بعدُ ، وقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]

دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة فى الأرض، وقوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ ﴾ [الروم]

وهذا اختراق لحجاب المستقبل ؛ لأن النصر حدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات. إذن : فالذى يحدث فى المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل، ولكن هناك شيئاً يحدث فى الحاضر ولا تعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان، فما يحدث فى مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه، فأنت إن كنت جالساً فى مكة مثلاً ، فأنت لا تعرف ما يحدث فى المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان ، وهناك أيضاً حجاب النفس، أى : أن مايدور فى نفسك لا يعرفه أحد غيرك ؛ لأنه محجوب بحجاب النفس.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن ينفذوا هذا الأمر ، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التى تستقبل النص. مثلما يأتى إنسان ويخبرك أن المخبز القريب من منزلك سوف يغلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال: ومن أين سنأتى بالخبز؟ أو أن يقال لك : «إن الباخرة التى تحمل اللحم والخضروات ضلت الطريق» فأول ما يخطر على بالك لحظتها: ومن أين نأكل؟

وكان المشركون يأتون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتاجرون وينفقون، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بيت الله الحرام فترة الرواج المادى الذى يعيشون عليه طوال العام.

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فأى شىء يختلج فى نفوس المسلمين؟ لابد أن يدور فى أعماقهم السؤال: ومن الذى سيشترى بضائعنا؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ .

وهكذا كشف الله حجاب النفس، وردَّ على ما سيدور فى نفوس المؤمنين فى نفس الآية التى حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام، ولم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يعلن المؤمنون ما فى أنفسهم، بل رد على ما يجول بخواطرهم قبل أن يعلنوه.

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل، فالمؤمن الذكى يقول: هذا ما جاء فى بالى. ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسى فسوف يرزقنى. ولو لم يأت ذلك فى بالهم لكَذَّبوا النص. ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان، وما داموا قد بَقَوْا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم تماماً.

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۝٨ ﴾ [المجادلة]

وقول النفس لا يسمعه أحد، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا فى أنفسهم لقالوا: والله ما خطر ذلك فى نفوسنا. ولأنهم قالوه فى أنفسهم فقد بُهِتُوا لكشف القرآن الكريم لما يدور داخل أنفسهم. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة على ما سيدور فى خواطر المؤمنين عندما يستمعون إليها ، فلم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله ﷺ خوفهم الفقر وقلة الرزق، بل أجاب سبحانه وتعالى على ذلك قبل أن يخطر على بالهم.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة هي الفقر، ويتابع الحق جل وعلا: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾، ولم يقل الحق "سيغنيكم" بل قال: ﴿فَسَوْفَ﴾ وهي تقتضي زمناً سيمر ولكنه زمن قريب؛ لأن الخير الذي سيأتي له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه كأن يعوضهم الله عما كان يأتي به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فينبت النبات، وهذه تحتاج إلى زمن، وأن يأخذوا بالأسباب بأن يروج لهم تجارة على غير المشركين، أويكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم. ولذلك قال: ﴿فَسَوْفَ﴾. والأسباب تحتاج إلى وقت، فنزلت الأمطار قرب جدة التي أسلمت ونبت الزرع في وادي خليط، وتبالي باليمن وجرش وصنعاء، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية، فجاء الخير من الجزية والخراج. وهكذا نرى أن ﴿فَسَوْفَ﴾ امتدت لمراحل كثيرة، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن.

إذن: فقد أخذت الأمد الطويل. على أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ هي حيثية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون في أمر دينه رغبة في تحقيق أمر من أمور الدنيا، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن تضيع منه فائدة مادية أو دنيوية، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يضيع منه منصبه، أو يغضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته، نقول له: لا عذر لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو كلام الله عز وجل، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رزقه، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده.

على أن قوله تعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سوف يباعد بينه وبين الرزق ؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغْنِيكم اللهُ من فضله﴾

فإننا نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصلة الدائمة بعبده وألا يفسد على العبد الرجاء الدائم في الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لهذا الرجاء ؛ لأن العبد سيظل في رجاء إلى الله عز وجل فيظل الله تعالى في باله؛ ولأنه سيطلب دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يبتعد عن المعصية ويتمسك بالطاعة.

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة في كونه ، فقدر الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى تقيد مشيئته سبحانه ، فمشيئة الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله. فهو إن شاء حدث القدر. وإن شاء لم يحدث. وهكذا تظل طلاقة قدرة الله في كونه.

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب، فيخبر الواحد منهم الناس، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه؛ حتى يظل الله وحده عالم الغيب؛ فما دام ذلك الذى اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه. فسبحانه يُغَيِّر أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أى غيب آخر.

إذن فكلمة: ﴿إِن شَاءَ﴾ هي إثبات لطلاقة قدرة الله في كونه، فإن شاء أعطاكم، وإن شاء لم يُعْطِكم، فالإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ، فقد يفترى البعض بالنعمة فيحجبها الحق عنهم، وهذا ما حدث في كثير من البلاد

التى طغت وكفرت بنعمة الله عليها ؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون ضوابط لاستشرى فى تلك البلاد الفساد والمعاصى، إذن : فالمشيئة تقتضى إعطاءً، أو منعاً، والإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأغيار القُلَّب؛ منهم من تأتيه النعمة فتطغيه، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]

أى : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عدّ هذا كرماً من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رضا من الله .

ويرد الله تبارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول: ﴿كَلاَّ﴾ أى لا المال دليل على الإكرام، ولا قلة المال دليل على الإهانة.

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]

إذن : فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهى نعمة وليست نقمة. ولذلك قال تبارك وتعالى :

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]

قد يمنع عنك المال الذى إن وصل إليك غرّك فتحسب أنك فى غنى عن الله تعالى وتطغى ، وهذا المنع نعمة وليس نقمة، إذن فقوله تبارك وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لطلاقة القدرة فى الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادة وحدها ولا بالمال وحده، ولكن بالقيم أيضاً، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن منهج الله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ يعنى : أنه سبحانه إن شاء أعطى،

وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة، فى حدود حكمة الله عز وجل، فلا تقل حين يمنع: إنه لم يحقق قوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لأن الإغناء كما يكون بالمادة، يكون أيضاً إغناء بالقيم. ويؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى :عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه والمنع فى موضعه.

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة، هم المشركون وأحوالهم، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان [1] .

وعرفنا من قبل السبب، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم غيرهم. . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : «لا يترك بجزيرة العرب دينان» . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٥) : «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع».

وهو رسول من أنفسـهم، فهم يعـرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التي جاء بها ﷺ من جنس فصاحتهم، فإذا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرآن لم ينزل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركي مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد في هذه السورة موقف الإيمان من المشركين به، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسـول وكتـاب سمـاوي، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فنجد أن النبي ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غُلبتْ الروم في أدنى الأرض[1]. لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيقفون أيضاً ضده؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحي إليهم وأن له كتباً منزلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين، فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر. صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين في موقف العداء

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان، فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر رضي الله عنه فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لك كذا وكذا وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: ألا جعلته. أراه قال: دون العشرة. قال: فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال: فغلبت الروم ثم غَلَبَتْ بَعْدُ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان: وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر. أخرجه الترمذي في سننه (٣١٩٣) وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في مستدركه (٢/ ٤١٠) من حديث ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُبَشِّرُ الحق عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم]

وهنا يبرز سؤال يقول: متى سيغلبون؟ تأتي الإجابة من الحق تبارك وتعالى:

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]

والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتي بعد بضع سنين. وبالله قولوا لي: كيف يتحكم نبي أمي في جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبي أن يأتي بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر في الكتاب الذي يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة؟ لقد قالها بثقة في حدوث ما جاء في القرآن في المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول.

وإلا، فماذا كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة في أن القائل هو الحق سبحانه الذي شاء أن ينزل بالخبر في آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ، ويُصَلَّى بها في كل وقت إلى أن تقوم الساعة. وينزلها سبحانه على محمد ﷺ وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أم لا؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن في حسبان محمد ﷺ ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول.

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى .. ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشِّر بالولد:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

أي: ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث.

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب ؛ ولأن لهم صلة بالسماء، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء، ويتسمع أخبار المؤمنين في القمة العقدية. ومن العجيب أن هذه الآية تصدق في الروم وفارس ، فينتصر الروم على الفرس، وتصدق في محمد ﷺ وأصحابه، فينتصر رسول الله وأصحابه في بدر . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم]

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾ [التوبة]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان. والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذي يعطي الله جلال

الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزير، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عمّاً لا يليق بها ، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لايتفق مع مرادات الله تعالى ؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم في الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحي. ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلابد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونتساءل: ما هو النعيم الروحي؟ هل النعيم الروحي هو خواطر في النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحي ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا الله عز وجل بشيء لا نعلمه؟ إذن : فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن لنا بعض صور النعيم في الجنة، وقال : إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله :

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

إذن : فالله عز وجل يعطي مثلاً فقط . ومعلوم أن اللفظ في اللغة لابد أن يوضع لمعنى معروف. ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لابد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»[1]

إذن : فلا توجد فى اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الجَنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التى تكون فى المثل. فمثلاً الخمر فى الدنيا فيها خصلتان؛ الأولى أنها تغتال العقول [2] والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذى يشرب الخمر لايشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذى يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس فى فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعى الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر فى الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسى من موقع قدمى » هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر فى الجنة لا غَوْل فيها . . أى : لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥]

أى: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التى حرمها الله فى الدنيا. وتتجلى الحكمة فى معنى الاستطعام فى قول رسول الله ﷺ :

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

(٢) تغتال العقول : تسكرها وتذهب بها .

عما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى فى النار »[1] .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام. فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب فى الله ويكره فى الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التى تستبقى إيمانه؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى تصوير الجنة المثل لما فى الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما فى الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهى لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهى لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود فى الدنيا ولكن ليس هو [2] ، أما أن

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى (١٦) ، ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .
(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٨٤) : ﴿من قَبْلُ﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به فى الدنيا والثانى : هذا الذى رزقنا فى الدنيا ، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا ، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك. وقيل ﴿ من قَبْلُ﴾ يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ، فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها فى آخر النهار ، قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل ، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول.
وقال ابن عباس : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء ، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما تسمية آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أى سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلك فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]

أى: ليس فيه كل الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة:

﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: ١٥]

وكلمة ﴿ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربى كان يحلب الجمال ويضع ألبانها فى الأوانى، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً ، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وأَنْهَارٌ من لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من كل الشوائب التى تفسد طعم اللبن فى الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَاتِلُوا الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ أى الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه. واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه فى قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمد يده لبنى إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ فى التصور. وكذلك كان خطؤهم فى تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثلَ هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا فى دينهم فأحلوا ما حرم الله. ولذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾

والحق - كما تعلم - هو الشيء الثابت الذى لا يتغير. وإذا نظرنا إلى كل رسول فى عصره؛ نجده قد جاء بالحق، وإذا جاء رسول من بعده فهو لاينسخ العقائد، ولكنه ينسخ فى الأحكام، وهكذا تعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التى تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ، فكان النبى الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولابد أن يكون الحق الذى جاء به هو الحق الثابت الذى لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن فقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى: أنهم لايؤمنون حتى بما جاء فى كُتبهم مَن بشارة به ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله و أنه مرسل إليهم، وسنَّ رسول الله ﷺ فى معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً إن وجدناهم، أو أن يسلموا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلموا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أى: حتى يؤدوا ما فُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية، وفى هذا صون لدمائهم، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم ، وهناك نعمة ثانية وهى أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذى يرونه، وفى ذلك رد على من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف، ونقول: إن البلاد التى فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية الاختيار، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً. لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف. ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا فى البلاد التى فتحها أناساً باقين على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب. وأَخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان الجزاء هو الجزية. وهى مادة «جزى» و«يجزى». فكأن الجزية فعلة من «جزى» «يجزى» ؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه ، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون فى مجتمع إيمانى؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم فى أنفسهم وأهلهم وفى أموالهم وفى كل شيء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون فى المجتمع الإسلامى ينتفعون ـ أيضاً ـ بالخدمات التى يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً فى حرب ضد أى عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن: فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هى مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاء على

حياتهم وإبقاء على دينهم الذي اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية ﴿عَنْ يَدٍ﴾ واليد هي الجارحة التي تُؤدَّى بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليد ، ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام، والحق تبارك وتعالى يجازي على القول الطيب أو السيىء، ولكن الأصل في العمل هو « اليد »، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التي تعمل، أو يراد بها النعمة، مثل قولنا: فلان له يد على فلان، وفلان له أياد بيضاء على الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ .

فهل المقصود بـ ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أي من يُعْطُونَ الجزية، أم أيدي الآخرين الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول: ﴿ عَنْ يدٍ ﴾ مثلما يقال: فلان نفض يده من هذا الأمر، أي خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أي غير رد للنعمة . وعن يد منهم أي من المعطين للجزية، أو ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أي: يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب في الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام في مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية، لا، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده. [1] أو تقول: ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ من معنى القدرة، فمن عنده قدرة، فنأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز [2] .

إذن: يشترط في اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول: أن

---

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً. وقيل ﴿عَنْ يَدٍ﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. قال عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس، وقاله سعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبي (٤ / ٣٠٤٢).

(٢) عن عروة بن الزبير قال: مرّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط (فلاحو العجم) بالشام. قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا ». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦١٣) وأحمد في مسنده (٣/ ٤٠٤) وأبو داود في سننه (٣٠٤٥).

يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا، والملحظ الثاني: أن يأتي بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتي بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صغار؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافضين الأيدي، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية [1].

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ والصَّغار من مادة الصاد والغين والراء، وتدل على معنيين؛ إن أردتها عن السن يقال «صَغُرَ» «يَصْغُرُ» مثل قولنا: فلان كبر يكبر. وإن أردتها في الحجم والمقام نقول «صَغِر» «يصغَر»، أي: صغر مقاماً أو حجماً، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

وهنا في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ تعني أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إنَّ من يُعطي لا يظن أنه يعطي عن علو، ونقول له: لا، إن اليد الآخذة هنا هي اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٤١): «قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء». وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره في الدنيا بعد أن يرحل، والله سبحانه دائم الوجود؛ وإمَّا لكي يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفي كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله. إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالتِ النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هي التي جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادي؛ بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه

مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً في الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابله شخص في الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجتُ أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمل بعير، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنَّه ابن الله؛ لأن الله أعطاه التوراة وأثره على القوم جميعاً[1]. ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلاَّم بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلتفتوا إليها وينزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى.

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شيء خلق كل الخلق

(١) انظر قصة العُزير هذه في تفسير القرطبي (٤/ ٣٠٤٣) وابن كثير (٢/ ٣٤٨). والعزير هو نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو الذي ضربه الله مثلاً لإحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ... ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

قال ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٣٨٠): "روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله.

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجِدَ من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكان من الأولى أن تجيء ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فأيهما كان أولى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾. والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أي شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - في جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، وإما بوجود واحد من الشيئين وهي الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها في التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

أي: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطي لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى، فإياك أن تقول إنها بأسباب، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء ذكوراً، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل، ويحارب الأعداء. ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتى منها الفضائح، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ۝٥٩﴾ [النحل]

وجاء الإسلام ليوضح: أنه مادام لا دخل لك فى الإنجاب والإنسال، فدع الأمر لمن يهب الأبناء. وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شيء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك، فالذكور هبة، والإناث أيضا هبة. فلا تفصل تلك الهبة عن هذه الهبة. ودائماً أقول للذى ينجب بنات، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء: لو استقبلتم هبة الله فى الإناث كما تستقبلونها فى الذكور، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال، فيحسن الله كل ابنة لكم فى عين رجل صالح ويتزوجها، فإن كُنَّ عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله فى الإنجاب، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور، فالذى يرضى بالهبة فى الإناث يوضح له الله: رضيتَ بهبتى فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب فى تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أى أبناء تنجبهم أنت. ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفِّقَ فى زيجات بناته، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إذن: فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله؛ لَوَجَد في كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة في المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور. إذن: مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجِدَ أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وُجِدت من قبلهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت في الكون وبقيت صورة ناقصة، هي أن يوجد إنسان من أم دون أب، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً ﴿ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾. ونسأل: وهل يوجد قول بغير أفواه؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه. ونقول: هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقي، وكاذب.

ولنعرف أولاً: ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل: اجلس، ولابد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزي فلن يفهم معناها.

إذن: فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولابد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موضوعات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذى يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشيء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم. وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوى وكان مشهوراً فى النحو والألفاظ واللغة، ويتقعر فى استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التي لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة النحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: قد أكلت من لحوم هذه الجوازيء فتصأت منها قصأة أصابنى منها وجع من الوابية إلى دأية العنق، ولم يزل يمنى حتى خالط الخلب وأملت منه الشراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً فى اللغة ولا معاجم عنده، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: أعدْ عليَّ ما قلته فإنى لم أفهم، فأعاد علقمةعليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء، وكتب له: خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: أعدْ عليَّ فوالله ما فهمت شيئاً، فقال الطبيب: لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه. وعرف علقمة أنه متقعر في اللغة ويأتي بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس. وقال أساتذتنا لنا: ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أي خادمه، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال: يا غلام أصعقت العتاريف، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً: زقفيلا، وقال علقمة للغلام: وما زقفيل؟ قال: وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له: يا بنى لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تَصِحْ.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إذن: القول هو اللفظ الملفوظ من الفم، وهذا القول إمَّا أن يكونَ له معنًى، وإما ليس له معنى. مثل كلمة « زقفيل » التى قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود فى اللغة فهى قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهى كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهى نفس الحروف أيضاً ولها معنى. أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له فى اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلانى » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول فى حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له فى الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى اللغة ، وإما أن يكون له معنى فى ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

والله سبحانه يقول:

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

هذا إذن كلام لا وجود له فى الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّاً لزوجها والولد المتبنى لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾

[الكهف]

أي : أن هذا القول منهم كلام له معنى في اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي : لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوه ؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شيء له واقع ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا (١٩) ﴾ [الزخرف]

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله – وسبحانه منزه عن ذلك ، في ذلك يخاطبهم المولى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ – إذن : فهذا كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم : ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي : يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية في الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي : يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و« المضاهاة » هي المماثلة والمشابهة ، وقالوا: إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْيَاء »[1] وهي التي ضاهت وشابهت

(١) قال في لسان العرب : امرأة ضَهْيَاء، وهي التي لايظهر لها ثدي ، وقيل : هي التي لا تحيض ، فكأنها رجل شبهاً.

الرجل ، فى عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهى بذلك تكون شبيهة بالرجل .

﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالى عليهم ، ولم يتركه الحق لنا ، وساعة تسمع : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام: قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً ؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول: قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير: « فليعش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّىٰ ﴾ ترد بمعنيين ، فمرة تعنى « من أين ؟» ، ومرة أخرى تعنى « كيف ؟» ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول [1] :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧]

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذى يكفلها ، والمفترض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أى : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء فى القرآن الكريم :

---

(١) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وبها سميت مريم أم المسيح . ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هى فى كفالته . بل هى تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات، ومقدمات ونتائج ، بل هى بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطى بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور :

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا فى آن واحد: إنك يا زكريا تأتى لها بالرزق فى حدود قدراتك وحساباتك البشرية، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتى به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذى رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتى إلا فى الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس فى بلادهم مثله ، ولذلك قال : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأتِ بها هو، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها، فحينما ترى فى يد ابنك قلم حبر غالى الثمن وأنت لم تحضره له، لا بد أن تسأله: من أين جئت به ؟ وذلك لتتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سيئ فأغراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك: من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدى ثوباً لم تأتِ لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك: من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث فى البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى فى بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم : من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التى تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه «الشيكولاتة» من مصدر معلوم لها وحلال فهى تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون : « من أين لك هذا ؟ » يحكم العالم كله ؛ لأنه يتحكم فى التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيمانى ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام : أنت تتكلم بحسابك ولكنى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً : ما دام الله عز وجل يعطى بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطينى الولد ؟

إذن : فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهى أن الله يعطى بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل : كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾

[مريم: ٩]

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن، ولم يكتف الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته ، ولله ملحظ فى تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمى الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها (١)، مثل أن يسمى رجل ابنه «سعداً» رجاء أن يكون سعيداً، وقد يسمونه «فارساً»، رجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فضلاً» رجاء أن يكون كريماً، ويسمون الفتاة «قمراً» لعلها تكون جميلة. إذن: فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة ، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً :

سَمَّيْتُهُ يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ ... يكُنْ لِرد قضاء الله فيه سَبِيلُ

إذن : فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذى يدل على الشيء المؤمّل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن المسمي لا يملك أن يكون سعيداً ، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذى يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذى سمى يحيى ، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً ؛ لأن الذى يملك هو الذى سمَّى، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التى نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وأجابت :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

(١) عن على بن أبى طالب قال : لما ولد الحسن سميته حرباً ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قال : قلت حرباً ، قال : بل هو حسن . فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : أرونى ابنى ما سميتموه؟ قال : قلت : حرباً ، قال : بل هو حسين » أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٩٨ ، ١١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/ ١٦٥ ، ١٨٠) وصححه وأقره الذهبى .

لقد رأت كل ذلك في سيدنا زكريا وفي ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستُمتحن في عِرْضها فهي التي ستنجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائماً قولها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم في قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشَّرها الحق تبارك وتعالى بذلك في سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب، فتساءلت : كيف يكون لي غلام من غير أب. ويُذكِّرها الحق عز وجل بهذا القول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها :

﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلما قال لزكريا من قبل، إذن ﴿أَنَّىٰ﴾ هذه هي مفتاح الموضوع المقدى كله، في زكريا ويحيى، وفي مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿أَنَّىٰ﴾ وقلنا إن «أنى» تأتي بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وماكان يصح أن تغيب عنهم، فكيف يُصرفون عن

هذه الحقيقة التي توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال في اللغة «حبر» أو «حِبْرُ» أي رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيس» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحي قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أي العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية في الإسلام[1]، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهي باذة الهيئة (أي: رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها : ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار (أي: أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبي ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقي رسول الله ﷺ عثمان فقال: «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك في أسوة، فوالله إني لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).

فى اليوم، فالمسلم الذى يرغب فى زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلى ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف فى المائة، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه. وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى فى الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان [1]، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات]

أى : أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان. ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول :

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا فى فروض الدين ألا نهجع [2] إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء وننام إلى الفجر. لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله. وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج ، فهنا زيادة فى العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التى حُدِّدَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ [المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وعَلم أزلاً قدرات من خلق،

---

(١) قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٨) : «الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً فى الآخرة.. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها».

(٢) الهجوع : النوم ليلا.

لذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة في العبادة ، وليس في ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب » ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذي يُحل ويحرم بـ« افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلّوا شيئاً حرمه الله أو حرّموا شيئاً أحلّه الله، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحريم هي سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ في عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هي العبادة[1] .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذي يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : «ياعدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾.
قال : «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» . أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب .

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله، ولذلك يتابع الحق قوله :

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
وهكذا يذكر الحق أن الأمر لم يصدر منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد من يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول :

« خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله »[1].

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد النفي في «لا» والاستثناء من النفي والإثبات في «إلا»، وهذا نفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين تقول : «الله واحد» فهذا يتضمن الإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفي»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون : كل الشقاء بين موجب وسالب إنما يعطي طاقة، والطاقة يمكن استخدامها في الإنارة أو تدار بها آلة، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر إقبال :

إنما التوحيدُ إيجابٌ وسَلْبٌ

فيهما للنفسِ عزمٌ ومَضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذييلاً للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وحين تسمع كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فاعرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فالله غني وأنت غني، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلي؟ وأنت حي والله حي ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٥) والبيهقي في سننه (٤/ ٨٩، ٢٨٩) قال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ذاتية وحياتك موهوبة، فسبحانه حي بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه «الحي» واسمه «المحيي»، فهو حي في ذاته، ومُحْيي لغيره، وإن كانت الصفة لله في الذات فهي لا تتعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها، فتقول «حي» ولا تقول المقابل، ولكن إن قلت: «محيي» فأنت تأتي بالمقابل وتقول «مميت».. وتقول: «قابض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن: فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها في غيره، فسبحانه هو مُحيي لغيره، ومميت لغيره، لكنه حي في ذاته. إذن فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعني التنزيه ذاتاً، وصفات، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتي مثله فعل من البشر، تقول: إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج [١]، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لانهائية.

ولذلك حين قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقد أسْرِيَ بي إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعي أنك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ [٢] لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل: لقد ذهبت

(١) أي أن فعل الله سبحانه وتعالى يتم في الكون بدون معالجة أو تهيئة أسباب بل الأمر بالنسبة لله: كن فيكون.

(٢) أخرج أحمد في مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعد معتزلاً حزيناً. قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: ما هو؟ قال: إنه أسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه» الحديث، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٧٧). والبخاري في صحيحه (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

وقد قال ابن إسحاق: فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الإمْر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ (سيرة النبي لابن هشام: ٢/ ٤٤). والإمْر: هو الشيء العظيم العجيب المنكر.

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرِىَ بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
إذن: فالذى أسْرَى هو الله القوىّ القادر ولا يحتاج الله إلى زمن.

إذن: فـ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه، وكلما زادت القوة زادت القدرة والله هو القوى. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يشركُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لايقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لاتجد كافراً معانداً محارباً لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

إذن: فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله».

والله عز وجل يقول هنا: ﴿لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشرِكُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية؛ لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفضل. فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولاتردمها، والأصلح من ذلك أن تحمى

جدرانها بالطوب حتى لاتنهار الأتربة وتسدُّها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس في منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذى القرنين:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾

[الكهف]

أي: أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذى القرنين الأسباب، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن: فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلِح فى الأرض حتى يسعد المجتمع بأى إصلاح فى الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات في أشياء ولا يعطيها في أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولاالنجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون. وكل شيء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا فى الشيء الذى فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها الشر. بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم فى زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذى بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك، حتى

إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقى وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله فى الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقاً لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]

إذن: فالميزان للعلويات لا يختل أبداً، فإذا عرفتم ذلك فنفّذوا أمر الحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨]

فإذا سرتم على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً، وهذا شأن الشيء الذى فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم. وعلى هذا إذا رأيت عورة فى الكون من أى لون، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطِّل.

ولذلك تجد - أيضاً - أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدى المفسدين، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يُريد أن يعدل ميزان الكون فهم يحاربونه.

وأنت حين تشترى سلعة، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك. ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتى مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج.

ومن قبل قلنا : إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين.. النور الأول حسى وهو فى الماديات، والنور الثانى معنوى وهو فى القيم، وكما أن النور الحسى يهدى الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأى شىء ؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشيء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشيء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب النور دوراً فى الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا ؛ لأن الإنسان فى الأمر الحسّى لايستطيع أن يطفىء النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التى تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفىء «المُنوِّر» والمنوِّرُ الأعلى هو الله ، ولا أحد يستطيع إطفاءه. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أى: لا يريد الله شيئاً ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وسبحانه قدَ أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل

لينتصر عليهم الكفر، ولذلك يقول لنا : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أى لا يريد ﴿إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

ويتابع الحق جل وعلا قوله :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة «دين» أخذَتْ واستعملت أيضاً فى الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول لكفار ومشركى مكة :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]

فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات ؛ لكن ﴿دِينِ الْحَقِّ﴾ هو الذى جاء من السماء .

﴿هُوَ الذى أرسلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه﴾ ولنلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أى ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

ونتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَلَى الدِّين كُلِّه﴾، فلو أن الفساد كان فى الكون من لون واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكنَّ هناك أدياناً متعددة؛ منها البوذية وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات،

وكذلك الصابئة [1]. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه ؛ الذى هو دين الحق على دين واحد ؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقفاً فوق ظَهْر هذه الأديان كلها، والشيء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عالياً ظاهراً. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]

أى: أن يأتوا فوق ظهره. وكل الأديان هى فى موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامى. بعض الناس يتساءل: إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت دياناتهم موجودة فى الكون وأتباعها كثيرون ، نقول: لنفهم معنى كلمة الإعلاء، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا باتباع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام، وهم فى هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة بدونها. وأنت كمسلم حين تتعصب لتعاليم دينك، فليس فى هذا شهادة لك أنك آمنت، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق ، ولكن الشهادة القوية تأتى حين يضطر الخصم الذى يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته، هنا تكون الشهادة القوية التى تأتى من خصم دينك أو عدوك. ومعنى هذا أنه لم يجد فى أى فكر آخر فى الكون حلاً لهذه القضية فأخذها من الإسلام.

فإذا قلنا مثلاً: إن إيطاليا التى فيها الفاتيكان الذى يسيطر على العقائد

---

(١) الصابئة : قوم تركَّب دينهم بين اليهودية والمجوسية. وقال الخليل : هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. انظر : تفسير القرطبى (١/ ٤٧١) والملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٦٢) ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار (ص ٢٦٣ وما بعدها).

المسيحية في العالم الغربي كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التي واجهت المجتمع الإيطالي وغيره من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك.

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه، أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من ديننا ويطبقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية، يتأكد لهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، وبالله لو كان الإظهار غلبة عقدية، بمعنى ألا يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ولما قال في موضع آخر من القرآن: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وهذا يعني أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين للإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان، لا، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام. ومثال آخر من قضية أخرى، هي قضية الرضاعة، يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾

[البقرة: ٢٣٣]

وقامت في أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم، وكان ذلك في نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه. واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاعة الطبيعية وبحماسة بالغة. هل فعلوا ذلك تصديقاً للقرآن

الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حَلّ لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية؟

وكذلك الخمر نجد الآن حرباً شعواء ضد الخمر فى الدول التى أباحتها من قبل وتوسعت فيها، ولكنْ شنُّوا عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنسانى، هذا هو معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّه﴾ أى: يجعله غالباً بالبرهان والحجة والحق والدليل على كل ما عداه. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ فقد ظهر هذا الدين وغلب في مواجهة قضايا عديدة ظهرت فى مجتمعات المشركين والكافرين الذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه، وهو ظهور غير إيمانى ولكنه ظهور إقرارى، أى رغماً عنهم.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الأحبار والرهبان لايؤمنون بالله الإيمان الصحيح، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم، ويحلون ماحرم الله، ويحرمون ماأحل الله، ويتخذهم أتباعهم أرباباً من دون الله. هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾

وبعد أن شرح سبحانه لنا ما يدور فى ذواتهم ، وانحرافهم عن منهج الله تعالى ، والغرق فى حب الدنيا وحب الشهوات، وهم قد اشتروا بآيات الله

ثمناً قليلاً، وحرَّفوا تعاليم السماء حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولكن هل الأموال تؤكل؟ طبعاً لا، بل نشترى بالمال الطعام الذى نأكله، فلماذا استخدم الحق سبحانه عبارة ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾؟ أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب، ولكنهم يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه [١].

ولذلك يأتى قوله تعالى فى ذات الآية أنهم ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. هم إذن أكلوا أموال النّاس بالباطل، مصداقاً لقول الحق سبحانه ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ومعنى ذلك أنّ هناك أكلاً من أموال الناس بالحق فى عمليات تبادل المنافع، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة؛ ويذهب التاجر ليشترى بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا فى أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، بل قال ﴿إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لايظلم أحداً؛ لذلك جاء بالاحتمال. فلو أن الله سبحانه وتعالى عمَّم ووُجد منهم من هو ملتزم بالدين. فمعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم لم يُعطِ كل الاحتمالات، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه يصون الاحتمالات كلها.

إذن: فاستيلاء بعض من هؤلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس لا يكون بالحق، أى لا يحصلون فقط على ما يكفيهم، بل بالباطل أى بأكثر مما

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/٣٠٤٩): «كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى. وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذى ذكره سلمان الفارسى عن الراهب الذى استخرج كنزه» والتزلف هو: التقرب.

يحتاجون. وهم يأخذون المال ليصدوا به عن سبيل الله، وهم في سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُغيِّرون منهج الله بما يتفق مع شهوتهم للمال، وما يحقق لهم كثرة الأموال التي يحصلون عليها، ولهذا تأتي العقوبة في ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والكَنز مأخوذ من الامتلاء والتجمع، ولذلك يقال : «الشاة مكتنزة»، أي مليئة باللحم وتجمَّع فيها لحمٌ كثير.

إذن : فيكتزون أي يجمعون، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛ وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوي، فقد بدأ التعامل الاقتصادي بالتبادل، أي سلعة مقابل سلعة، وهي ما يسمى عمليات المقايضة، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادي اخترعت العملة التي صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول. والعملة من بدايتها حتى الآن ترتكز على الذهب والفضة. وحتى عندما وجدت العملة الورقية، كان لا بد أن يكون لها غطاء من الذهب لكي تصبح لها قيمة اقتصادية ؛ لأنَّ العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يغطيها من الذهب والفضة.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان، يجعلهما الأساس في النقد والتجارة، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً. لكن لايزال الأساس النقدي في العالم هو الذهب والفضة. وعلى مقدار رصيد الذهب الذي يغطي العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أي بلد أو تنخفض. . فمثلاً في مصر في عهد الاحتلال البريطاني كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون الفائض من الذهب مليوني جنيه، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصري تساوي جنيهاً من الذهب مضافاً إليه قرشان ونصف القرش. والذي يهبط بالنقد إلى الحضيض أن يكون رصيد

الذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة والأساس في الاقتصاد العالمي.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل في تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن هذا التعامل يقتضي الحركة الدائمة للمال؛ لأن وظيفة المال هي الانتفاع به في عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فإنه ينقص كل عام بنسبة ٢,٥٪ وهي قيمة الزكاة. ولذلك يفنى هذا المال في أربعين سنة. فإن أراد المؤمن أن يُبقى على ماله؛ فيجب أن يديره في حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة؛ وهي نسبة قليلة تُدفَعُ من المال. ولكن إذا أدار صاحب المال مايملكه في حركة الحياة، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به؛ لأن الذي يستثمر أمواله مثلاً في بناء عمارة ليس في باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التي صنعت مواد البناء أخذت، وأخذ العمال أجورهم؛ في مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن: فقد انتفع عدد كبير في المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم. ولذلك فإن الذي يبنى عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عدد من الناس، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً.

إذن: سبحانه وتعالى لايريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريده متحركاً ولو كان في أيدي الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع، وتشغيل للأيدي العاملة إلى غير ذلك، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره في حركة الحياة، فالسلع لن تستهلك، والمصانع ستتوقف، ويتعطل الناس عن العمل.

وكما يحث الإسلام على استثمار المال، يطالبنا أيضاً بألا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع الكسل وعدم العمل. ولذلك قيل: إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم ولو بحفر بئر ثم تأمرهم بطمّها أي ردمها، في هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكنز؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنهم بكنزهم المال إنما يُوقِفُونَ حركة الحياة التي أرادها الله تعالى للكون. وأنت ترى العالم الآن يعيش في غائلة البطالة؛ لأن المال لايتحرك لعمارة الكون، بل هناك من يكتنزون فقط.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقي، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة؛ نقول: إن العملة الورقية ليست نقداً بذاتها، ولكنها استخدمت لتعفي الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والفضة، قد لا يقدرون على حملها، إذن فهي عملية للتسهيل، وهي منسوبة إلى قيمتها ذهباً، إذن: فالذين يكتنزون العملة الورقية ولاينفقونها فيما يعمر بها الكون وتتم عمارته تنطبق عليهم الآية الكريمة [1].

ولكن الكنز في هذه الآية لا يأتي فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لايؤدون حق الله فيها. ولذلك فإن المال الذي أخرجتَ زكاته لا يُعدُّ كنزاً، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر؛ أما المال المكنوز فهو المال الذي لا تُؤدَّى زكاته.

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٠٤٩): «الكنز أصله في اللغة الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة. ألا ترى قوله ﷺ: «ألا أخبركم بخير مايكنز المرء: المرأة الصالحة» أي يضمه لنفسه ويجمعه. وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لايطلع عليه بخلاف سائر الأموال. قال الطبري: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض، في بطن الأرض كان أو على ظهرها». والحديث الذي ذكره القرطبي هنا أخرجه أبو داود في سننه (١٦٦٤) والحاكم في مستدركه (١/٤٠٩) (٢/٣٣٣) وصححه وأقره الذهبي في الموضع الأول.

والذى يملك مالاً مهما كانت قيمته ويؤدى حق الله فيه لا يعتبر كانزاً للمال، بل الكنز فى هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله [1].

وإذا عدنا إلى نص الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ نتساءل: لماذا لم يقل الله: ولاَ ينفقونهما مع أنهما معدنان؟ ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقات كثيرة، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب، وغيره يملك مائة دينار من الذهب، وثالث ليس لديه إلاّ دينار ذهبيّ واحد وكذلك الفضة، وما دام الجمع هنا موجوداً فلا بد أن تستخدم ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ .

ولم تقل الآية الكريمة: والذى يكنز. ولكنها قالت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾، إذن: فالمخاطبون متعددون، فهذا عنده ذهب، وهذا عنده ذهب، وثالث عنده فضة، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع. ويلفتنا القرآن الكريم إلى هذه القضية فى قوله تعالى:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]

ولم يقل «اقتتلا» لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين، فإذا جاء القتال لاتقوم طائفة وتمسك سيفاً وتقاتل الثانية، وإنما كل فرد من الطائفة الأولى يقاتل كل فرد من الطائفة الثانية، إذن فهما طائفتان ساعة السلام، ولكن ساعة الحرب يتقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَتَلُوا﴾، ولم يقل «اقتتلا». أما فى حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]

واستخدم هنا «المثنى» لأننا ساعة نصلح بين طائفتين، لا نأتى بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية، ولكن نأتى بزعيم

(١) قال ابن عمر: ماأدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض. ذكره القرطبى فى تفسيره، وقال: «ومثله عن جابر، وهو الصحيح».

الطائفة الأولى ونصالحه على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح . ولذلك هنا تجب التثنية .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ لم يقل ولاينفقونهما، ولكن قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والإنفاق في سبيل الله يشمل مجالات متعددة، ففي سبيل الله تحدث حركة في المجتمع يستفيد منها الناس، فحين تُخْرَجُ الزكاة يستفيد منها الناس، وحين تُجهَّز بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس، ونظرية عدم كنز المال ربما ظهرت حديثاً في الاقتصاد العالمي ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم .

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج في السوق . والرواج معناه إيجاد العمل ووسائل الرزق . وإيجاد الحافز الذي يؤدي إلى ارتقاء البشرية، وأنت حين تشتري لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيت بيتاً صغيراً فإنك تُوجِدُ رواجاً اقتصادياً في المجتمع . وفي نفس الوقت ارتقيت بوسائل استخداماتك . والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذي يفيد البشرية، ولكن إذا كنزت كل مالك ساد الكساد الاقتصادي .

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وزيادة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد الوسط في كل الأشياء . ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾

[الفرقان]

والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق، وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أي أزمة مفاجئة . لكنك إن قترت حدث كساد في السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال، والإسلام يريد نفقة معتدلة توجد الرواج السلعي، وادخاراً تستخدمه في الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات .

والإنفاق أنواع : إنفاق في المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك، وإنفاق في غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تنقى المجتمع من مفاسد كثيرة [1] ؛ فهي تمنع الحقد بين الناس ؛ لأن الفقير إذا وجد من يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على الغنى، والغنى والفقير متساويان في الانتفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله، والغنى حين يعطى يحس أن هذا أمان له ؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه.

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة، ولا يوجد من لديه فائض يحبسه عن الناس[2]. ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة. والإنسان إذا عمل فإنه لايفيد نفسه فقط بل يفيد المجتمع أيضاً. فسائق «التاكسي» مثلاً إذا كسب مائة جنيه في اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط، ولكنه في الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسّر على العباد مصالحهم، فنقل هذا إلى عمله؛ ونقل ذلك إلى المستشفى، ونقل غيرهما إلى السوق ليشترى ما يحتاج إليه، ونقل رابعاً ليزور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا.

إذن : فالذي يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط، فمن أين يعيش غير القادر على العمل؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة؟ إنه لايعيش إلا بفائض القادر على

---

(١) ولذلك يقول عز وجل في هذه السورة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)

(٢) وقد أرشد الرسول ﷺ المسلمين إلى هذا، فقال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل. أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٢٨) وأحمد في مسنده (٣/ ٣٤) وأبو داود في سننه (١٦٦٣).

العمل، ولذلك لابد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته، وليس على قدر حاجته. والعمل على قدر الحاجة يجعله يوفي بحاجات من يعولهم، ولايضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين؛ أى أنه يقيهم شر الحاجة. أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته، ويعطي لغير القادر ما يقيم حياته، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين.

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر. ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد من يدوم غناه أو من يدوم فقره؛ لأن دوام الحال من المحال، إن عاش الغنى فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيبادر ليعين الفقراء كنوع من ردِّ الجميل. وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة، كما أن الحياة فى مثل هذا المجتمع إنما تهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم، ذلك أن الأعمار بيد الله، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفل المجتمع بهم، عندئذ يحس بالأمان فى حياته، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حق اليتيم، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده الصغار، ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم [1]؛ ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَونه، فَيُحسُّ الأب بالأمان وتُحس الأم بالأمان ويحس الصغار بالأمان، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كفالة اليتيم من الأمور التى حثَّ عليها الإسلام، وورد ذكر اليتيم واليتامى فى القرآن (٢٣ مرة)، وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الآية (النساء: ٣٦).

وانظر إلى القرآن وهو يوصى كافلى اليتامى بالتعامل بحس إيمانى نابع من قلوبهم وضمائرهم مع أموال هؤلاء اليتامى فيقول عز وجل ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٦).

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

وتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمع اليتيم؛ فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار.

إذن: فساعة يكفل المجتمع اليتيم فالطفل لن يسخط على القدر الذى حرمه من أبيه لأنه وجد آباء يرعونه، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده صغار، وكانت الأم تبكى على أطفالها لأنهم تيتموا، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً، والثالث أصبح محامياً، بينما من لا يزال آباؤهم على قيد الحياة كانوا متعثرين فى دراستهم، فقال أحدهم للآخر: ليتنا نموت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا.

إذن: فهناك آباء محابس رزق، إذا ذهبوا فاض الله بالرزق على أولادهم، وهذه صورة نراها فى الكون؛ فنعرف أن المسألة فى يد الله سبحانه وتعالى القائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات]

إذن: فالاقتصاد الإسلامى مبنى على وجود حركة فى الكون، ولابد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين، وليس على قدر حاجاتهم؛ حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر.

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لمحة إيمانية، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى العطاء من أى إنسان غنى يتعب فى عمله، وكأن من هم أغنى منه يعملون ليعطوه، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوَّضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسخط على اختبار الله تعالى له بالابتلاء.

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وساعة تسمع كلمة ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون في خبر سار، وإن جاءت في خبر محزن تكون تهكمًا ، فالإنسان الذي هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه ؛ لأنه لا يخشى الله فيهم، هذا الظالم يُؤتى به يوم القيامة ويُعذَّب أشد العذاب ، ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وبطبيعة الموقف في النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً، ولكن قول ملائكة النار : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾، هو تهكم شديد، وهو في ذلك كقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف ٢٩]

وهم ساعة يسمعون كلمة ﴿يُغَاثُوا﴾ يفرحون، لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوي وجوههم ، فهل هذه إغاثة ؟ إنه تهكم عليهم وزيادة في عذابهم ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذي سيتعرضون له، ويُبيِّن لنا خبرَ المغيَّب عنّا في الآخرة بصورة مُحَسَّة لنا فيقول :

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن ، فإن كان ما كنزوه أوراقَ نقد فكيف يُحمَى عليها ؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهى صالحة لأنْ تُكوَى بها أجسادهم، أما الورق فكيف يتم ذلك ؟ ونقول: إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحمىً ، أو يحولها إلى ذهب وفضة؛ وتكوى بها نَواحٍ متعددة من أجسادهم ، والكية هى أن تأتى بمعدن ساخن وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً.

وحين مات أحد الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وبحثوا فى ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول ﷺ: « هذه كَيَّة من النار » ؛ لأن صاحبه كان حريصًا على أن يكتنزه ، كما وجدوا مع صحابى آخر دينارين كنزهما ، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان كَيَّتان»[1].

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً ، وإلا لو قلنا: إنَّ الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً ، لو قلنا ذلك لكنا قد أخرجنا آيات الميراث فى القرآن الكريم عن معناها ؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفى. والمال المورَّث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله، لذلك لا يعتبر كنزاً.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب؟ لأن كل جارحة من هذه

(١) عن أبى أمامة قال: توفى رجل من أهل الصُّفَّة فوجد فى مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: كية. ثم قال: توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كيتان. أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٠): رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب. وقد وثق. وهذا الحديث ونحوه رواه أحمد عن عدة من الصحابة.

وقد يقول قائل: وما دينار أو ديناران حتى يكوى بهما بالنار؟ والجواب: إن هذا رجل من أهل الصُّفَّة أى من الفقراء المعدمين الملازمين لمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين، بينما هو يكتنز الذهب ولو ديناراً فى طيات ثيابه فكأنه أخذ حق غيره وحرم مجتمع المسلمين مما يكتنزه ومن جهده فى العمل، فلو بهذا الدينار أتى بقدوم واحتطب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره لكان أنفع لنفسه ولأهله ولغيرهم ؛ ولهذا استحق الوعيد.

الجوارح لها مدخل فى عدم إنفاق المال فى سبيل الله. كيف؟ مثلاً: تجدون الوجه هو أداة المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متجهاً إليك ليطلب صدقة، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدى حق الله أن تشيح بوجهك عنه، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب، فإن هذا الفقير يحس بالمهانة والذلة ؛ لأن الغنى قد تركه وابتعد عنه، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير فى تقدمه من الغنى ، فإنه يعرض عنه بأن يدير له جنبه ليحس بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطى له ظهره.

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشترك فى منع الإنفاق فى سبيل الله، وهى الوجه الذى أداره بعيداً، ثم أعطاه جانبه، ثم أعطاه ظهره. هذه هى الجوارح الثلاث التى تشترك فى منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لابد أن تُعذَّب فتُكوى الجباه والجنوب والظهور.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، أى: هذا ما منعتم فيه حق الله، فإن كنز الإنسان مالاً كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالاً قليلاً ؛ لأن الكَىَّ سيكون بمساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة. ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أى: أن عذابكم فى الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال، فالمال الذى تفرحون بكنزه فى الدنيا كان يجب أن يكون سبباً فى حزنكم؛ لأنكم تكتنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور فى الحياة الدنيا ، فسوف يقابله فى الآخرة عذابٌ ، كُلٌّ على قدر ما كنز .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

والشهر : هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هي الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى بعيدة عنا تستطيع أن تأخذ مليون شمس في جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة عن مدى اتساع الكون ، فلا تعتقد أن الشمس هذه موجودة بذاتها ، بل هي تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعيننا محدود ، وهناك ما لا يمكننا أن نراه؛ لأنه غير منظور لنا. وأنت إذا نظرت إلى مصباح كهربائي، فنور المصباح ليس ذاتياً، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من أسلاك وكابلات وأكشاك، ثم محطة توليد الكهرباء التي تولد التيار الكهربائي، ثم المصانع التي أنتجت الآلات التي تعمل في محطة الكهرباء، إذن: فوراء هذا المصباح الصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة.

ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء والنور؟

الضياء : فيه نور وفيه حرارة. والنور : فيه ضوء وليس فيه حرارة. ولذلك

يسمون ضوء القمر «الضوء الحليم» ، أى : أنك عندما تجلس فى ضوء القمر لا تحتاج إلى مظلة تحميك منه، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة.

والحق سبحانه وتعالى يسمي الشمس سراجاً وهَّاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء. أما القمر فسماه منيراً ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذان الكوكبان العلويان - الشمس والقمر - وضع الله فيهما موازين الزمن. والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليلة، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشيء وظله، وأوقات يكون الظل مِثْلَيْ الشيء. والليل فيه الظلام، ويأتي بعد النهار والليل - في مقاييس الزمن - الشهورُ، وبعد الشهور تأتي السنوات.

إذن : فمقاييس الزمن محتاجة لآلات تقاس بها، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس. إذن فالشمس معيار اليوم. وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس. وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى الشمس فإنك لا تعرف هل أنت فى أول الشهر أو فى منتصفه أو فى آخره. ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت، ففى أول الشهر يكون القمر هلالاً ، وفى منتصفه يكون بدراً ، وفى آخره المحاق[1]. والشهور عند الله اثنا عشر شهراً.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان، ويجعله خليفة فى الأرض؛ خلق له كوناً مُعَدّاً إعداداً حكيماً لاستقباله ، فقدَّر فى الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأنزل المطر ، فكل ما يقيم حياة الإنسان كان

(١) المحاق : آخر الشهر إذا امحق الهلال فلم يُرَ. وهو أن يَسْتَسِرَّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية. قال ابن الأعرابي : سمي المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته ، فلم يره أحد. انظر لسان العرب (مادة محق).

موجوداً فى الكون قبل أن يأتى الإنسان إليه . والإنسان جعله الله خليفة فى الأرض وله حركة ، وهى الأحداث التى تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه ، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً ، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان. إذن : فالحياة كلها تفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان.

وكما أعدَّ الله سبحانه وتعالى للإنسان فى كونه مقومات حياته اليومية . . أنزل له القيم التى تحفظ له معنويات حياته ، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تتعاند ، ومعنى التساند أنْ تتحد حركة الناس جميعاً فى إيجاد النافع لمزيد من الإصلاح فى الأرض، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض ، فإن الفساد يظهر فى الأرض ؛ لأنْ كل واحد يريد أن يهدم ما فعله الآخر .

ولكى تتساند حركات الإنسان فى الكون ؛ فلا بد من مُشَرِّع واحد - وهو المشرع الأعلى - يعطى قوانين الحركة البشرية لكل الناس. وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى ، وأخذوا يقنّنون لأنفسهم، نجد قوانين البشر تتبع أهواءهم، وكل واحد يحاول أن يحصل على مَيْزات لنفسه، ويأخذ حقوق الآخرين؛ لتفسد الحياة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]

إن اتباع الحق لأهوائهم سيُخضِعُ الكونَ لأهواء البشر ، هذا يريد وهذا لا يريد، والحق سبحانه يريد فى الكون حركة السلام والأمن والاطمئنان، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان بمنهج الله؛ حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل، مستوعب لسلام الإنسان مع نفسه، ولسلام الإنسان مع الكون، ولسلام الإنسان مع الله، لكن الإنسان الذى خلقه الله مُخيَّراً وأنزل له المنهج بالتكليف، فى إمكانه أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه. وإن عصى الإنسان المنهج فهو يفسد فى الأرض وينشر فيها الظلم والفساد.

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماناً ، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد فى الأرض ؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود فى هذا الكون ؛ لتتصارع الإرادات ، فما دام للإنسان اختيار ، وما دام هناك من يعصى ومن يطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها فهى لا تعكر السلام فى الكون ، فلن تقوم ثورة - مثلاً - لكى تشرق الشمس ، أو تشتعل حرب لإنزال المطر ؛ لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التى أرادها الله لها ، وتعطى نفعها للجميع ، ولكن الفساد يأتى من انحراف الناس عن منهج الله ، وما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم [1] ؛ فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى . ولكن إن عَمَّ الفساد ، ولم يوجد فى المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس فى حياتهم وأرزاقهم .

ولكى يسود السلام فى الكون ؛ وضع الحق سبحانه فى الزمن وفى المكان حواجز أمام طغيان النفوس ؛ علّها تفيق وتعود إلى الحق ، فجعل فى الزمان أشهراً حُرماً يمتنع فيها القتال ، ويسود فيها السلام بأمر السماء ، وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسرى فرصة تجعل هؤلاء المتحاربين يفيقون إلى رشدهم وينهون الخلاف بينهم ، كذلك خصَّ الله بعض الأماكن بتحريم القتال فيها ، فإذا التقى الناس فى هذه الأماكن كانت هنالك فرصة لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف .

(١) عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣ ، ٢٦٨٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح ، وانظر شرح ابن حجر العسقلانى لهذا الحديث فى فتح البارى (٥/ ٢٩٥ ، ٢٩٦) ففيه كلام قيم جداً .

والإنسان في حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بنيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالاً ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب الضعفُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات منتصراً كان أم مهزوماً ، ولكنه أمام عزة نفسه في مواجهة خصمه يريد أن يستمر في الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذُلَّ . فيشاء الله برحمته لخلقه أن يجعل في الزمان وفي المكان ما يحرم فيه القتال ؛ حتى لا يقال: إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقفت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى ؛ ولكن ليقول الناس: إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله.

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته ؛ فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والنفوس.

وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التي يحرم الله فيها القتال ، أمن على نفسه ، وفي هذا منع للشر أن يستمر ، وصون للنفوس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير ؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا: أنا خالقكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الزمان زماناً أحرم فيه القتال ، وأجعل لكم مكاناً مَنْ دخله كان آمناً ، فاستتروا وراء ذلك وكُفُّوا عن القتال.

وهذه هي بعض من رحمة الله ، يعطي بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو لخلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والعاصي ، وكل نعم الكون من عطاءات ربوبية الله.

إن عطاءات الله سبحانه لا تفرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا تعطي الزرع للطائع وتمنعه عن العاصي ، والشمس لاتضيء وتسقط دفئها وحرارتها للمؤمن دون الكافر ؛ فَنِعَمُ الكون المادية كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه.

الأسباب - إذن - هى للناس جميعاً ، ولهم أن يتخذوا الأزمان المواتية لحركة الحياة كما يحبون ، فيسيرون الزراعات على أى تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يفيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التى هى من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قَيِّم ، ولذلك فهناك عطاء ألوهية لله فى المنهج الذى أرسل به الرسل للناس فأوضح : أنا أختار الزمان الذى أجده مناسباً للقيم والمعانى السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعانى السامية .

وأراد الحق برسالة محمد ﷺ أن يشيع اصطفاء المكان والزمان لكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هى اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال : ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، فهناك "عند" غير الله ؛ وهناك « عند » الناس .

وأوضح سبحانه لخلقه : قَدِّروا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث فى الواقع المعاش . . إنك تجد من يزرع حسب التقويم القبطى ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف ؛ لأن التقويم القبطى قائم على التقويم الشمسى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً مخصوصة ؛ لذلك قال : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ وأوضح سبحانه : لا تجعلوا زمن القيم كالأزمان التى تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القِيَم كل الزمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها وقت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والمغرب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محددة فهى تشمل

الزمن كله ؛ فالصلاة تقام مثلاً في أسوان ، وبعد دقائق في الأقصر ، وبعد دقائق في القاهرة ، وبعد دقائق في الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوربا ، وهكذا . فكأنها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هي مستمرة حسب اختلاف الأوقات في الدول المختلفة ، فصلاة الفجر - على سبيل المثال - قبل شروق الشمس. والشمس تشرق في كل دقيقة على بقعة مختلفة من الأرض. فكأن الصلاة دائمة على سطح الأرض. بل أكثر من ذلك نجد أننا في الوقت الذي نصلي فيه نحن الظهر ، قد يصلي غيرنا العصر في شمال أوربا ، والمغرب في أمريكا ، والعشاء في كندا مثلاً ، فكأن الصلاة تقام في كل وقت على ظهر الأرض ؛ ذلك لأن الكون كله مُسَبِّح لله.

ونأتي بعد ذلك إلى اختيار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتي مرة في الصيف ، كما يأتي في الشتاء وفي الربيع ، وفي الخريف . كذلك الحج يأتي في فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هي اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها الشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لنا اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لنا الشهر ؛ فهو في أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدْر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذي يحدد بداية الشهر ونهايته.

ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وقال : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ .

ولكن لماذا لم يجعل الحق كل الأشهر سلاماً ؟ نقول : إن الحق في تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن الحرب أيضاً قد تكون سبباً لتحقيق

السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تخرج جماعة عن الجادة ، و لهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة للخير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار ؛ فقد يسير فى اختياره إلى ناحية السوء ؛ لذلك لابد أن يضرب المجتمع على يد المسيء ، وإذا ما اختارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع . وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرُماً لأذلّ الكفار والمشركون المؤمنين ؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكأن الله قد فرض العبودية على المؤمن به . وأعطى السيادة لغير المؤمن. ثم إن قوى الخير والشر تتصارع فى هذا الكون ، وقوى الحق والباطل تتقاتل ، ولابد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق فى الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقى:

الحَرْبُ فى حَقٍّ لَدَيكَ شريعةٌ

وَمِنَ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ

إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقاوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه ؛ لذلك لم يشرع تحريم القتال فى العام كله. ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة السلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصلح.

ولقد أوجد سبحانه فى الكون سُنَّة ، هى أنه إذا ما التقى حق وباطل فى المعركة فالباطل ينهزم فى وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول سنوات طويلة فاعرف أنها بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين باطل وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت المعركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حَقَّيْن أبداً ؛ لأن الحق

فى الدنيا كلها واحد ، فلا يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما ؛ لأن الباطل زهوق بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماء توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أولى بأن ينصره الله على الآخر ؛ بل يترك سبحانه هذا الصراع لأسبابهم ؛ مما يطيل أمد الحرب.

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن الناس مطلوبات السلام الدائم ؛ لأن الناس تنهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليوقفوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة. ونحن نلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا فى بيت يسكنه عدد من الناس - كما يحدث في الريف - وسُرق شيء ثمين من هذا البيت ، والسارق من السكان ونريد منه أن يعيده دونَ أن ينكشف أمره فهم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتى ليلاً ويضع حفنة من التراب فى هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه بين حفنة التراب ، وهو بذلك يأخذ فرصة من مجتمعه الصغير ليعيد ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفى هذا ستر له فلا ينفضح أمام الناس.

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن ينفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار فى الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكبر للسلام والصلح ، وبذلك تكون فرص السلام أكبر من فرص الحرب بكثير.

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدى عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين فى الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها ؟ إن الحق سبحانه لا يعنى بتشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين ؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتمادوا

فى العدوان على المؤمنين ، فأباح للمؤمنين القتال فى هذه الأشهر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك فى الأماكن المحرَّم فيها القتال ، فقال :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... (٢١٧)﴾

[البقرة]

وهكذا أباح الله القتال فى الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال فى المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتال المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال فى المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال :

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة]

وهكذا جاء التقنين الإلهى ليحمى المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال فى الأشهر الحرم كما أمر الله ؛ بشرط التزام الطرف الآخر الذى يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن خالفها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال.

وهنا يقول سبحانه :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ والكتاب يطلق على الشيء المكتوب المدوَّن ، ولا يُدوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التى تتم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذى يُكتب حتى يكون حجة فى الاستشهاد به فى حالة وجود خلاف.

ولكن أين ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذى كُتِبَ فيه هذا ؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التى نزلت فى مواكب الرسل ، ويقصد بالكتاب - أيضاً - القرآن الكريم الذى نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتغير فى القرآن كثير من الأحكام الموجودة فى الرسالات السابقة ، أما العقائد فهى واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التى لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (١٨٩)﴾ [البقرة]

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (٥)﴾ [يونس]

فكأنه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن إعجازات الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن العالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد فى حسابها على الحساب القمرى ، والله سبحانه يريد منا حين نقرأ كتاباً أن تمعن فى وضع الألفاظ فى موضعها. فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وبعد ذلك يأتى باستثناء هو : ﴿ مِنْهَا﴾ أى من الاثنى عشر شهراً ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الله : " فيها "بدلاً من ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ما دام قد قال من قبل : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ؟

ونقول: إن الحق ينهى عن الظلم العام في كل الشهور ، وإن كان المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود النهى عن ظلم الحرب . وهنا قاعدة لغوية يجب أن نلتفت إليها ؛ وعندنا في اللغة جمع قلة وجمع كثرة ؛ جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويختلط الأمر على بعض الناس في مسألة جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع التكسير وجمع الصحيح . فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير ، والجمع الصحيح ؛ لأن التكسير هو أن تكسر بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول جمعها رسل ؛ هنا كسرتَ بنية الكلمة أي: غيَّرتها.

أما إن قلت : " مسلم " فجمعها " مسلمون " ، وهنا تضيف "واواً ونوناً" ، ولكن كلمة " مسلم " صحيحة ، أي أننا لم تكسر المفرد . ولكن إن قلت: " سفينة " وجمعها " سفن " تكون قد كسرت المفرد.

وقول الحق هنا: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة ؛ لأن جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة الجماعة. وإن زاد على عشرة يعاملونه معاملة المفرد المؤنث ، مثل وضع الشهور الأربعة المحرمة في كتاب الله ، ولذلك قال: ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وجاء هنا بـ "نون النسوة" للجمع . والقاعدة - كما قلنا - إن جمع القلة يعامل معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عومل معاملة المفرد المؤنث ؛ لأن الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أي أنه بمفرده ضعيف. فإن وجد جماعة ينتمي إليها فهو يُحس بالقوة.

إذن : فالفرد يعتصم بالجماعة ، وبهذا تعامل الجماعة كلها كهيئة واحدة ، وهناك شاعر يستهزيء بقوة جماعة ما ، فيقول:

لا أبَالِي بِجمْعِهِنّ فَجَمْـ ـعُهُنّ كُلُّ جَمْعٍ مُؤنَّثِ

إذن : فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطبق على قوله سبحانه وتعالى هنا : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ . وأكرر : إن أردت الظلم العام فإن الله قد حرم الظلم فى كل شهور السنة ؛ سواء ظلمك لنفسك أم ظلمك للناس ، وإن أردتَ من معنى الكلام تحريم الحرب فى الأشهر الحرم تكون : ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : إياكم أن تظنوا أن مخالفتكم لمنهج الله يحدث منها شىء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تضروا أنفسكم أو غيركم ، لكن لن يضر أحدكم الله ؛ لأن صفات الله فى الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عَصَوا . ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالحنا نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أنزله الله من قيم هو لصالحنا حرباً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خصَّ الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر ؟ وأقول : لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت الشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام فى أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً فى بلاد باردة إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، والذين يعيشون فى مناطق حارة فى أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الذين يعيشون فى المناطق الحارة بسهولة ، بينما يؤديه من يحيا فى المناطق الباردة بصعوبة ، ولتمام عدل الله بين خلقه تجده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية فى السنة الميلادية ، فلا يأتى الحج أبداً فى طقس واحد ، وبذلك تستوى كل البيئات وكل الناس فى أحكام الله .

وأيضا صوم رمضان لو كان يأتى فى الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثمانى أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون عشرين ساعة فى اليوم ، ولكن مجىء رمضان فى فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعتين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، فيتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون فى المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثمانى أو تسع ساعات يومياً .

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام ، أى أن رمضان يأتى مرة فى يناير ومرة فى فبراير ومرة فى مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون فى الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون فى الشتاء ويومه قصير . والذين يعانون من الصوم فى حرارة الجو ، يصومون أيضاً فى برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج فى شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويُسْراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين .

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذى ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفى ، لماذا ؟

لأن القمر نراه أياماً ، ولكننا لا نراه فى أيام المحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لضاع منا الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا فى أوقات غير متساوية ؛ فعندما يكون هلالاً لايظهر للعين فى الأفق إلا دقائق معدودة ،

ولكن الشمس تشرق كل يوم فى وقت محدد، وتغيب كل يوم فى وقت محدد ، وهى بضوئها ظاهرة للناس كل الناس من الشروق إلى الغروب ، فلا يجدون مشقة في رؤيتها . ولذلك فربْطُ الصلاة بالشمس فيه يُسْر التكليف ودوامه ، وكما قال رسول الله ﷺ : " الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين "[1] وهى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن تقال مرة واحدة في العمر ، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً . إذن فهى عماد الدين ، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض ، فالصبح فى دولة قد يكون ظهراً فى دولة ثانية ، وعصراً فى دولة ثالثة ومغرباً في دولة رابعة وعشاء في دولة خامسة ؛ وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول العالم ، وهكذا تكون في كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض ، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة فى كل الزمن فى كل بقاع الأرض . وهكذا يرتفع الأذان : الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله فى كل لحظة على الأرض .

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لكن له إشراقات نورانية ، أفاض الله عليه يقول: يا زمن وفيكَ كل الزمن ، أى يا فجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض . ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس ، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض فى كل

(١) حديث ضعيف . قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩) : « رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً » قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٤٧) : « قال الحاكم : عكرمة لم يسمع من عمر . قال: ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط: إنه غير معروف» . وقال النووي في التنقيح: منكر باطل . ورده ابن حجر في التلخيص (١/ ١٧٣) : وليس كذلك ، بل رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتاب الصلاة بلفظ : « الصلاة عمود الدين » وهو مرسل رجاله ثقات .

ثانية ، ولا يوجد جزء من الزمن إلا والله معبود فيه بعبادات كل الزمن ، أي أنه في كل لحظة تمر تجد الله معبوداً بالصلوات الخمس على ظهر الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس .

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصلي لله في كل لحظة من الزمن ، فإننا نعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل جيل يأخذ من القرآن على قدر عقله ، فإذا ارتقى العقل أعطى القرآن عطاءً جديداً . وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها في الذهن كلما مر الزمن ، فتنتبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتي المستشرقون ليقولوا : إن في القرآن تناقضاً في الكونيات .

نقول لهم : مستحيل .

فيقولون : لقد جاء في القرآن :

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الشعراء]

ويقول :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ويقول :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... (٤٠) ﴾ [المعارج]

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمي جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هي النظرة العامة ، إذن فقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ صحيح ، ثم عرفنا أن الشمس

حين تشرق عندى ، تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ؛ لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة .

فإذا سأل أحدهم : لماذا تخصون القمر لحساب الزمن وتخصون الشمس لحساب اليوم ؟ نقول : إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهى النهار ، واختفاؤها عنك مرتبط بعلامة يومية ظاهرة وهى الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يراه إلا فى أوقات محددة .

بعض الناس يقول : إذا كان المقصود بهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - هو بيان الأشهر الأربعة الحرم ، فما فائدة باقى أشهر السنة ؟

ونقول : إنك لن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم إلا من خلال بيان وتوضيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضرورى أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم فى العام . وإلا كيف يمكن أن نميز هذه الأشهر وزمنها ؟ لابد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام فيه اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم . والأشهر الحرم منها ثلاثة متتابعة وشهر فرد ، والأشهر المتتابعة هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو الشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعنى أنها تتميز بخصوصيات ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه الشهور فى أى وقت من السنة لتركها لنا لنحددها بمعرفتنا فنختار

أى أربعة أشهر على هوانا ،لنمتنع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها فذلك خُصوصيات فيها . جاء البعض وقال: ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثنى عشر شهراً وجعل منها أربعة حرماً ، ونحن نريد أن نحارب في شهر المحرم فلنفعل ذلك ونمتنع عن القتال في شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدد الأشهر الحرم وهي أربعة كما حددها الله .

ونقول: إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله ﷺ لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثنى عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكنه ﷺ خصصها ؛ لأننا علمنا بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيئوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبى عليه الصلاة والسلام الذين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات [1] ، وأضاف المستشرقون تساؤلاً: إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فلماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه ، ولماذا اتخذ تسع زوجات ؟

ونقول: إننا إذا قمنا بعملية حسابية منصفة ، لوجدنا أنها ليست توسعة لرسول الله ﷺ وإنما هى تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول: إن رسول الله ﷺ أخذ تسع زوجات وأمته أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود، أى أنه إذا ماتت زوجاتك الأربع

(١) عن ابن عمر قال: أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة، فقال له النبى ﷺ: « خذ منهن أربعاً ». أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤)، وابن ماجه (١٩٥٣) والدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٦٩).
أما لفظ الإمساك والمفارقة فقد ورد فى حديث لابن عباس أخرجه الدار قطنى (٣/ ٢٦٩) . وفيه الواقدى وهو متفق على ضعفه.

أحلت لك أربع أخريات ، وإن ماتت واحدة أحلت لك أخرى ، إذن فأنت - كمسلم - عندك عدد لا معدود ، بحيث إذا طلقت واحدة أو اثنتين حلّت لك زوجة أو زوجتان أخريان ، فأنت مقيّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه . أما رسول الله ﷺ فقد نزلت فيه هذه الآية الكريمة :

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نجد أن التشريع ضَيّق على رسول الله ﷺ في المعدود . وكان استثناؤه عليه الصلاة والسلام في العدد للتشريع ، فقد كان الرسول ﷺ يتزوج بإرادة التشريع التي يشاؤها الله .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وعرفنا أن قوله سبحانه : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلَقَ الإنسان . فهي إذن مسألة من النظام الكوني الذي خُلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خلق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن ؛ لليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : أنهما خُلقا بحساب دقيق ، ويقول سبحانه :

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام:٩٦]

أى : أنه سبحانه يطالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشيء الذى تريد أن تتخذه حساباً لك ، لابد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت ؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهى تعطيك الزمن الدقيق . إذن : فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس .

وقبل أن يُنزلَ الحق هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، كان العرب يعترفون بالأشهر الأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يغيِّرون فى مواعيدها ، فكانت الجماعة منهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا: نستبدل شهراً بشهر ، أى نقاتل فى الشهر الحرام ، ثم نأخذ شهراً آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ماداموا قد حافظوا على العدد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على المعدود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التى لابد أن نؤمن بها ونطبقها.

والإيمان - كما نعلم - هو انقياد وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيار لنا فيه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار البشرى ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأى شكل من الأشكال ؛ لأننا فى حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له: وكَّلْنَاكَ فى هذا الأمر ، وسنسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا سنسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم .

إننا لا نعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرفه .

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق فى علمه ، وواثق فى صدقه ، وواثق فى حكمته .

والمثال الحى المتجدد أمامنا هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله ﷺ أعلن أنه نبى الله ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضى الله عنه هذا القول ؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله ﷺ لم يكذب قط فى كل الأحداث السابقة ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء ؟ [1] طبعاً هذا غير معقول .

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوى لك إلا إذا كانت هناك مقدمات أثبتت أنه أعلى منك فى ناحية معينة ، صحيح أنه مساويك فى الفردية وفى الذاتية ، ولكنه أعلى منك علماً فى المجال الذى يتفوق فيه . فما يقوله تنفذه بلا نقاش لأنك وثقت فى علمه . وأنت إذا مرضت - لا قدر الله - وكان هناك طبيب تثق فى علمه وقال لك : خذ هذا الدواء ؛ أتناقشه أو تجادله ؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش .

فإذا سألك أحدهم : لماذا تتناول هذا الدواء ؟ تقول : لقد كتبه لى الطبيب الذى أثق فيه . وهذا يكفى كحيثية للتنفيذ.

(١) جاء هذا فيما وقفت عليه خاصاً بحديث الإسراء ، وقد سبق تخريجه ، وهو حديث عائشة قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سمى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٦٢) وصححه وأقره الذهبى .

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذى أعدَّ لنا هذا الكون وأنزل إلينا منهجاً وطالبنا أن نُسلمَ له وجوهنا ، وأن نفعل ما يأمرنا به فى كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرزاق ، وعنده كنوز السماوات والأرض . أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسْلمَ زمامنا له ونفعل ما يأمرنا به ؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد: لماذا نتبع هذا المنهج ؟ نقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه . وهذا هو الإسلام الحقيقى ؛ أن تسلم اختيارك فى الحياة لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى قَيِّم على كل أمور حياتنا ، والدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فمادام الله سبحانه وتعالى قد قال ، فنحن نفعل . إذن : فالدين قَيِّم علينا . والدين قَيِّم أيضاً على غيره من الرسالات السماوية ، أى مُهَيْمِنٌ عليها ، وفى هذا يقول الحق:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... (٤٨)﴾ [المائدة]

حددت الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحذرت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فنرى الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب.

نقول: إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْذاً لهِمَمِ المقاتلين ضد الكفر والظلم ؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكنك تمتثلِ لأمر الله فى وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذى يحدثه الباطل فى تحديه

للنفس المؤمنة ، فإذا انتهت الأشهر الحرم كنت أكثر حماسة . تماماً كالإنسان الحليم الذى يرى إنساناً يضايقه باستمرار فيصبر عليه شهراً واثنين وثلاثة ، فإذا نفد صبره كان غضبه قوياً شديداً ، وقتاله شرساً ، ولذلك قيل : « اتقوا غضب الحليم » ؛ لأن غضبه أقوى من غضب أى إنسان آخر . وكذلك يكون حلم المؤمن على الكافر فى الأشهر الحرم ؛ شحذاً لهمته إذا استمر الباطل فى التحدى ، وفى هذا تحذير للمسلمين من أن تضعف فى نفوسهم فكرة القتال وعزيمتهم فيه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

وكلمة ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا سبقها أمران : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ فإلى أى طرف ترجع ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا ؟ هل تُرجعها إلى المؤمنين المقاتلين ، أم إلى المقاتلين من الكفار ؟ وهذا إثراء فى الأداء القرآنى فى إيجاد اللفظ الذى يمكن أن نضعه هنا ونضعه هناك فيعطيك المعنى .

ولكن هل يريدنا الحق أن نقاتل المشركين حالة كوننا - نحن المؤمنين - كافة ؟ أم نقاتل المشركين حالة كونهم كافة ؟ . إن « كَافَّةً » كما نعرف لفظ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى ، فالرجل كافة ، والرجلان كافة ، والقوم كافة ، وهى مأخوذة من الكف . وتطلق أيضاً على حافة الشيء لأنها منعت امتداده إلى حيز غيره . وفى لغة من يقومون بحياكة الملابس يقال : « كافة الثوب » حين يكون الثوب قد تنسل ، فيقوم الحائك بمنع التنسيل بتكفيف الثوب .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى : يـٰأيها المؤمنون كونوا جميعاً فى قتال المشركين . وهى تصلح للفرد ، أى : للمقاتل الواحد ، وللمقاتلَيْن ، ولجماعة المقاتلين .

وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ذلك أن الباطل يتجمع مع الباطل دائماً ، والمثال الواضح فى السيرة أن يهود المدينة تحالفوا

مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل يجتمع مع بعضه البعض فاجمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك.

ويقول الإمام على كرم الله وجهه : « أعجب كل العجب من تضافر الناس على باطلهم وفشلكم عن حقكم »[1] ويتعجب الإمام على رضى الله عنه من أن أهل الحق يفرطون فى حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم . ويعطينا القرآن صورة من تجمع أهل الباطل فى قول اليهود لكفار مكة :

﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ... ﴿٥١﴾﴾ [النساء]

أى أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه[2]، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله ﷺ سيأتى بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين : لقد أظل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك فى كتب أهل الكتاب نبأ رسول الله وأوصافه وزمانه . وعندما تحقق ما فى كتبهم كفروا به واجتمعوا مع أهل الباطل.

وهنا يوضح لنا الحق : ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلابد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

---

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال : « فيا عجباً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، فقبحاً لكم وترحاً ، حين صرتم هدفاً يرمى ، وفيئاً ينتهب ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْنَ ولا تَغْزُونَ ، ويعصى الله وترضون » انظر خطبته بكاملها فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيقى . نشر دار الروضة – القاهرة .

(٢) وذلك أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد فقال أبو سفيان : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد . ذكره القرطبى فى تفسير الآية ٥١ من سورة النساء .

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

إذن : فالله يأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين ، ولأن الله مع الذين آمنوا ؛ لذلك فهو ينصر المؤمنين ، وإذا وُجِدَ الله مع قوم ولم يوجد مع آخرين ، فبأيُّ الكفتين أرجح ؟ لابد من رجحان كفة المؤمنين . ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

والعلم - كما قلنا - حكم يقين عليه دليل ، أي لا يحتاج إلى دليل ؛ لأن العلم هو أن تأتي بقضية غير معلومة ، ثم تقيم الدليل عليها لتصبح يقيناً .

وإذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فالعلم هنا ينتقل من علم يقين إلى عين يقين . والعلم - كما نعرف - قضية معلومة في النفس يؤيدها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل . فإذا علمت بشيء أخبرت به ، ويقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك .

والمثال : حين قيل لأبي بكر رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ قال : إنه أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به إلى السماء السابعة ، هنا قال الصدِّيق : إن كان قد قال فقد صدق [1] ، وكانت هذه هي ثقته في القائل ، وهو يستمد منها الثقة فيما قال وروى .

وحينما أخبر رسول الله ﷺ سيدتنا خديجة رضي الله عنها بخبر الوحي وأبدى خوفه مما يرى ، قالت : « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » [2] ، وهي بذلك قد أخذت من المقدمات حيثيات الحكم وكانت أول مجتهدة في الإسلام عملت بالقياس . فقد قاست الحاضر بالماضي .

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٩٠ .

(٢) حديث بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها . أخرجه البخاري في صحيحه (٣، وستة مواضع أخرى) ومسلم في صحيحه (١٦٠) واللفظ للبخاري .
- تحمل الكل : أي تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق .
- تكسب المعدوم : تعطي المعدوم مالاً مالاً ، والمعدوم مكارم وأخلاقاً أخلاقاً حسنة طيبة .
- تقري الضيف : أي أنك كريم جواد تطعم الضيف طعام القرى .
- تعين على نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

وعندما يقول الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيكفينا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً فى نفوسنا، وهناك علم يقين يأتيك ممن تثق فى علمه وصدقه، وأنت إن رأيت الشيء الذى أخبرت به وشاهدته يصبح عين يقين، فإذا اختبرته وعشت فيه يصبح حقَّ يقين.

وحين قال الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم يقين ، أو عين يقين ، أو حق يقين ؛ لأنهم شاهدوا ذلك فى المعارك حين كانوا قلة ، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية - لأن الله هو القائل - أخذه علم يقين . والذى أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين ، والذى أخذ الكلام كأنه عايشه فهذا عين يقين ، ولكى تعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۞ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ ﴾ [التكاثر]

وهذه أولى الدرجات: علم يقين؛ لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۞ ﴾ [التكاثر]

أى : أنكم فى الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين ، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أى مشاهدة بالعين . وفى هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين وعين اليقين ، ففى الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم ، ويرى الناس - كل الناس ، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم ، وهم يمرون فوق الصراط ، ويرونها مشتعلة متأججة ،وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها ، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه ؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب،

وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن : الحمد لله الذى أنقذنى من النار . وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ... (١٨٥)﴾ [آل عمران]

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل :

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ [مريم]

ويَرِدُ الشيء أى يصل إليه دون أن يدخل فيه [1] ، ويقال : ورد الماء أى وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر ؛ لأنه يُعذب فيها .

وقد ضربت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارئ أنها مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هى علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو

---

(١) اختلف الناس فى الورود على أقوال :
١ - الورود : الدخول . عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الورود الدخول ، لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٧) وصححه وأقره الذهبى .
٢ - الورود : الممر على الصراط . ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط .
٣ - الورود : ورود إشراف واطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أشرف عليه لا أنه دخله .
٤ - ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا ، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها .
٥ - الورود : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها من قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى ، واحتجوا بحديث ابن عمر « إذ مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » .
وقد جمع الإمام القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال : ظاهر الورود الدخول ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً

يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين .

وفي سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة في سورة الواقعة ، فقال :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة]

وحق اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر في حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل في حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكابر في واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « وحينما شهرت سيفي لأقصف رأس فلان ؛ وجدت شيئاً سبقني إليه وقصف رأسه »[1] أي : هناك من شاهد ذلك بنفسه .

وبعد ذلك يعطي الله الحكم فيمن يُغَيِّر الأشهر الحرم أو يُبدلها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾

(١) لم أقف على أثر عمر رضي الله عنه هذا رغم طول بحث ، ولكن وقع من حديث أبي واقد الليثي قال : « إني لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي » ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٧/ ٣١٣) وعزاه لابن إسحاق .

والنسيء هو التأخير ، فكأنهم إذا ما دخلوا في قتال وجاء شهر حرام قالوا : ننقله إلى شهر قادم ، واستمروا في قتالهم ؛ وهم بذلك قد أحلُّوا الشهر الذي كان محرماً وجعلوا الشهر الذي لم تكن له حرمة ؛ شهراً حراماً ، وهنا يوضح الحق سبحانه أن هذا العمل زيادة في الكفر ؛ لأنه أدخل في المحلل ما ليس منه ، وأدخل في المحرم ما ليس منه ؛ لأن الكفر هو عدم الإيمان فإذا بدَّلتَ وغيَّرْتَ في منهج الإيمان ، فهذا زيادة في الكفر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ و﴿ يُضَلُّ ﴾ هنا مبنية للمجهول ؛ ومعنى ذلك أن هناك من يقوم بإضلال الذين كفروا ، وهذه مهمة الشيطان ؛ لأن هناك فرقاً بين الضلال والإضلال ، فالضلال في الذات والنفس ، أما الإضلال فيتعدى إلى الغير ، فهناك ضال لا يكتفي بضلال نفسه ، بل يأتي لغيره ويضله ويغويه على المعصية بأن يزينها له . ولذلك هناك جزاء على الضلال ، وجزاء أشد على الإضلال ، فإذا كان هناك إنسان ضال فهو في نفسه غير مؤمن ، أي أن ضلاله لم يتجاوز ذاته ، ولم ينتقل إلى غيره . ولكن إذا حاول أن يغري غيره بالضلال والمعصية يكون بذلك قد ضلَّ وأضلَّ غيره . ويتخذ بعض المستشرقين هذه القضية مطعناً في القرآن-بلا وعي منهم أو فهم- فيقولون : إن القرآن يقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ⦗١٨⦘ ﴾ [فاطر]

ثم يأتي في آية أخرى فيقول :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ... ⦗١٣⦘ ﴾ [العنكبوت]

فكيف يقول القرآن : إن أحداً لا يتحمل إلا وزره ، ثم يقول : إن هناك من سيتحمل وِزْره ووِزْر غيره ؟

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا المعنى ، فالأول : هو الضَّالُّ الذي يرتكب المعاصي ولكنه لم يُغْرِ بها غيره ، أي : أنه عصى الله ولم يتجاوز المعصية . أما الثاني : فقد ضلَّ وأضل غيره . . أي : أنه لم يكتف بارتكاب المعصية بل أخذ يغرى الناس على معصية الله . وكلما أغرى واحداً على المعصية كان عليه نفس وِزْر مرتكب المعصية .

وهنا يقول الحق : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ وطبعاً التحليل والتحريم هنا حدث منهم لظنهم أن هذه مصلحتهم ، أي أنهم أخضعوا الأشهر الحرم لشهواتهم الخاصة ، وخرجوا عن مرادات الله في كونه ، يوم خلق السموات والأرض .

ولكن لماذا يُحِلُّونه عاماً ويُحرِّمُونه عاماً ؟ تأتي الإجابة من الحق: ﴿ لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي : ليوافقوا عدة ما أحله الله حتى يبرروا ويقولوا لأنفسهم : نحن لسنا عاصين ، فإن كان الله يريد أربعة أشهر حرم ، فنحن قد التزمنا بذلك ! ولكن تشريع الله ليس في العدد فقط ولكن في المعدود أيضاً ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ الأشهر الحرم [1] .

وكان عمرو بن لحي أو نعيم بن ثعلبة هما أول [2] من قاما بعملية النسئ هذه ، فأحلَّ شهر المحرم ، وحرَّم غيره .

وهؤلاء الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون أن هناك أربعة أشهر حرم بدليل أنهم أحلوا وحرموا . ولو لم يعرفوها ما أحلوا ولا حرموا ، ولكن هم أرادوا أن يُخضعُوا تشريع الله لأهوائهم . وهذا هو المغزى من تحليل

(١) عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » . أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٧) ومسلم في صحيحه (١٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء في تحديد أول من نسأ الشهور على العرب ، فكونه عمرو بن لحي هو قول ابن عباس . أما كونه نعيم بن ثعلبة فهو قول الكلبي . وقد قال ابن إسحاق : إنه القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٥٧) وانظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٠٦٤) والقلمس في اللغة هو : الرجل الداهية . انظر لسان العرب .

شهر المحرم وتحريم شهر آخر ، وأرادوا بذلك إخضاع مرادات الله لشهوات نفوسهم ؛ لأن المحرم ثابت فيه التحريم ، وهو شهر حرام سواء قام الإنسان بتأجيله أم لم يؤجله ، فهو شهر حرام بمشيئة الله لا مشيئة الناس. ولذلك حكم الحق سبحانه على النسيء بأنه زيادة في الكفر ؛ لأنك حين تؤخر حرمة شهر المحرم إلى شهر غيره ، تكون قد قُمْتَ بعمليتين ؛ أحللت شهراً حراماً وهذا كفر ،وحرمت شهراً حلالاً وهذا كفر آخر . .أي :زيادة في الكفر . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وقد حكم الله عليهم بالكفر بأنهم أحلوا ما حرمه الله .

ثم يقول الحق : ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ والتزيين : هو أمر طارئ أو زائد على حقيقة الذات مما يجعله مقبولاً عند الناس ، فالمرأة مثلاً لها جمال طبيعي ، ولكنها تتزين بأن تبالغ في إظهار مفاتنها حتى تكون أجمل في عيون الرجال ،هذا هو التزيين . إذن : فالتزيين تغيير في المظهر وليس في الجوهر . وهناك تزيين في أشياء كثيرة ، تزيين في الفكر مثلاً ، بأن يكون هناك استعداد للقتال فيأتي القائد فيزين للمقاتلين دخول المعركة ، ويقول : أنتم ستنتصرون في ساعات ، ولن يصاب منكم أحد وسيفرّ عدوكم ؛ هذا تزيين محمود.

ولذلك أراد الحق أن يكشف لنا حقيقة التزيين الذي قاموا به حين حللوا حرمة الأشهر الحُرُم ، وكشف لنا سبحانه أن هذا لون من التزيين غير المحمود فقال : ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وما دام قد زُيِّن لهم السوء فهذا العمل قد خرج عن منطقة الهداية ، وخرج عن نطاق التزيين المحمود إلى التزيين السيئ . وما داموا قد خرجوا عن هداية الله فلن يعينهم الله ؛ لأنه سبحانه لا يعين من كفر ، ولا يعين من ظلم ، ولا يعين من فسق.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنهم بكفرهم قد أخرجوا أنفسهم عن هداية الله ، فالحق سبحانه لم يمنع عنهم الهداية ، بل هم الذين منعوها عن أنفسهم بأن كفروا فأخرجوا أنفسهم عن مشيئة هداية الله لهم ، وهذا ينطبق فقط على هداية المعونة ، ونحن نعلم أن لله سبحانه هداية دلالة وهداية معونة ؛ هداية الدلالة هى للمؤمن وللكافر ، ويدل الله الجميع على المنهج ، ويريهم آياته ،وتبلغ الرسل منهج السماء الذى يوضح الطريق إلى رضاء الله والطريق إلى سخطه وعذابه . فمن آمن بالله دخل فى مشيئة هداية المعونة ، فيعينه الله فى الدنيا ويعطيه الجنة فى الآخرة. أما من يرفض هداية الدلالة من الله ، فالله لا يعطيه هداية المعونة ؛ لأن الكفر قد سبق من العبد . وكذلك الظلم والفسق ، فيكون قد منع عن نفسه هداية المعونة بارتكابه لتلك الآثام.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة]

إذن : هم الذين قدّموا الكفروالظلم والفسوق، فمنعوا عن أنفسهم هداية المعونة التى قال الحق عنها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وبعد أن طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يواجهوا الباطل جميعاً ، كما يجتمع الباطل عليهم ويقاتلهم جميعاً . يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

وساعةَ تسمع ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهذا نداء خاص بمن آمن بالله ؛ لأن الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن . ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعةَ تسمع : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به ؛ لأنك أنت الذي آمنت باختيارك ، ودخلتَ على الإيمان برغبتك ، فالحق سبحانه لم يأخذك إلى الإيمان قهراً ، ولكنك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لك : ما دُمْتَ قد آمنت بي إلهاً قادراً قيُّوماً ، له مطلق صفات الكمال ، فاسمع مني ما أريده لحركة حياتكَ.

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل في الإيمان ولا ينفذ المنهج [1] ، ولا يحسب أحد أنه قادر أن يضر الله شيئاً ، وسبق أن ضربنا المثل بالمريض الذي يختار أبرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأجرى الطبيب الكشف على المريض ، وحدد الداء وكتب الدواء ، ولكن المريض بعد أن خرج من العيادة أمسك بتذكرة الدواء ومزقها ، أو أنه اشترى الدواء ولم يتناوله . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه ؟

(١) وفي هذا يقول عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

إن الطبيب لن يتأثر ولن يضره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذي سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويُغرقها فى الشقاء ؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان نجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه الشقاء ، بل يمتلئ بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فلن يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء ويهلك نفسه .

وحين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وهذه التكليفات لَمْ تأتِ مبنية للمعلوم ، فمن الذى يكتب ؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : يأيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم . ولماذا يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ؟. ونقول : لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين

آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف [1] ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك تم فى نفس اللحظة التى دخلت فيها باختيارك فى الإيمان . وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتِبتْ علينا باختيار كل منا ، فمن لم يَخْتَرْ الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أحكام الإيمان ؛ لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ؛ وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان .

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من الله ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كَلَّف . ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوى للمساوى ، فإن ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب فى الدواء وفوائده ؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كلية الطب واقْضِ فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تَعَالَ وناقشنى .

إذن : فأنت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يخطئ . أما إذا جئنا بمجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض احتار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر ؛ لأنه مُسَاوٍ له فى الفكر والثقافة والعلم إلى آخره ، لكن إنْ أردتَ أن تسأل عن الحكمة فى تكليف من الله فلن تجد مساوياً لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة .

---

(1) ويتضح هذا من حديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٦) ومسلم (١٩) . قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى (٣/ ٣٥٩) : « قوله : « فإن هم أطاعوا لك بذلك » أى شهدوا وانقادوا . . واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دعوا أولاً إلى الإيمان فقط ، ثم دُعوا إلى العمل » .

إذن : فالمكلف لابد أن تكون له منزلة سابقة على التكليف ، ومنزلة الحق أنك آمنت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ؛ ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فريضة الصوم عن المريض في قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... (١٨٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسْمَح معها بالصوم.

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شئ غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ؛ لأن لحم الخنزير ملئ بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قَلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر.

ونعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، وتجد كلمة : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ تأتى حين تتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار

أمر متوقع وتقتضيه الحال ؛ لأن المؤمنين حين يقاتلون الكفار إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدى الكافرين فقد ينحرف منهم من تراوده نفسه على الانحراف ، أما إن وجد من يضرب على أيدى الكفار ، فإنه بفعله هذا يربيب فى المؤمن إيمانه ؛ لأنه يرى عدوه وهو يتلقى النكال . كأن تقول للتلميذ : ما لك تهمل فى مذاكرتك وقد قَرُبَ الامتحان ؟ أى : أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لابد أن يجتهد الطالب فى المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فنحن نتعجب من سلوكه ؛ لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستنكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستنكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم .

ويتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال ؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت . ويعطى ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين .

إذن : فَلكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً ؛ لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق : ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار هذا

الأمر موطناً للتعجب ؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال في سبيل الله أو أن يتكاسلوا.

وقوله سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ من «النفرة» وهى الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً في مكانه ، قد يأتي أمر يهيجه فيقوم ليفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنت مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط في بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنطلق من مكانك لتجذبه بعيداً ، ومنه النُّفْرة التي تحدث بين الأحباب الذين يعيشون في وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوِّل هذا الود إلى جفْوة.

إذن : فكلمة ﴿ انفِرُوا ﴾ تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعي الذي يجب أن يكون ؛ لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجهتهم . وقول الحق سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ يدل على الاستفزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ .

والثقل معناه : أن كتلة الشيء تكون زائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشيء ثقيل فهذا يعني أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما التثاقل فهو عدم موافقة الشيء لطبيعة التكوين ، كأن تقول : فلان ثقيل أي أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة.

ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة ، أي : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تتصنع أنك غير قادر ، كأن يكون هناك - على سبيل المثال - شيء وزنه رطل ، ثم تدّعي أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أى : تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم.

وهكذا نعرف أن الموقف يقتضى النفرة ليواجهوا الكفر ؛ لأن المنهج الذى ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل ، فالنفرة تكون فى سبيل الله ، والمقابل فى سبيل الشيطان أو فى سبيل شهوات النفس.

لقد تحدث العلماء فى المسائل التى تجعل الإنسان يُقبِلُ على المعصية ، وهى النفس التى تُحدِّث الإنسان بشىء ، فالإنسان يقبل على المعصية بهذين العاملين فقط . فما الفرق بين الاثنين ؟ وكيف يتعرف الإنسان على ذلك ؟ قال العلماء : إذا كانت النفس تُلحُّ عليك أن تفعل معصية بعينها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تُلحُّ عليك لاقتراف نفس المعصية لتحقق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمَّارة بالسوء.

ولكن الشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمنهج الله على أى لون ، فإذا استعصى عليه أن يجذبك إلى المال الحرام ، فهو يزين لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من ناحية الخمر . إذن : فهو يريدك عاصياً بأى معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التى تشتهيها. وهذا هو الفرق.

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون منهج الله فى الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتثاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو إغراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ والرضا هو حب القلب ، فيقال : فلان راضٍ لأنه مسرور بالحال الذى هو فيه.

ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال فى سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر فى داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة . ولكن المنطق الإيمانى يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية ، فلابد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء ؛ لأنه رضى بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله.

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة فاحصة ، تجد أنها متغيرة متبدلة ، فالصحيح يصبح مريضاً ، والغنى يصبح فقيراً ، والقوى يصبح ضعيفاً.

إذن : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر ؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت ؛ تقهرك ولا تستطيع أنت أن تقهرها . فإن رضيت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى غد.

ولهذا ينبغى ألا تؤخر تنفيذ ما يكلفك به الله ؛ لأنك الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا [١]. كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلبك حريتك أو مالك ، بل هو يسلبك ويعطيك فى نفس الوقت. فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرجَ الزكاة ، قد تعتقد أن هذا يُنقصُ مالك [٢]، أو تقول : هذه غرامة. نقول : إن هذا فى ظاهر الأمر قد

(١) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى . وقد أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً بسند صحيح ، قاله ابن حجر فى الفتح (١١/ ٢٣٥) .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩).

يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك ويُنميه [١] فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذي يأخذ منك الآن وأنت غني ، هو بذاته الذي سوف يعطيك إن افتقرتَ ولجأت إلى الناس. فإذا كان الحكم الذي سيأخذ هو الذي سيعطي تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها ، وساعةَ تعطي أنت الذي لا يملك، لابد أن تتذكر أنه قد يأتي عليك يَوْمٌ لا تملك فيه.

وكلمة دنيا بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعي الذي ينطبق عليها ؛ لأن "الدنيا" مقابلها "العليا" . والحياة العليا تكون في الآخرة . فإذا كانت هذه هي الحياة الدنيا . فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خَوَراً في العزيمة ؟

والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدي أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطراً . وذلك من غزارة وجود العطر الذي كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذي كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أخشن منه ، وامتنع عن العطر ، أي : أن معاييره قد تغيرت وليس في هذا أدنى تناقض ، بل هو علو في الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسي إلى الإمارة فقلت لها : اقعدي يا نفسُ ، فلما نلتُهَا اشتاقت نفسي إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك ، فلما نلتُها ؛ أي نال الخلافة ، اشتاقت نفسي إلى الجنة فسلكتُ كل طريق يؤدي إليها [٢].

(١) انظر إلى قول رسول الله ﷺ : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله تعالى بيمينه ، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه (مهره) أو قلوصه (الفتية من الإبل) حتى تكون كالجبل أو أعظم » وهو حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ، أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤).
(٢) أورد هذا الأثر أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

وهكذا نعرف أن سلوكه رضى الله عنه لم يكن فى تناقض بل تعلية للصفقة الإيمانية . كان دائماً فى علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققتْ أراد أن يعلوَ فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً فى عُلُوٍّ.

وأقول : ليس فى سلوكه أدنى تناقض ؛ لأن علماء النفس يفسرون التناقض فى السلوك البشرى على أنه اختلاف فى المقارنة ، فالإنسان يقارن بشئ ثم يقارن بشئ آخر وهكذا ؛ لأن كل شئ فى الدنيا نسبى . ومعنى النسبية أن ينسب الشئ لما حوله ، فإذا قلت : إننى أسكن فوق فلان ، فأنت فى نفس الوقت تسكن تحت فلان الذى يعيش فى الطابق الذى يعلوك.

إذن : فأنت فوق فلان وتحت فلان فى نفس الوقت ، فلا تأخذ نقطة وتغفل عن الأخرى ، وهذا اسمه "معنى إضافى" أى : أن المعانى لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شئ تقاس به ، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التى تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت إلى الدنيا ؛ تجد أن الحق سبحانه أسماها : دُنْيا ولم يجد اسماً أقلَّ من هذا ليسميها به ، لماذا ؟ لأنك تنعم فى الدنيا على قدر وجودك فيها ، أى على قدر عمرك ، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة ، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل . ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذى عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها ، والذى عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر.

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال . وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع فى الدنيا ؛ متاع صاحب الملايين ، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه تتحقق. إذن : فنعمة الدنيا إما أن تتخلع منك أو تتخلع أنت منها.

فإذا جئتَ إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لايزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع في الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه . فكأن المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه . فمثلاً : إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به ، تكون في ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك ؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك في الحقيقة فضَّلْتَ نفسك على الفقير ؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف ، فمَنْ منكما الذي استفاد ؟ ومَنْ منكما الذي انتفع ؟ إنه أنت.

ولذلك تجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء ، ويُعْلِي فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى. فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفي حقيقته أنك قد أخذت . وأنت حين تعطي إنساناً مساوياً لك كأن تقدم له هدية في مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها في مناسبة أخرى . إذن : فالعطاء مُتَساوٍ ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوي ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكِّنه من أن يردها لك. لكن الحق سبحانه يقول:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...(٢٤٥)﴾ [البقرة]

إذن : فحينما تعطي ابتغاء وجه الله فأنت لاتحصل على عطاء مُسَاوٍ لما أعطيت . لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذي يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن ينفد عطاؤه لك ؛ لأنه دائم القدرة ، ولن يأتي عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد

لك ما أعطيت ؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض ؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فضَّلْتَ الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهى مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفتَ أن الذى يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطي وتعمل طلباً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ أى : أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة .

وكلمة ﴿ مِنَ ﴾ تدل على البدل فى قوله : ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء ، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك ، فأنت تقول : اشتريت الشيء بكذا درهم ، أي : تركت الدراهم مقابل شرائك الشيء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه : ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ والمتاع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حى مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك مَنْ حياتهم كلها تعب ، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة في الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتياً ؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف ؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء - حين يرون فى نعمة الله عليهم ما يكدر حياتهم - يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السطحى التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة . العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش فى دنيا

أغيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففى الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائماً.

وهَبْ أن إنساناً وصل إلى القمة التى لا يوجد أعلى منها . نقول له : لا داعى أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء ، ولا تنس أنك تعيش فى دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لغيرك ما وصلتَ أنت إلى القمة ؛ لأن مَنْ كان عليها سقط فصعدتَ أنت .

إذن: فمعنى هذا أنك وإن وصلتَ للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغير . وما دمتَ قد وصلت إلى أعلى ما يمكن ، فالتغيير الوحيد الذى يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل ؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعُدْ بعدها شيء تصعد إليه . فالتغيير المتوقع لابد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « ترقَّبْ زَوالاً إذا قيل تَمّ » ، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن المصائب فى الأموال والأنفس من تمائم النعمة ، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم ؛ لأنها إن تمت تزول ؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلابد أن تزول.

وسبحانه حين يقول: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول: شيء فى شيء . فأيهما يكون أكبر ؟ إنه الذى يدخل فيه الشيء الآخر ، فإذا قلنا : فلان فى البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا : محمد فى جدة أو فى المملكة السعودية أو فى مصر ؛ يكون هناك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ معناه: أن متاع الدنيا يتوه فى متاع الآخرة ؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوى متاع الدنيا ويزيد ، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك أن سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية . فإذا زاد الحق سبحانه وقال: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة.

لكن هذا الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين فى الدنيا .

ومثال هذا : أنك تجد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتجده يعتقد أن المتاع لايمكن أن يزيد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له: لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

وإذا كان غير المتمتع بشىء من متاع الدنيا ينظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك ؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش فى الجنة ، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له: لا ، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذى لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين فى العالم . فقد يعيش إنسان فى قصر ضخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريده

أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش في درجة الحرارة التي يريدها داخل قصره ، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر ؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسي إلى المكان الذي يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تشبه الحلم الجميل .

إذا عاش إنسان في هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له : لا تنبهر ، فهذا المتاع الذي تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل .

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذي ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ يدل على أن فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا تجد الحق سبحانه وتعالى يُنَفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم : لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم في الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففي هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله ﷺ يقول : « لو أن ابن آدم أعطي وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطي ثانياً أحب إليه ثالثاً »[1]

أي : أن الإنسان الذي امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع في امتلاك الوادي الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٣٧) عن عبد الله بن الزبير .

لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده . ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخلق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى.

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يَجدُّ فى دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل . أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل فى معاناة بقية حياته.

إذن : فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد ؛ الأول : أعطى نفسه مستقبلاً مريحاً ممتداً ، وصار قمة من قمم المجتمع ، والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذن : فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط ؛ لأن العالم لا ينتهي عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق ، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة.

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾

[التوبة]

نزل في غزوة تبوك [١] ، وهي أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقتْها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين في بدر أو في مكة ، أو مع اليهود في مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك في محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية . وحينما بدأ تجهيز الجيش ليذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تثاقل المسلمون . وهنا يبرز استفهام : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حزنوا حين انتصر الفرس على الروم ؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يذهبون ليحاربوهم ؟

نقول : نعم ؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف في قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام.

ولذلك فإن المؤمن الحق ينفعل للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى سبيل المثال ، نجد قلب سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ،

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٦٦) : « لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلّف من تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ».

بينما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مملوءاً قوة وحزماً ، انظر إلى موقف الاثنين عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا الزكاة ؛ وقرر أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين ؛ لأنهم أنكروا ركناً من أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب ضد رأى أبى بكر وقال : يا أبا بكر أتحارب أناساً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال أبو بكر : أجبار يا عمر فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟ و الله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه [1] .

وهكذا انقلبت المواقف ؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبى بكر الذى كان مشهوراً بالرقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر باللين ، وهو المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذى قال كلمة أبى بكر لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر.

ولكن الناس قالوا عن عمر الشديد : « قد لآنَ قلبه بينما اشتد قلب أبى بكر » هذه هى المواقف الإيمانية التى تملأ نفس كل مؤمن . فالذى يصنع موقف المؤمن هو إيمانه لا طبعه ؛ ولذلك قال الحق فى وصفه للمؤمنين :

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤)﴾ [المائدة]

(١) عن ضبة بن محصن العنزى قال : « قلت لعمر بن الخطاب : أنت خير من أبى بكر فبكى وقال : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عُمْر عمر ، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : أما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى ، وقال بعضهم : لا نصلى ولا نزكى ، فأتيته ولا آلوه نصحاً . فقلت : يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم . فقال : جبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ، فبماذا أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو سحر مفترى ؟ » الحديث أورده المتقى الهندى فى منتخب كنز العمال (٤/ ٣٤٩) وعزاه للدينورى فى المجالسة ، ولأبى الحسن بن بشران فى فوائده ، والبيهقى فى دلائل النبوة ، واللالكائى فى السنة ،

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً في الوقت نفسه ؟ وكيف يوصف الشخص نفسه بأنه عزيز وذليل ؟ وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان فى شخص واحد ؟ لكنك تقرأ ما يطمئنك فى قول الحق:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩)﴾
[الفتح]

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم رحماء ، ولكى تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن المواقف الإيمانية هى التى تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحددها طباعه الخاصة والشخصية ، وهو يُكيِّف مواقفه حسب الموقف الإيمانى وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ، وذليل وعزيز .

ونعود إلى غزوة تبوك التي نزلت فيها الآية التى نتناولها بخواطرنا وإلى السؤال: كيف يحارب المسلمون الروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة الروم من الفرس ؟ ونقول: لقد حزن المسلمون لأن إلحاداً ينكر الألوهية قد انتصر على إيمان مرتبط برسالات السماء ؛ ولأن الروم - وهم نصارى - مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من الكفار ، إذن: فالمسألة قد أُخذَتْ من ناحية الوجود الإلهى . أما فى غزوة تبوك فقد أُخذَتْ من ناحية قبول المنهج الناسخ ومنع الدعوة له ، ولهذا تحول الموقف فى غزوة تبوك إلى عداء إيمانى ، وهذا هو السبب الذى أدَّى إلى الحرب [1].

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٨/ ١١١): «كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبى ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم».

فإذا نظرنا إلى الغزوة نفسها نجد أن تبوك تبعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التي قاتل المؤمنون فيها قتالاً شديداً . وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال .

إذن : فقد اجتمعت المشقة في هذه الغزوة ؛ مع حرارة الجو ؛ وبُعْد المسافة ، وكانت قوى المسلمين مُنْهكَة من غزوة حنين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال ؛ إلا هذه الغزوة فقد بيَّنها رسول الله ﷺ لصحابته قبل أن يغادروا المدينة ؛ لكي يستعدوا للمشقة التي تنتظرهم . وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس في ظل البساتين الموجودة في المدينة ويأكل من ثمارها . واستطاب - هذا البعض - الثمار والظلال ؛ لذلك تباطأوا في الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التي بعدها لتوضح وتُبيِّن العقوبة ، فقال الحق :

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

أي : إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله ينذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذر به ، فأنتم إن لم تنفروا مخافة العذاب المظنون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تنفذوا أمر الله بالنَّفْرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحر

الشديد ، وبين عذاب الله ، فالمؤمن سوف يختار - بلا شك - مشقة الحرب مهما كانت ؛ لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السفر ، وقسوة القتال لا يمكن قياسها بعذاب الله ؛ لأن العذاب الذى ينتظر مَنْ يتباطأ أو يفرُّ من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للزحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إذن : فلا تظنوا أنكم بتباطئكم ؛ وعدم رغبتكم فى القتال ستضرون الله شيئاً ؛ لأن الله قادر على أن يأتى بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير، لذلك يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]

فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة منهج الله بالبخل أو التخاذل ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والتضحية فى سبيل الله ؛ لأنه القادر فوق كل الخلق .

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو حيثية للأحكام التى سبقتها من قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظرى ، فالحق سبحانه يضرب لهم المثل العملى من الواقع الذى شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كفار قريش ليقتلوه فنصره الله عليهم ، فقال جل جلاله :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه: ﴿إِلاَّ تنصُرُوهُ فقد نصرهُ اللهُ﴾ وكعادتهم - كمشككين فى الإسلام - نجدهم يبذلون جهداً كبيراً فى محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها في القرآن الكريم فيقولون : إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكِّن أذهانكم من الجراءة اللازمة للبحث فى أساليبه ؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل. ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادى لا قداسة له فسوف تجدون فيه التضارب والاختلاف .

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث فى مجال النحو بالقرآن الكريم ، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء ، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هي جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، فهم قد أخذوا ظاهر اللغة العربية ، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم ، وقالوا: إن أساليب الشرط فى اللغة العربية تقتضى وجود جواب لكل شرط ، فإن قلت : إن جاءك زيد فأكرمه ، تجد الإكرام يأتى بعد مجىء زيد ، وإن قلت : إن تذاكر تنجح ، فالنجاح يأتى بعد المذاكرة . إذن: فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط .

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشككونا في القرآن . ونقول لهم : إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق في الأمر نجد أن الجواب سبب في الشرط ؛ لأنك حين تقول : إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح فلن يذاكر ، بل لابد أن يتصور الطالب في ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن : فالجواب سبب دافع في الشرط ، ولكن الشرط سبب في الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصُّور النجاح أولاً هو سبيل لبذل الجهد في تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة منفكة ؛ لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع .

وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ فعل مضارع ، زمنه هو الزمن الحالي ، ولكن الحق يتبع المضارع بفعل ماضٍ هو : ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ فهل يكون الشرط حاضراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً ؟ ونقول : إن المعنى : إلا تنصروه فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك . وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينفروا فتثاقلوا ، أوضح لهم سبحانه : أتظنون أن جهادكم هو الذي سينصر محمداً وينصر دعوته ؟ لا ؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل في مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر في الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفار مكة ، وكذلك نصره في بدر بجنود لم تروها ، إذن : فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هي الجواب ، بل هي دليل الجواب .

ونرى في قوله تعالى : ﴿ إلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، فـ ﴿ إِذْ ﴾ تكررت ثلاث مرات ، فسبحانه يقول :

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى: أننا أمام ثلاثة أزمنة : زمن الإخراج ، وزمن الغار ، والزمن الذى قال فيه رسول الله ﷺ لأبى بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وقد جاء النصر فى هذه الأزمنة الثلاثة : ساعة الإخراج من مكة ، وساعة دخل سيدنا رسول الله ﷺ مع أبى بكر إلى الغار ، وساعة حديثه مع أبى بكر .

ولسائل أن يسأل : هل أخرج الكفار رسول الله من مكة ، أم أن الله هو الذى أخرجه ؟ ونقول: إن عناد قومه وتآمرهم عليه وتعنُّتهم أمام دعوته ، كل ذلك اضطره إلى الخروج ، ولكن الحق أراد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذى أراده الكفار ، فهم أرادوا قتله ، وحين خرج ظنوا أن دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس ، فأخرجه الله لتنساح الدعوة ، وأوضح لهم سبحانه : أنتم تريدون إخراج محمد بتعنتكم معه ، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً ، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار . وقالوا: إن الهجرة توأم البعثة . أى : أن البعثة المحمدية جاءت ومعها الهجرة ، بدليل أن رسول الله ﷺ حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، بعد ما حدث له فى غار حراء ، قال له ورقة : ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن يتثبت من النبوة ، فقال رسول الله ﷺ : أَمُخْرِجِيَّ هم ؟ قال ورقة بن نوفل: نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِى [1]

إذن : فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله ﷺ بالرسالة ، لماذا ؟ لأنه ﷺ كان أول من أعلن على مسامع سادة قريش رسالة الحق والتوحيد.

(١) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، ومواضع أخرى)، ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .

ففكرة الهجرة مسبقة مع البعثة ؛ ولأن البعثة هى الصيحة التى دوَّت فى آذان سادة قريش وهم سادة الجزيرة . ولو صاحها فى آذان قوم ليسوا من سادة العرب لقالوا: استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صيحة البلاغ جاءت فى آذان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا فى تعذيب المسلمين ليقضوا على هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا ينصره بقريش فى مكة ؛ لأن قريشاً ألفَتْ السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى الإسلام ، لقال من أرسلَ فيهم : لقد تعصبتْ له قريش لتسود الدنيا كما سادت الجزيرة العربية . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا: لا . لقد كانت الصيحة الأولى فى آذان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام والانسياح الدينى لا من هذه البلدة بل من بلد آخر ؛ حتى لا يقال : إن العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان برسالة محمد ﷺ . ولكن الإيمان برسالة محمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ .

ويلاحظ فى أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » . وهذا يدلنا على أن رسول الله ﷺ لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكأن قومه أعنتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر ؛ لأن رسول الله ﷺ خرج وحده من بيته ؛ الذى أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه ضربة رجل واحد ، وينثر عليهم التراب فتغشى أبصارهم ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ينتظره فى الخارج [1]، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا من محمد ؛ لا بتآمر خفى ، ولا بتساند علنى . وهذا نصر من الله.

(١) ليس المعنى هنا أن أبا بكر رضى الله عنه كان ينتظر رسول الله ﷺ خارج البيت أو فى مكان قريب منه، ولكن المقصود أنه ﷺ خرج وحده من بيته ليلاً واخترق صفوف أربعين فتى قوياً قد شهروا سيوفهم لقتله إن هو خرج من بيته وكان وحده ، فالثابت فى السيرة أن أبا بكر كان فى بيته مع أهل بيته وقت الظهيرة وجاءه رسول الله ﷺ متخفياً وقال له : « إنى قد أذن لى فى الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله . فقال ﷺ : نعم . وتواعدا ثم خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر . أخرجه البخارى (٣٩٠٥) وأحمد (٦/ ١٩٨ ، ٢١٢) وأبو نعيم فى دلائل النبوة (ص ٢٧١) وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٧) .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، ويتأكد في الغار نصر آخر . ذلك أن قصاص الأثر الذي استعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خزاعة قد تتبع الأثر حتى جاء عند الغار ، وقال: هذه قدم محمد وهو أشبه بالموجود في الكعبة ، أي أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال: هذه قدم أبي بكر أو قدم ابنه وما تجاوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف: إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فإنهم لم يدخلوا الغار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن ، فمادامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله . لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك .

وجاء واحد منهم وأخذ يبول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب في قول أبي بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا .

فقال رسول الله ﷺ بفطنة النبوة: لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم [1] وهذا دليل على أن العربي كان يأنف أن تظهر عورته ، أو هي كرامة لمحمد ﷺ ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذها القارىء كما يأخذها ، وهي على كل حال فيض إلهامي لرسول الله ﷺ ، كذلك جعل الحق سبحانه العنكبوت ينسج خيوطه على مدخل الغار ، وجعل الحمام يبني عُشّاً فيه بيض ،

(١) قد جاء هذا في أحاديث فيها مقال ، فعند الطبراني من حديث أسماء بنت أبي بكر « فقال أبو بكر - لرجل مواجه الغار - : يا رسول الله إنه ليرانا . فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل هذا » فيه يعقوب بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . قاله الهيثمي في المجمع (٦/ ٥٤) وعند أبي يعلى الموصلي في مسنده من حديث أبي بكر الصديق قال ﷺ : « لو رآنا لم يستقبلنا بعورته » وفيه موسى بن مطير وهو متروك . وانظر فتح الباري (٧/ ١١)

وجعل سراقة بن مالك يقول : لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا الغار ، وإلا لكانا قد حطَّما عُشَّ الحمام ، وهتكا نسيج العنكبوت .

ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١]

ويظهر الإعجاز الإلهى هنا فى : أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله تجلَّتْ فى أن يجعل خيط العنكبوت أقوى من الفولاذ، وكذلك شاء الحق أن يبيض الحمام وهو أودع الطيور ، وإنْ أهيجَ هاج . وهذا نصر ، ثم هناك نصر ثالث نفسى وذاتى ، فحين قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، نجد رسول الله ﷺ يرد فى ثقة بربه : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] .

هذا الرد لا ينسجم مع سؤال أبى بكر ؛ لأن أبا بكر كان يخشى أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا مَنْ فى الغار ، وكان الرد الطبيعى أن يقال : «لن يرونا» ، ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى اللازم الأعلى ، فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، لأنه ما دام رسول الله ﷺ وأبو بكر فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ؛ فمن فى معيته لا تدركه الأبصار .

وتكون كلمة رسول الله ﷺ الذى تعوَّد أبو بكر منه الصدق فى كل ما يقول ، تكون هى الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله ﷺ : إنه أُسْرى به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء ، قال أبو بكر :

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) .

إن كان قد قال فقد صدق[1]. فحين يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر فيما يحكيه سبحانه: ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾، فلابد أن يذهب الحزن عن أبي بكر، وقد خشي سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقوباً، خشي أن يكون فيها حيات، أو ثعابين، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقوب؛ حتى لم يبقَ من الثوب إلا ما يستر العورة، فسدَّ الثقوب الباقية بيده وكعبه[2].

إذن: فأبو بكر يريد أن يفدي رسول الله ﷺ بنفسه؛ لأنه إن حدث شيء لأبي بكر فهو صحابي، أما إن حدث مكروه لرسول الله ﷺ فالدعوة كلها تُهدم. إذن: فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله ﷺ أن يُصابَ بمكروه.

ويأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ اختلف العلماء[3] في قوله تعالى ﴿ عليه ﴾، هل المقصود بها رسول الله ﷺ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر؟ وما دامت السكينة قد نزلت؛ فلا بد أنها نزلت على قلب أصابه الحزن. ولكن العلماء يقولون: إن الضمائر في الآيات تعود على رسول الله ﷺ، فالحق قال: ﴿ إلا تنصروه ﴾ أي محمداً عليه الصلاة والسلام، وسبحانه يقول: ﴿ فقد نصره الله ﴾ أي محمداً ﷺ، ويقول أيضاً: ﴿ إذ أخرجه ﴾ أي محمداً ﷺ، فكل الضمائر في الآية عائدة على رسول الله ﷺ.

(١) سبق هذا الحديث قريباً وقد خرجناه هناك، ومن حديث أبي الدرداء قال النبي ﷺ عن أبي بكر: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ (مرتين) إني قلت: يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت» أخرجه البخاري (٣٦٦١، ٤٦٤٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٧٦).

(٢) قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: «والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعي فخشي أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعل يضربنه ويلسعنه الحيات والأفاعي» سبق إيراد جزء منه من حديث ضبة بن محصن ص ٥١١٩.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٣٠٧٤) وابن كثير (٢/ ٣٥٨)، وقد رجح القاضي أبو بكر بن العربي أن سكينة الله إنما نزلت على أبي بكر.

ثم يأتي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ إذن: فلابد أن يعود الضمير هنا أيضاً على رسول الله ﷺ ، وأقول: ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهذا قول رسول الله ؛ ولابد أن قوله هذا يجعل السكينة تنزل على قلب أبي بكر . إذن : فالضمير هنا عائد على أبي بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقد رأى الكفار عُشّ الحمام وبيت العنكبوت ، وهذا ما منعهم من أن يروا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليس هذا هو المقصود - فقط - بالآية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعنكبوت والحمام مرئيان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا في الغار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات ، ولم تخطر على بالهم . ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقة بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﷺ وأبي بكر ، وهما في طريقهما إلى المدينة ، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه في الرمال [1] ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقال في آية أخرى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

إذن: فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله ﷺ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله . وكل شيء في هذا الكون من جنود الله ؛ فهو سبحانه

(١) قصة سراقة بن مالك بن جعشم أخرجها مطولة تامة البخاري في صحيحه (٣٩٠٦) معلقاً مجزوماً به من قول ابن شهاب الزهري من حديث سراقة ، وأخرجه أحمد موصولاً في مسنده (٤/ ١٧٦).

وتعالى الذي سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر [1] ، فكأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الكافر ليكون دليله في رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر في خدمة الإيمان ، وفي الوقت نفسه فكل ما رصدته قريش من جُعل [2] لمن يدلها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ .

الحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بقتل رسول الله ﷺ ، أو نَفْيه بإخراجه إلى مكان بعيد ، أو سجنه [3] ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ﴾ ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت في وقت ما في علُوّ . وإن كان عُلوها هو علو الزَّبد على الماء الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

[الرعد : ١٧]

---

(١) عن عائشة قالت : « استأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً هادياً خريتاً ؟ (أي ماهراً بالهداية) . . . وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . . . » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٣) . . وقد كان ماهراً فعلاً بدروب الطريق إلى المدينة . انظر تفاصيل الطريق الذي سلكه بهما في سيرة النبي لابن هشام (٢/ ١٠٤ - ١٠٨) .

(٢) الجعل : هو ما وضعه كفار قريش مكافأة لمن يدلهم على محمد من مال وغيره .

(٣) يقول عز وجل في هذا : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ومعنى يثبتوك : يجرحوك جراحة . . لا تقوم معها أو ليحبسوك

ولقد ضرب الله هذا المثل فقال:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]

أي: أن كل واد أخذ ما قدره الله له من الماء.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧]

وهذا تلاحظه عندما يحدث سيل، وتجده يأخذ معه القَشَّ والقاذورات التى لها كثافة قليلة؛ لتطفو على سطح الماء، ولكن أتظل عليه؟. لا، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت فى عُلُوٍّ كالزَّبد، ولكن: لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عال فيجعله أسفل؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، فالنسق الأدائى فى القرآن كان لابد أن يتم على أساس؛ لذلك جاء القول: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هى العليا، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلاً، فهى لم تكن فى أى وقت من الأوقات إلا

وهى العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب ؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هي العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشيء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعِزّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد في غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا في نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال في سبيل الله قد يكون مشقة في ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

ففى هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل :

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة »[(١)]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « قالت السماء : يا ربى إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ؛ لأنه طَعِمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يارب إئذن لى أن أغرِقَ ابن آدم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض مثلهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[(٢)] .

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انفِرُوا ﴾ أى : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان فى قلوب المسلمين ، وفى الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال فى غزوة تبوك . ولذلك قال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ والنفرة : هى الخروج إلى شىء يُهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ،

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخارى . و« سقط على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أن ضَلّ منه ، والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/ ٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج على الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : ﴿ انفِرُوا ﴾ والذى يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم القوى الذى لا تتعبه ولا ترهقه الحركة . والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال ؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح : ١٧]

فقال : والله أكثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم [1] .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُستشار فى مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة فى قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

(١) قال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٦) وتكثير السواد : تكثير أعدادهم .

واختلف العلماء[1] في تفسير قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة في الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ثِقَالاً﴾ جمع « ثقيل » ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة إلى آحاد .

والمعنى : أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن فالآية تعني : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن: كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً في وقت واحد ؟ نقول : يكون خفيفاً أي : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أي : أنه سيدخل في مشقة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

والدخول فيما هو مكروه[2] في سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن : فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهي تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً في ذاته ، أو : أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء في تفسير هذه الآية على عشرة أقوال، ذكرها القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال. والصحيح في معنى الآية أن الناس أمروا جملة ، أي : انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت.

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٩٥٢) : « إنما كان الجهاد كرهاً؛ لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى ».

فى الحركة والثقل فى المشقة ، أو : أن يكون الذى يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع فى الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً فى أول التشريع ، ثم يُصعَّد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتى الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال فى قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال: ٦٥]

وهنا يعطى الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أى : أن النسبة هى واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين فى مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فاراً [1] ؛ لأنهم أكثر من النسبة التي قررها الله .

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً ﴾ هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أي : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين [2] . ولكن هناك قول آخر في سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

أي : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان [3] بذكرهم أيُّ حرج في أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التي فرضت على كل مؤمن أن يقاتل في سبيل الله ، وهو ما جاءت به الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر » . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٥١) مرفوعاً من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عنه . قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٨) : « رجاله ثقات » . وقد أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٥٣٨) موقوفاً على ابن عباس من طريق ابن أبي نجيح عن عطاء عنه .

(٢) قال القرطبي (٤/ ٣٠٧٧) : « وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتل أو مكثر » .

(٣) قيل : إن آية ﴿ انفروا خفافًا وثقالاً ﴾ منسوخة بهاتين الآيتين ، وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] . قال القرطبي (٤/ ٣٠٧٦) : « والصحيح أنها ليست بمنسوخة » قلت : فالجهاد أحوال حسب ظروف المعركة ، فمنها ما يتوجب فيها القتال على كل أحد كما بينا ويكون الجهاد حينئذ فرض عين ، ومنها ما لا يتوجب فيها القتال فيكون فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك إذا كان العدو خارج الحدود ولم يغز البلاد ويحتلها .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمال هو الذى يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّداً بالسلاح ، وبالمركبات وهى مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذى يكفى لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يمين بماله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ ، و « جاهد » و «قاتل» مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلابد أن تبذل كل جهدك فى قتاله ، و«جاهد» مثل «شارك» ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن : فهناك مفاعلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتى أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أى : اغلبه فى الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أى : اغلبوهم فى الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو: الطريق الموصل إلى الغاية التى هى رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إذن : فـ« ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ لَكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هى كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن: النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص: ٣٢]

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن: فقول الحق : ﴿ذَلِكُمْ﴾ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أى خير يتحدث سبحانه ؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن : فالجهاد خير من القعود .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل في اللغة استعمالين ؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

ويكون مقابلها في هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتي «خير» بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفي هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير »[1]

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استُعْمِل في أفعل التفضيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثاني ، والاثنان مشتركان في الخيرية .

وعلى سبيل المثال كان عند رسول الله ﷺ عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضي الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٠) وابن ماجه في سننه (٧٩، ٤١٦٨) والحميدي في مسنده (١١١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأنت قد علمت ورأيت محبتي لك فاخترني أو اخترهما » . فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أي : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه ؛ فألحقه بنفسه وقال: « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه »[1] وكان التبني مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغي التبني وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبني ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]

و ﴿أَقْسَطُ﴾ يعني « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْفِ عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أفعل التفضيل ؛ فاعلم أنه يعطي الصفة الزائدة ويُبقي الصفة الأصلية . وفي الآية التي نحن بصددها ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذي يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتي بعده . وحين أوضح

(١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل في صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبي (٧/ ٥٣٧٨) (٨/ ٥٤٦٢) طبعة دار الغد في تفسير سورة الأحزاب.

سيدنا رسول الله ﷺ أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة [1] ، جاء له صحابى [2] فى فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلونى ؟ فلما أجاب النبى ﷺ : نعم . استبطأ الصحابى أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفى المسائل كلها، فيقول جل جلاله :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يزول . ويقال : الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر [3] .

(١) قال ﷺ : « يا عبد الله بن عمرو ، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً » أخرجه أبو داود فى سننه (٢٥١٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٥) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتِلَ . أخرجه البخارى (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً . عن شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبى ﷺ أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦١) ط . دار الفكر فى ترجمة أبى مهدى سعيد بن سنان . قال الجوزجانى : أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة . وقال البخارى : منكر الحديث . انظر : ميزان الاعتدال (ترجمة ٣٢٠٨) . ولكن قد أورده أبو نعيم موقوفاً على شداد من طريق آخر من قوله . وهو الأوجه .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أى : لو كان أمراً من متاع سهل التناول ، ومحبباً للنفس ؛ وليس فيه مشقة السفر والتضحية بالمال والنفس ؛ لأسرعوا إليه . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ ، والقاصد هو المقتصد الذى فى الوسط ؛ وبعض الناس يسرف فى الكسل، فلا يستنبط الخير من السعى فى الأرض وعما خلق الله ، وبعض الناس يسرف فى حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش فى البرية ، ولا يكون له إلا ما قسمه الله . وأمزجة الناس تتراوح ما بين الإسراف والتقتير ، أما المؤمن فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة ، والحق هو القائل :

﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٦]

لأن المؤمن لا يأخذه الكسل فيفقد خير الدنيا ، ولا يأخذه الإسراف فينسى الإيمان . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ أنه لو كان هناك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم لم يتبعوك ؛ لأنه ليست هناك مغانم دنيوية ؛ لأن هناك مشقة، فالرحلة إلى تبوك ، ومقاتلة الروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التى تضع رأسها برأس دولة الفرس ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عُسْر والحر شديد، ولو أن الأمر سهل مُيسَّر لاتبعوك .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى : أن المشقة طويلة ، ثم يقول : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ هم إذن لم يتبعوك ؛ لأن المسألة ليست عرضاً قريباً ولا سفراً سهلاً ، بل هى رحلة فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف يحلفون لك ؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم للقتال .

وقد قال الحق ذلك قبل أن يأتي أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة ؛ لكي يعرف رسول الله ﷺ المنافقين من صادقي الإيمان . وسبحانه وتعالى يفضح غباء المنافقين ؛ لذلك قال : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ واستخدام حرف السين هنا يعني أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها في المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ، ولكننا لن نحلف . ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتي خصوم الإسلام ليشهدوا - رغم أنوفهم- للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر ؛ عندما حُوِّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة ؛ قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة : ١٤٢]

وقوله هنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ معناها أنهم لم يقولوا بعد ، وإلا ما استخدم فيها حرف السين . وهذه الآية نزلت في قرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان في استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا لساهموا في التشكيك بمصداقية القرآن ، ولهدموا قضية الدين التي يتمنون هدمها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ وجاءوا مثبتين ومُصدِّقين للقرآن .

وفي هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً ؛ تجد من يقول : أنا لا أتبع إلا ما جاء في القرآن ، أما السنة فلستُ مطالباً بالالتزام بها . ونقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع . ونقول : من أين أتيت بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى تستطيع أن تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة .

ويجبر الحق سبحانه هذا الذى يحارب سنة رسول الله ﷺ ويدعو إلى عدم الالتزام بها ؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله ﷺ :

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »[1] .

وقد قالوا ذلك القول طَعْناً فى الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ﷺ ، فهم لم يمتلكوا الذكاء ؛ لأن الذكاء الذى لا يهدى للإيمان هو لون من الغباء وعَمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال ؛ فقد سبقهم قول الله : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وجاءوا من بعد ذلك وحلفوا ؛ ليؤكدوا صدق القرآن . وهم فى حلفهم يدّعون عدم استطاعتهم للقتال ، مع أن لديهم المال والقدرة .

ويقول الحق عنهم : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وما داموا قد حلفوا بالله كذباً ، فقد أدخلوا أنفسهم فى الهلاك ، فهم لم يكتفوا بعدم الجهاد ؛ بل كذبوا وفضح الله كذبهم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدام بن معدى كرب . قال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه . واللفظ للدارقطنى .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وكلمة ﴿ عَفَا ﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مُحى ؛ تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ؛ فتُحْدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه [1] ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة [2] ؛ فلا يُدْخلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً مادام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعِنْهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو.

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٥٧٧) في سننيهما من حديث زيد مولى النبي ﷺ . قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٦٩): « إسناده جيد متصل » وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى .

(٢) فهذا شأن الرب العفو الغفور القائل سبحانه ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، أما شأن الناس فقد قال الله عنهم ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فهم بالإضافة لتصيدهم لأخطاء الناس ، لو كانت الرحمة بأيديهم وكلفوا إعطاء الناس منها لبخلوا بها.

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذى أذن لهم بالقعود عن القتال ، ثم يأتى القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول فى موضع آخر من نفس السورة :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

إذن : فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً فى الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو ﷺ له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه .

وهناك من فهم قول الحق : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ على أنها استفهام استنكاري ، وكأن الحق يقول: كيف أذِنْتَ لهم بالعفو ؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله ﷺ بقوله :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

فكأن الرسول قد هُدِيَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلي للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتي من بعده واحد من عامة الناس ليفتي فى مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتي كذا، بل لابد أن يتبين الإنسان ما جاء فى القرآن والسنة قبل أن يفتى فى أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين في مسألة الفداء لأسرى بدر[1] ونزل القول الحق:

﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيد الله حكم رسوله وأبقاه . إذن فرسول الله ﷺ هُدى إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم .

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان في قوله:

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة ، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه ؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً[2] ، لعدم توافر النية الصادقة في الجهاد ؛ لذلك ثبطهم[3] الله ، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا . والعفو هنا جاء في شكلية الموضوع ، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦٣) وأحمد في مسنده (١/ ٣٠، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ ». فقال أبو بكر: يا نبي الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال: .. أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم . فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها » وقد أخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر وأخذوا الفداء ، ولكن نزل وحي الله ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب) .

(٣) التثبيط : التخذيل وإضعاف العزيمة على الخروج .

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ،ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يسترهم [1].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجىء الأمر من الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد.

وهذه الآية - إذن - تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِىَ للجهاد مع رسول الله ﷺ ويأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضى شيئاً إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .

تفكيره كالشخص العادى ؛ لأن الإنسان فى الأمور العادية إذا طُلِبَ منه شيء أدار عقله وفكره ؛ هل يفعله أو لا يفعله ؟ ولكن المؤمن إذا دُعِي للجهاد فى سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله ؛ لا يدور فى عقله الجواب ، ولا تأتى كلمة « لا » على خاطره أبداً ، بل ينطلق فى طريقه إلى الجهاد .

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج ؟

إذن : فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان فى قلوبهم ؛ لأن الواحد منهم فى هذه الحالة قد أدار المسألة فى عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله ﷺ فى عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .

والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذى لا يكرم ضيفه ويدَّعى أنه سيكرمه ، فتجده ينادى ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريده من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن فى إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم فى أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً [1] ، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً ، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ ، بينما هو فى حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقال لضيف: أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها ؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفاً ؟ أو يقال: هل تحب أن تنام عندنا أم تنام فى الفندق ، وهو أكثر راحةً لك ؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أأخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً ؛ لأن التردد يعنى الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالى ، وهو يعنى أن صاحب السؤال متردد ؛ لأن طرفى الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله ﷺ إذا دُعوا إلى الجهاد ؛ لأن مجرد الاستئذان فى الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى : أن الله يعلم ما فى صدورهم من تقوى ، فهم إنْ خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله ؛ لأنه مُطّلع على ما تُخفى الصدور .

(١) وقد ورد هذا فى قوله تعالى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] وقال: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] . ما لبث : أى : ما أبطأ عن مجيئه بعجل مشوى بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، وهو معنى الحنيذ .